تمهيد في التحليل النفسي

تشارلز برينر

ترجمة ..
أبوبكر مفتاح المنصوري

منشورات جامعة عمر المختار
2022

تمهيد في التحليل النفسي

تأليف

تشارلز برينر

ترجمة

د. أبوبكر مفتاح المنصوري

منشورات جامعة عمر المختار 2022

اسم المؤلف : تشارلز برينر

ترجمة: د. أبوبكر مفتاح المنصوري

رقم الإيداع : 2017/109م.

دار الكتب الوطنية بنغازي – ليبيا

© 2022 المؤلف

هذا كتاب يخضع لسياسة الوصول المفتوح (المجاني) ويتم توزيعه بموجب شروط ترخيص إسناد المشاع الإبداعي (CC BY-NC-ND 4.0)، والذي يسمح بالنسخ وإعادة التوزيع للأغراض غير التجارية دون أي اشتقاق، بشرط الاستشهاد بالمؤلف وبجامعة عمر المختار كناشر الاصلي.

منشورات
جامعة عمر المختار
البيضاء

الترقيم الدولي

ردمك ISBN 978-9959-79-080-4

إهداء المؤلف

إلى زوجتي

إهداء المترجم

إلى روح والدي

إلى روح والدتي

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	1
مقدمة المترجم	2
الفصل الأول: فرضيتان أساسيتان	7
الفصل الثاني: الدوافع	27
الفصل الثالث: الجهاز النفسي	49
الفصل الرابع: الجهاز النفسي (تابع)	81
الفصل الخامس: الجهاز النفسي (ملخص)	129
الفصل السادس: الهفوات والنكات	167
الفصل السابع: الأحلام	197
الفصل الثامن: المرض النفسي	225
الفصل التاسع: الصراع النفسي والأداء العقلي السوي	253
الفصل العاشر: التحليل النفسي اليوم	311
المراجع	325

مقدمة المؤلف

هدف هذا الكتاب هو أن يوفر عرضاً شاملاً وواضحاً لأساسيات نظرية التحليل النفسي، إنه لا يتطلب من القارئ أي معرفة تحليلية سابقة وسوف يفيده كمقدمة لأدبيات التحليل النفسي. غير أنه يفترض، مع ذلك، أن اتجاهات القارئ نحو التحليل النفسي اتجاهات مهنية – طبيب، طبيب نفساني، أخصائي نفساني، أخصائي اجتماعي، أو عالم اجتماعي. تزويد مثل هذا القارئ بمسح موثوق عن الفرضيات العاملة الحالية في التحليل النفسي، وبفكرة ما عن مراحل تطورها، من شأنه أن ييسر فهمه واستيعابه لمجمل التراث التحليلي نفسه، ويساعده على تجنب الخلط وسوء الفهم الذي قد ينشأ بسهولة من الاخفاق في إدراك إلى أي مدى كانت نظريات فرويد مختلفة عند مراحل مختلفة خلال الأربعين عاماً من سيرته المهنية النشطة في التحليل النفسي.

إن تنظيم مادة الكتاب هو نتيجة لسنوات عديدة من الخبرة في تدريس الأطباء النفسانيين المقيمين، أولاً في مستشفى نيويورك، قسم ويستشيستر، ثم فيما بعد في برنامج تدريب طلاب الدراسات العليا بقسم الطب النفسي في كلية الطب بجامعة يـيل. تصفح الأعمال المدرجة كقراءات مقترحة في نهاية كل فصل من شأنه أن يكمل ويضيف إلى قيمة الكتاب نفسه. كما أن من شأنه أن يوفر أساساً سليماً لقراءات الطالب المبتدئ في مجال التحليل النفسي.

مقدمة المترجم

لماذا ترجمة هذا الكتاب ؟ أليس في العربية ما يكفي من الكتب والمطبوعات حول فرويد ونظرية التحليل النفسي؟ أليست نظرية التحليل النفسي في أفول، بعد أن ثبت عدم فاعلية أساليبها العلاجية، وضعف أركانها النظرية ؟ رغم أن كل هذه الاعتراضات صحيحة إلى حد كبير، إلا أن فرويد يظل دائماً الغائب الحاضر في أي جدال يدور في حقل علم النفس ببعديه النظري والتطبيقي.

أما عن القول بأن لا حاجة لترجمة المزيد من مؤلفات التحليل النفسي حيث لا تفتقر المكتبة العربية لهذه النصوص، فهو اعتراض وجيه إلى حد بعيد. فمعظم أعمال فرويد ،إن لم يكن كلها، قد ترجمت إلى العربية منذ فترة طويلة، وهي ترجمات جيدة في معظمها، ومعظمنا قرأ الترجمات الرائعة لأعمال فرويد التي قام بها عزت راجح ومحمد عثمان نجاتي. هذا كلام في مجمله صحيح. غير أن ترجمة هذا الكتاب تضيف، في رأي المترجم مساهمتين أساسيتين. الأولى أن هذا الكتاب يعرض نظرية التحليل النفسي كاملة، وليس فقط جوانب معينة منها كما حدث في معظم المؤلفات المتاحة باللغة العربية. الثانية، يعتبر المؤلف أحد الثقات في نظرية التحليل النفسي الكلاسيكية، وقد أتاح له عمره الطويل أن يعايش مراحل تطور هذه النظرية وما عرضت له من نقد، وقد حاول أن يأخذ هذه الانتقادات في اعتباره عند تصديه لشرح هذه النظرية، ولذلك جاء الكتاب مواكباً لما طرأ من تطور فكري وما شهدته نظرية التحليل النفسي من جدل ونقاش طوال السنوات السابقة منذ وفاة فرويد نهاية ثلاثينيات القرن الماضي. لذلك عندما قررت ترجمة هذا الكتاب كان دافعي لذلك مجموعة أسباب رأيتها وجيهة:

أولها، أنه مازال للنظرية أهميتها التاريخية التي لا غنى عنها لأي طالب علم نفس، إذ لا يمكن فهم واستيعاب التطورات المتلاحقة في علم النفس دون المرور بنظرية التحليل النفسي. ولعلي اتفق مع المؤلف في ان الإلمام بأساسيات التحليل النفسي مهم لأي ممارس للعلاج النفسي، رغم التحفظات على فاعلية العلاج بالتحليل النفسي. وثانياً، وكما ذكرت، لأن فرويد لم يترك كتاباً يتناول مجمل نظريته بشكل موحد وشامل، وأعتقد أن الكتاب الذي بين أيدينا يفعل ذلك، فهو كما ذكر المؤلف في المقدمة يوفر عرضاً واضحاً وشاملاً لأساسيات نظرية التحليل النفسي. والنقطة الهامة الأخرى، والتي لفتت نظري بشكل خاص، هي سهولة أسلوب الكتاب وبساطة ووضوح شرحه، وهو أسلوب يذكرنا بسلاسة أسلوب فرويد ووضوحه. والسبب الآخر الذي أراه أيضاً هاماً هو أن المؤلف يعد من أبرز علماء التحليل النفسي المعاصرين، ومن ثم فهو خير من يشرح نظرية التحليل النفسي ويقدمها للقراء.

إنني لا أنوي في هذه المقدمة أن أعرف بنظرية التحليل النفسي، فالكتاب الذي نحن بصدده ينهض بهذه المهمة على أحسن ما يرام. هذا إلى أن ما وضع في العربية وما ترجم إليها من كتب تشرح نظرية التحليل النفسي أو تشرح جانباً منها، يفوق ما كتب وما ترجم حول أية نظرية نفسية أخرى. غير أني سأحاول أن أقدم للمؤلف الذي قد لا يكون معروفاً للقارئ العربي، فمعرفة المؤلف ومركزه العلمي بين علماء التحليل النفسي يلقي الضوء على أهمية هذا الكتاب الذي يعتبر أهم كتبه على الإطلاق.

ولد تشارلز برينر في مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية في 18 نوفمبر 1913 لأبوين من أصل أوكراني. وقد التحق، بعد حصوله على درجة في الطب من جامعة هارفارد،

بمعهد بوسطن للتحليل النفسي. بعد ذلك استقر بمدينة نيويورك، حيث قضى معظم سنوات حياته في تدريس التحليل النفسي، وفي تدريب المحللين النفسانيين بمعهد التحليل النفسي والرابطة الأمريكية للتحليل النفسي بمدينة نيويورك. وقد رأس في فترات من حياته رابطة التحليل النفسي الأمريكية، وجمعية التحليل النفسي في نيويورك. كما عمل محاضراً في الطب النفسي في كلية الطب بجامعة ييل.

ظل برينر، حتى وفاته في 19 يونية 2008، وفياً مخلصاً لأفكار فرويد ونظرية التحليل النفسي. وقد احتل لحوالي نصف قرن عمادة التحليل النفسي في الولايات المتحدة، قضاها في شرح وتنقيح المبادئ الأساسية للنظرية.

ويعد الكتاب الذي بين أيدينا من اشهر كتبه على الإطلاق، منذ أن صدر لأول مرة في عام 1955، حيث ظل ومنذ ذلك الحين المصدر المعتمد في تدريب المحللين النفسانيين بالولايات المتحدة. كما يعد أكثر كتب التحليل النفسي مبيعاً بعد كتب فرويد، وقد بيع منه أكثر من مليون نسخة. ومازالت طبعة الكتاب المنقحة (1974) متداولة، وتعاد طباعتها حتى اليوم. وقد اعتبره برينر نفسه أهم مساهماته على الإطلاق. كما اعتبره إريك بيرن Eric Berne أفضل أحد كتابين (الآخر لفرويد) للتعريف بالتحليل النفسي.

لقد أحدثت كتابات برينر تعديلات جذرية في نظرية فرويد الكلاسيكية، حتى أن النكتة المتداولة بين المحللين النفسانيين هي أنه كلما نشر تشارلز برينر بحثاً خسر التحليل النفسي مصطلحاً! ولعل أهم هذه التعديلات هي ما أطلق عليه مصطلح النظرية الحديثة في الصراع، حيث لم يعد ينظر إلى وجود الصراع كعلامة على المرض العقلي، ولا غياب الصراع

كعلامة على التوافق والصحة النفسية. لسنا في مجال نقد النظرية، غير أن تعديلات برينر ليست حادثاً نادراً في تاريخ التحليل النفسي، فالانتقادات الموجهة إلى نظرية فرويد لا تحصى، غير أن ذلك لم يجهز على نظرية التحليل النفسي التي ظلت تقاوم بإصرار أي نقد، حتى ذلك النقد الذي يمس أساس المفاهيم التي تقوم عليها النظرية من أنها غير علمية ولا تقبل الاختبار. أو تلك الانتقادات التي تشير إلى فشل أساليبها العلاجية الطويلة وغير المثمرة! لماذا لم ينصت علماء التحليل النفسي لهذه الانتقادات الخطيرة؟ لأن التحليل النفسي، كما يرى البعض، تحول إلى ايديولوجية أكثر منه علماً! لهذا رأينا برينر، رغم كل ما يوجه إلى نظرية التحليل النفسي، مازال يحتفظ بروح متفائلة حول مستقبلها، ولم تختلف آراؤه في خاتمة هذا الكتاب، التي عبر عنها من سنوات طويلة ، عن آرائه التي عبر عنها منذ سنوات قليلة فقط. ففي مقابلة اجريت معه آخر أيام حياته كرر نفس التوقعات والتنبؤات التي ذكرها في الفصل الأخير من هذا الكتاب: سوف يظل التحليل النفسي مجالاً واعداً لأولئك المهتمين بدراسة العقل الإنساني.

أما عن الكتاب، فهو مقسم إلى عشرة فصول. يتناول الفصل الأول الفرضيتين الأساسيتين اللتين تشكلان عماد النظرية وهما: مبدأ الحتمية النفسية، وفرضية اللاشعور. ويتناول الفصل الثاني موضوع الدوافع، أما الفصول الثالث والرابع والخامس فقد اختصت بمناقشة الجهاز النفسي. وتناول الفصل السادس موضوع النكات والهفوات – أخطاء الذاكرة، وزلات القلم ،وفلتات اللسان، وفي الفصل السابع عرض المؤلف لأهم موضوعات النظرية وهي ظاهرة الأحلام، وناقش الفصل الثامن موضوع المرض العقلي، أما الفصلان الأخيران فقد

أضافهما المؤلف أخيراً وهما عن موضوع الصراع النفسي وذلك ما يتناوله الفصل التاسع، أما في الفصل العاشر والأخير، فقد حاول المؤلف أن يعطي صورة حول حاضر التحليل النفسي ومستقبله.

لقد حاول المترجم أن يكون أميناً في نقل النص كما هو، بغض النظر عن موافقته أو مخالفته لرأي المؤلف وأفكاره، وسوف يجد القارئ بعض العبارات صادمة، وبعض الاستنتاجات غريبة ومنفرة، غير أني أثق في نضج عقل القارئ وقدرته على النقد والتحليل في تعامله مع هذه النصوص.

وفي ختام هذه المقدمة، فإنني أتوجه إليه سبحانه وتعالى بالشكر على توفيقه، وعلى ما منحه من نعمة الصحة حتى أنجز هذا العمل.

ولا يفوتني أن أشكر كلا من الأستاذ الدكتور مفتاح محمد عبد العزيز، والاستاذ الدكتور عبد الكريم حويل عبد العالي، على تفضلهما بمراجعة الترجمة وعلى ما أبدياه من ملاحظات وتوجيهات استفدت منها كثيراً.

المترجم:

د. أبوبكر مفتاح المنصوري

البيضاء، ليبيا، في 2012/7/23

الفصل الأول

فرضيتان أساسيتان

Two Fundamental Hypotheses

التحليل النفسي ميدان علمي بدأه سيجموند فرويد، ولازال مرتبطاً باسمه بشكل لا يقبل الفصل. ورغم أنه لا يمكن التأريخ بدقة لبداية التحليل النفسي، لأنه امتد عبر سنوات عدة، إلا أن تطور التحليل النفسي كان قد وصل مداه بحلول العام 1895، وقد أدى ظهور التحليل النفسي، مثل أي ميدان علمي آخر، إلى بروز نظريات معينة اشتقت من ملاحظاته، وحاولت تنظيم وتفسير هذه الملاحظات ... لذلك، فما نسميه بنظرية التحليل النفسي عبارة عن بناء من الفرضيات تتعلق بنمو الإنسان وأدائه العقلي لوظائفه، وهي جزء من علم النفس العام، وتشكل أهم الإسهامات على الإطلاق التي قدمت لعلم النفس الإنساني حتى هذا التاريخ.

من المهم أن ندرك أن نظرية التحليل النفسي ليست مجرد نظرية للمرض النفسي، بل هي تهتم بالأداء العقلي السوي كما تهتم بالأداء المرضي. صحيح أن الممارسة العملية للتحليل النفسي تجري مع أناس يعانون أمراضاً واضطرابات عقلية، لكن نظرية التحليل النفسي تهتم بالسواء كما تهتم بالشذوذ، رغم أنها اشتقت أساساً من دراسة وعلاج الحالات الشاذة.

وكأي مجال علمي آخر، فإن الفرضيات المتعددة لنظرية التحليل النفسي مترابطة وبشكل تبادلي. وتعتبر بعض هذه الفرضيات من الأساسيات، وبعضها استقر وترسخ أكثر من غيره، أما البعض الآخر فقد حصل على براهين إثباتيه أصبحت أساسية في دلالتها، حتى أننا نعتبرها قوانين راسخة للعقل.

طرحت نظرية التحليل النفسي فرضيتين أساسيتين هما: الأولى، مبدأ الحتمية

النفسية. والفرضية الثانية، المبدأ القائل بأن الوعي أو الشعور هو الاستثناء وليس القاعدة في العمليات العقلية. وبعبارة أخرى، يعني الافتراض الأخير في نظرية التحليل النفسي أن العمليات العقلية اللاشعورية أكثر تكراراً ودلالة في الأداء العقلي السوي والشاذ. وسوف يخصص هذا الفصل، كما سيأتي، لمناقشة هاتين الفرضيتين وعلاقتهما المتبادلة.

يقضي مبدأ الحتمية النفسية بأنه في العقل، كما في الطبيعة المادية حولنا، لا شيء يحدث بالصدفة أو بطريقة عشوائية. فكل حدث نفساني محكوم بالحوادث التي سبقته. فالوقائع في حياتنا العقلية، التي يمكن أن تبدو عشوائية ولا علاقة لها بما سبق، هي كذلك في الظاهر فقط. إذ الواقع أن الظواهر العقلية في حاجة للعلاقات السببية مع الأحداث السابقة، مثلها في ذلك مثل الظواهر المادية. فالانقطاع بهذا المعنى لا وجود له في الحياة العقلية.

إن فهم واستخدام هذا المبدأ ضروري من أجل التوجه الصحيح في دراسة علم النفس الإنساني في مظاهره السوية والمرضية. وإذا فهمنا واستخدمنا هذا المبدأ بشكل صحيح، فإننا لا يمكن أن نتجاهل أية ظاهرة نفسية باعتبارها عرضية، أو لا معنى لها. إذ يجب أن نسأل أنفسنا دائماً عندما يتعلق الأمر بأية ظاهرة من هذه الظواهر التي نهتم بها (ما سببها ؟ ولماذا حدثت بهذه الكيفية ؟). نحن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة لثقتنا بأن الإجابة عنها موجودة. هل في إمكاننا اكتشاف الإجابة بسرعة وسهولة هذا أمر آخر، إلا أننا نعلم أن الإجابة موجودة.

يوضح المثال التالي هذا المدخل للظواهر النفسية. فمن خبرات الحياة اليومية المعتادة،

عندما نضيِّع أو ننسى شيئاً ما، فالتفسير المعتاد لمثل هذه الواقعة هو اعتبارها (حادثة عرضية)، هكذا حدثت، لكن الاستقصاء العميق للعديد من مثل هذه الحوادث خلال السبعين سنة الماضية بواسطة المحللين النفسانيين، بدءاً بدراسات فرويد نفسه، أظهر أنه، على عكس الاعتقاد الشائع، لا يمكن اعتبارها عرضية، بل يمكن إظهار كل حادثة من هذه الحوادث وقد نشأت عن رغبة أو نية من الشخص المقصود، مما يوفر انسجاماً تاماً مع المبدأ الذي نناقشه وهو الأداء الوظيفي للعقل.

ولنأخذ مثالا آخر من الحياة اليومية، فقد اكتشف فرويد، وأكد ذلك المحللون النفسانيون اللاحقون، أن ظواهر النوم الشائعة والغريبة التي نسميها أحلاماً تتبع نفس مبدأ الحتمية النفسية. فكل حلم، بل كل صورة في كل حلم، ناتجة عن حوادث نفسية أخرى كل منها يقف في علاقة متماسكة مع باقي الحياة النفسية للشخص الحالم.

يجب أن يدرك القارئ بأن مثل هذه النظرة للأحلام، وهو موضوع سوف نناقشه مطولاً في الفصل السابع، تختلف تماماً عن تلك التي كانت سائدة مثلا بين علماء النفس ذوي التوجه الطبي منذ 70 سنة مضت، فهؤلاء أرجعوا الأحلام إلى النشاط العشوائي للأجزاء المختلفة للدماغ أثناء النوم، وهي نظرة تخالف تماماً قانون الحتمية النفسية.

إذا تحولنا الآن إلى ظواهر المرض النفسي فيجب توقع استخدام نفس المبدأ، وفي الواقع فإن علماء التحليل النفسي قد عززوا توقعاتنا بشكل متكرر، فكل عرض عصابي، مهما كانت طبيعته، قد نشأ عن عمليات عقلية أخرى، رغم أن المريض نفسه غالباً ما يعتبر هذه الأعراض غريبة عن كيانه، ولا علاقة لها مطلقاً مع باقي حياته العقلية. ولكن العلاقة، مع

ذلك، موجودة ويمكن البرهنة عليها، رغم عدم دراية المريض بوجودها.

لا ينبغي أن ننسى عند هذه النقطة أننا نتحدث ليس فقط عن الفرضية الأولى، مبدأ الحتمية النفسية، بل أيضاً عن الفرضية الثانية وهي وجود ودلالة العمليات العقلية التي يجهلها الفرد نفسه أو لا يشعر بها.

وفي الحقيقة فإن العلاقة بين هاتين الفرضيتين قريبة ولصيقة جداً لدرجة يصعب معها مناقشة إحداها دون حضور الأخرى. فالحقيقة الواضحة أن كثيراً مما يجري في عقولنا هو لا شعوري، يعني غير معروف لنا، وهو المسؤول عن الانقطاع الظاهر في حياتنا العقلية. فحينما تبدو الفكرة، أو الشعور، أو النسيان، أو الحلم، أو العرض المرضي، لا علاقة له بما سبقه في العقل، فإن ذلك راجع إلى ارتباطه السببي مع بعض العمليات العقلية اللاشعورية أكثر من ارتباطه مع العمليات الشعورية. فإذا تمكنا من اكتشاف الأسباب اللاشعورية، فإن كل الانقطاع الظاهري يختفي ويصبح التسلسل أو التتابع السببي واضحاً.

أبسط الأمثلة على ذلك، هي عندما يجد الشخص نفسه يردد نغماً ما دون أن تكون لديه فكرة عن كيف خطر ذلك على باله. في هذا المثال بالذات، فإن الانقطاع الظاهر في الحياة العقلية لهذا الشخص يمكن تفسيره بالاستعانة بشهادة أحد المارة الذي يخبرنا بأن هذا الشخص قد سمع هذا النغم قبل لحظات من دخوله إلى شعوره وكأنه آت من لا مكان. لقد كان انطباعاً حسياً، سمعياً في هذا المثال، دفع بهذا الشخص إلى ترديد هذا النغم. وحيث أن هذا الشخص كان غافلاً أثناء سماعه النغم، فإن خبرته الذاتية كانت منقطعة في أفكاره، وتطلبت شهادة أحد المارة كي يزيل مظهر الانقطاع ويوضح التسلسل

السببي.

لقد أُعطي المثال السابق لبساطته، ولكن في الحقيقة من النادر بالنسبة للعمليات العقلية اللاشعورية – في مثل هذه الحالة الإدراك السمعي – أن تكتشف بمثل هذه البساطة والسهولة. والسؤال الطبيعي الذي يمكن أن نسأله هو ما إذا كانت توجد أية طريقة عامة للكشف عن العمليات العقلية التي لا يدركها الفرد، هل يمكن، مثلاً، ملاحظة هذه العمليات مباشرة ؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فكيف تسنى لفرويد أن يكتشف أهمية وتكرار مثل هذه العمليات في حياتنا العقلية ؟.

الحقيقة أننا لا نملك حتى اللحظة أية طريقة تسمح لنا بملاحظة العمليات اللاشعورية بشكل مباشر. فكل أساليبنا لدراسة مثل هذه الظواهر أساليب غير مباشرة تسمح لنا باستنتاج وجود هذه الظواهر وتحدد لنا غالباً طبيعتها ودلالتها في الحياة العقلية للفرد موضع الدراسة. إن أكثر الأساليب المفيدة والموثوق بها، التي نملكها حالياً لدراسة العمليات اللاشعورية، هي تلك التي طورها فرويد عبر سنوات عديدة وسماها التحليل النفسي، لأنها مكنته من رؤية واكتشاف العمليات العقلية التي كان يمكن أن تظل، وبدون هذه الأساليب، مخفية ومطموسة. ففي خلال الفترة التي كان يطور فيها طريقة التحليل النفسي أصبح فرويد على دراية، بمساعدة هذه الطريقة، بأهمية العمليات العقلية اللاشعورية في حياة أي فرد، سواء أكان سليماً أو مريضاً عقلياً. لذلك قد يكون من المناسب أن نتتبع، وباختصار، الخطوات التي قادت فرويد لتطوير هذه الطريقة.

كما أخبرنا فرويد نفسه في سيرته الذاتية (1925)، فقد بدأ حياته المهنية كأخصائي

تشريح أعصاب على درجة من الكفاءة، إلا أنه لمواجهة متطلبات المعيشة كان عليه ممارسة الطب كأخصائي أعصاب وأن يتولى علاج المرضى الذين نسميهم اليوم بالعصابيين والذهانيين، وهو أمر لايزال متبعاً حتى اليوم من قبل الأخصائيين في طب الأعصاب، باستثناء أولئك الذين يشغلون مراكز طبية أو أكاديمية ثابتة ولا يستقبلون أي مرضى خصوصيين. فالطب العصبي الآن، كما كان في الماضي، لايزال يمارس مع المرضى عقلياً.

وفي زمن فرويد الذي بدأ فيه ممارسة الطب لم يكن يوجد أي نموذج للعلاج الطبي النفسي يرتكز على مسببات منطقية ومعقولة للمرض. والواقع، أن ما وجد في الحقل الطبي كله كان قليلاً جداً. فعلم الجراثيم، إن لم يكن في طفولته، فقد كان بكل تأكيد في سني مراهقته المبكرةٍ كما كان قد بدأ للتو استخدام وتطوير التعقيم في الجراحة، بينما بدأت بالكاد التطورات الكبيرة في علم الأمراض وعلم وظائف الأعضاء لدرجة تمكنها من استحداث تحسينات هامة في علاج المرضى. ومن المعروف لنا حالياً أنه كلما كان تدريب الطبيب شاملاً وموسعاً كانت نتائجه العلاجية أفضل – فالطب الإكلينيكي أصبح علماً. إن من الصعب إدراك أن هذا لم يكن الوضع السائد منذ قرن مضى، فالطبيب المدرب جيداً لم يكن في ذلك الوقت أفضل من المشعوذ الجاهل في قدرته على علاج الأمراض، رغم أنه قد يكون أفضل من حيث قدرته على تشخيص هذه الأمراض. لذلك من الغريب بالنسبة لنا، مثلاً، أن نقرأ ازدراء تولستوي للأطباء فنعزو ذلك لمزاجه، كما هو الحال مع قناعات روائي آخر بارز في فترة متأخرة هو الدوس هكسلي الذي رأى أن العدسات ليست ضرورية لعلاج قصر النظر. لكن الحقيقة هي أنه حتى الطبيب المدرب جيداً لم يكن في إمكانه، خلال الفترة

المبكرة من عصر تولستوي، شفاء المرض. ووفقاً لمحك النتائج فقد كان هدفاً مناسباً تماماً لنقد تولستوي الساخر. فقط خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بدأ الطب، كما يدرس بالجامعات، يعطي نتائج تفوق بشكل واضح نتائج الطبيعة، أو المعالجة المثلية[1]homeopath، أو العلم المسيحي Christian science[2]، أو الخرافات الشعبية.

استخدم فرويد، وكما هو متوقع من أي عالم مدرب جيداً، أساليب العلاج التي كانت متوفرة لديه؛ فقد استخدم لعلاج الهستيريا، على سبيل المثال، العلاج الكهربائي الذي اخترعه أخصائي الاعصاب المعروف إرب Erb الذي مازال جزء كبير من عمله في الفسيولوجيا الكهربية مقبولاً حتى اليوم. لكن لسوء الحظ، لم تكن مقترحات (إرب) لعلاج الهستيريا قائمة على أساس متين، مما دعا فرويد، كما ذكر هو نفسه، إلى الاستنتاج بأن علاج (إرب) للهستيريا ليس له قيمة، وأن ما ادعاه من نتائج غير صحيح. وفي عام 1885رحل فرويد إلى باريس حيث درس لعدة اشهر في عيادة شاركو، وهناك تعرف على التنويم المغناطيسي كأسلوب لإحداث الأعراض الهستيرية وعلاجها، كما تعرف على متلازمة الهستيريا في شكلها الأساسي والثانوي كما حددها شاركو. لقد حاول فرويد، مثل غيره من أخصائي الأعصاب المعاصرين له، وبدرجات متفاوتة من النجاح، تخليص مرضاه من أعراضهم المرضية باستخدام إيحاءات التنويم المغناطيسي، وفي هذا الوقت تقريباً أخبره صديقه بروير عن تجربته مع إحدى حالات الهستيريا، والتي كانت ذات أهمية حاسمة في تطور التحليل النفسي فيما بعد.

---

[1]. شكل من أشكال الطب البديل. (المترجم)

[2]. طائفة دينية مسيحية تؤمن بالعلاج الروحي وشفاء الأمراض عن طريق الصلاة. (المترجم)

كان بروير نفسه طبيباً ممارساً ذا موهبة بارزة وتدريباً ممتازاً في مجال علم وظائف الأعضاء وقد شارك في اكتشاف أحد انعكاسات الجهاز التنفسي، والتي عرفت فيما بعد بانعكاس هيرنج – بروير، كما ادخل استخدام المورفين في علاج الاستسقاء الرئوي الحاد acute pulmonary edema. أخبر بروير فرويد أنه تولى – ولعدة سنوات – علاج سيدة تعاني من الهستيريا وذلك باستخدام التنويم المغناطيسي، واكتشف أنها كانت قادرة على استدعاء الخبرات والانفعالات التي أدت إلى الأعراض الهستيرية، وأن هذه الأعراض يمكن أن تختفي أثناء التنويم. أدى هذا الأسلوب الذي استخدمه فرويد بنجاح إلى نتائج طيبة في علاج حالات الهستيريا بين مرضاه، وتم نشر نتائج هذا العمل بالاشتراك مع بروير (1895) في شكل مقالات، ثم أخيراً في دراسة منفردة.

لقد تبين لفرويد لاحقا أن التنويم المغناطيسي لم يكن ميسوراً دائماً، وأن نتائجه كانت مؤقتة وعابرة، كما أن بعضاً من مرضاه الإناث أصبحن متعلقات به أثناء العلاج بالتنويم الأمر الذي سبب له كثيراً من الحرج، في هذه المرحلة تذكر فرويد إحدى تجارب عالم التنويم الفرنسي بيرنهايم، الذي عرض أمام إحدى الجماعات، وكان فرويد أحد أعضائها، كيف يمكن معالجة نسيان المريض لخبراته أثناء التنويم دون الحاجة إلى إعادة تنويمه مرة أخرى، وذلك بحثّه على تذكر ما يصر على أنه عاجز عن تذكره. فإذا كان الحث قوياً ومتواصلاً بشكل كاف، فإن المريض يتذكر ما كان نسيه دون الحاجة إلى إعادة تنويمه من جديد، حاول فرويد على هذا الأساس البرهنة على إمكانية شفاء المريض من حالة فقدان الذاكرة الهستيري دون الحاجة إلى تنويمه، وشرع في ذلك فعلاً، وبهذه البداية طور فرويد تقنية التحليل النفسي التي تعتمد على أن

المريض يخبر المحلل النفساني بما يرد على ذهنه من أفكار دون استثناء، وأن يمتنع عن ممارسة أي نوع من الرقابة أو التوجيه المقصود لهذه الأفكار.

لقد شاع في تاريخ العلم أن أي ابتكار لتقنية جديدة يفتح عالماً جديداً من البيانات التي تجعل من الممكن تكوين فرضيات صحيحة حول ما كان مفهوماً في السابق بشكل خاطئ أو ناقص. واختراع جاليليو للتلسكوب هو أحد أمثلة هذا التطور التقني الذي مكن لهذا التطور الهائل في علم الفلك. واستخدام باستور للمجهر في دراسة الأمراض المعدية كان بالمثل ثورياً في تأثيره على ذلك الحقل العلمي، وبتطوير واستخدام أسلوب التحليل النفسي تمكن فرويد، ذلك العبقري الذي استخدمه وطوره، من إحداث اكتشافات أدت إلى تثوير كل من النظرية والتطبيق في حقل الطب النفسي، وخاصة في العلاج النفسي، وتقديم مساهمات أساسية لعلم النفس الإنساني عموماً.

يكمن السبب وراء الأهمية الكبرى في جعل المريض يتخلى عن التحكم الواعي في أفكاره هو أن ما يفكر به المريض وما يقوله تحت هذه الظروف تمليه عليه دوافعه وأفكاره اللاشعورية. وهكذا تمكن فرويد، عن طريق الاستماع إلى التداعيات الحرة للمريض، من استنتاج ما يدور لا شعورياً في عقل المريض. لذلك كان فرويد في مركز فريد من حيث قدرته على دراسة العمليات العقلية اللاشعورية عند مرضاه، وما اكتشفه خلال سنوات من الملاحظة الدقيقة والصبورة هي أنه ليست الأعراض الهستيرية فقط هي التي تعتبر ناجمة عما يدور لاشعورياً داخل عقل الفرد، بل أيضاً كثير من أشكال التفكير والسلوك المرضي.

اكتشف فرويد أثناء دراسته للظواهر العقلية اللاشعورية أنه يمكن تقسيمها إلى

مجموعتين: المجموعة الأولى، تشمل الأفكار والذكريات التي يمكن جعلها شعورية بكل سهولة عن طريق بذل الجهد في الانتباه. مثل هذه العناصر العقلية تملك إمكانية الولوج إلى الوعي بسهولة، وقد سماها فرويد (ما قبل الوعي). فأية فكرة تَصادَف وأن كانت في مرحلة الوعي عند لحظة معينة، على سبيل المثال، فهي في مرحلة ما قبل الوعي قبل تلك اللحظة المعينة وبعدها، أما أكثر الظواهر اللاشعورية إثارة للاهتمام فهي تلك العناصر العقلية التي يمكن فقط جعلها شعورية بواسطة بذل جهد أكبر. بمعنى آخر، فإن هذه العناصر تم احتجازها عن الوعي بقوة كبيرة يلزم التغلب عليها أولاً حتى يتسنى دخولها إلى الوعي أو الشعور. وهذا ما لاحظناه، مثلاً، في إحدى حالات فقدان الذاكرة الهستيري.

لقد كانت هذه المجموعة الثانية من الظواهر هي التي أطلق عليها فرويد مصطلح اللاشعور في أضيق معانيه. وقد أوضح فرويد أن كون هذه الظواهر لاشعورية لا يمنعها من ممارسة أكبر التأثير على الوظائف العقلية. هذا إلى أن هذه العمليات اللاشعورية يمكن أن تكون مساوية للعمليات الشعورية في تعقيدها ودقتها.

وكما أوضحنا سابقاً، نحن لا نملك إلى الآن أية وسيلة لملاحظة الأنشطة العقلية اللاشعورية بشكل مباشر، وكل ما يمكننا فعله هو ملاحظة تأثيرها من خلال تصرفات الشخص، أومن خلال ما يعبر عنه من أفكار ومشاعر، مثل هذه المعلومات تكون مستخلصة من أنشطة عقلية لاشعورية، ومنها نستخلص استنتاجات حول هذه الأنشطة نفسها.

تصبح هذه المعلومات واضحة وثرية خاصة عندما يستخدم الشخص أسلوب

التحليل النفسي الذي اقترحه فرويد، من ناحية أخرى، هناك مصادر للبيانات توفر دليلاً على افتراضنا الأساسي من أن العمليات العقلية اللاشعورية لديها قدرة التأثير على أفكارنا وتصرفاتنا، وقد يكون من المثير للاهتمام تقديم مسح مختصر لطبيعتها.

أحد الأدلة من هذا النوع ذو طبيعة تجريبية، وقد استمد من الحقائق المعروفة جيداً عن إيحاء ما بعد التنويم المغناطيسي، فعندما ينوم المريض يؤمر أثناء غشية النوم بفعل شيء ما بعد استيقاظه من الغشية، على سبيل المثال، " عندما تدق الساعة الثانية، انهض وافتح النافذة." وقبل إيقاظ المريض يتم إخباره أنه سوف ينسى ما حدث أثناء غشية النوم، ثم يؤمر بعدها بالاستيقاظ. وبعد استيقاظه بفترة قصيرة، تدق الساعة الثانية، وسيذهب عندها ويفتح النافذة. وإذا سئل المريض عندها لماذا فعل ذلك، فإما أن يجيب بأنه "لا يعرف" أو يجيب بأنه "فقط شعر برغبة في القيام بذلك"، أو كما هي العادة سوف يختلق تبريراً ما كالقول بأنه شعر بحرارة!.

والنقطة الهامة هو أن الشخص لم يكن واعياً عندما نفذ العمل الذي سبق وأن أُمر به من قبل المنوم. إنه لا يعرف لم فعل ذلك، كما لا يمكنه الوعي بدوافعه الحقيقية، سواء بالتذكر أو الاستبطان. تظهر هذه التجربة بوضوح أن العمليات العقلية اللاشعورية (تنفيذ الأمر في مثل هذه الحالة) يمكن أن يكون لها تأثير محفز على السلوك والأفكار.

يمكن الحصول على أدلة أخرى حول هذه الحقيقة من الملاحظات الإكلينيكية، وحتى الملاحظات العامة. خذ مثلاً، ظواهر معينة من الأحلام. من أجل القيام بدراسة وافية للأحلام، من الضروري استخدام أسلوب البحث الذي اقترحه فرويد، وهو أسلوب التحليل النفسي. ذلك لأن أسلوب فرويد في دراسة الأحلام هو أحد منجزاته الكبرى، ويصنف كتابه

تفسير الأحلام كواحد من أعظم الكتب العلمية الثورية على مر العصور. ومع ذلك فنحن لسنا في حاجة الآن لدراسة تفسير الأحلام بالتفصيل، إذ سنفرد لذلك فيما بعد فصلاً كاملاً لمناقشة سيكولوجية الأحلام هو الفصل السابع ... أما الآن، فنحن في حاجة فقط إلى إعطاء الملاحظات التالية حول الموضوع.

من المعروف جيداً من خلال مصادر عدة، كالصحف مثلاً وسجلات المستكشفين في بعثات الاستكشاف المبكر للقطب، أن الرجال الجياع يحلمون بالطعام باستمرار. وأعتقد أن بإمكاننا أن ندرك وبسهولة أن الجوع هو المسؤول عن هذه الأحلام، وأن الرجال على دراية ووعي كامل بحالة الجوع لديهم عندما يستيقظون. ولكن أثناء نومهم، حينما يحلمون بالتهام الطعام على مأدبة الأكل، فإنهم غير واعين بحالة الجوع، بل فقط بحالة الشبع، مما يمكن معه القول أنه ،أثناء حدوث الحلم ،كان هناك شيء ما يحدث لا شعورياً في عقل الحالم أدى إلى ظهور تصورات الحلم التي تمت معايشتها شعورياً.

من الأمثلة الأخرى لهذه الأحلام تلك التي يحلم فيها النائم بالشرب لكي يستيقظ فيجد نفسه عطشاناً، أو يحلم بالتبول ثم يستيقظ بحافز يحثه على البول – هذه كلها أمثلة تشير إلى أن أنشطة العقل اللاشعورية أثناء النوم يمكن أن تؤدي إلى نتيجة شعورية. ففي هذه الحالات تقود إحساسات الجسد اللاشعورية والرغبات المرتبطة بها إلى حلم شعوري بالراحة والإشباع المطلوب. مثل هذا التوضيح هام في حد ذاته، ويمكن القيام به دون أي تقنية خاصة بالملاحظة. لقد استطاع فرويد أن يوضح بواسطة أسلوب التحليل النفسي أن وراء كل حلم أفكار ورغبات لاشعورية، وبهذا أسس لقاعدة عامة وهي أن منشأ الأحلام نشاط عقلي لا

شعوري، وأنها سوف تبقى هكذا بالنسبة للشخص للحالم حتى يُستخدَم معها أسلوب التحليل النفسي.

كانت الأحلام مهملة إلى حد كبير كموضوع لدراسة علمية جادة حتى بدأ فرويد أبحاثه في نهاية القرن التاسع عشر، إذ قبل ذلك لم يكن هناك أي أسلوب مقبول لدراستها، ولذلك فمهما أجري من دراسات على الأحلام، فإن ما ألقي من ضوء عليها كان قليلاً جداً. لقد كان اكتشاف فرويد لأسلوب التحليل النفسي هو الذي ساعده على الكشف عن أمور حول الأحلام أكثر مما كان متاحاً لمن سبقوه.

توجد مجموعة أخرى من الظواهر نبه إليها فرويد، وهي تظهر كيف أن الأنشطة العقلية اللاشعورية يمكن أن تؤثر على سلوكنا الواعي. إنها مثل الأحلام مظاهر سوية من الحياة العقلية، وهي أيضاً مثل الأحلام تم تجاهلها في السابق لتعذر دراستها بشكل ناجح إلى أن طور فرويد أسلوب التحليل النفسي. ومثلما فعلنا مع الأحلام، سوف نناقش الآن هذه الظواهر باختصار تاركين مناقشتها المستفيضة للفصل السادس. تحدث هذه الظواهر في اليقظة أكثر من حدوثها أثناء النوم، وهي ما يمكن تسميته عموماً بالفلتات : فلتات اللسان، والقلم، والذاكرة، وما شابه من تصرفات ليس لها اسم في اللغة الإنجليزية، بينما تدعى في اللغة الألمانية fehlleistungen، ومعناها الحرفي الأفعال الخاطئة. وكما هو الحال في الأحلام، فإن بعض الفلتات أو الزلات واضحة وبسيطة لدرجة أنه يمكننا، وبدقة، التنبؤ بمغزاها اللاشعوري. إن من السهل نسيان الأمور الكريهة والمزعجة كسداد فاتورة مثلاً، لكن لا يمكن للعاشق الولهان أن ينسى موعداً مع حبيبته، وإلا فإنها ستحمله مسؤولية هذه الإشارة اللاشعورية من الإهمال

نحوها، كما لو أن ذلك تم بنية مقصودة. ليس من الصعب تخمين ما ينطوي عليه تردد شاب مقدم على الزواج إذا ما اخبرنا بأنه، وبينما كان يقود سيارته متجهاً إلى حفل الزفاف، توقف عند إشارة ضوئية ليفاجأ، عند تغيير الإشارة، بأنه توقف عند إشارة خضراء وليس حمراء!.

المثال الآخر الواضح والذي يمكن تسميته بالفعل العرضي symptomatic action، وليس فلتة أو زلة من أي نوع، قام به أحد المرضى الذي أُلغِي موعد جلسته العلاجية لأسباب راجعة لظروف المحلل النفساني. لقد وجد هذا المريض نفسه دون عمل خلال الوقت الذي تعود أن يكون فيه مشغولًا في جلسة العلاج فقرر أن يجرب زوجاً من مسدسات المبارزة العتيقة التي اشتراها حديثاً. وهكذا ففي أثناء الوقت الذي تعود فيه أن يكون مستلقياً على أريكة المحلل النفساني كان يرمي هدفاً بمسدس المبارزة. وبدون حاجة إلى ربط الأحداث من جانب المريض، يمكننا أن نفترض أنه كان غاضباً من المعالج لكونه لم يتمكن من مقابلته ذلك اليوم.كان فرويد، وكما هو الحال في الأحلام، قادراً باستخدام طريقة التحليل النفسي، أن يظهر أن النشاط العقلي اللاشعوري يلعب دوراً في إنتاج جميع الفلتات والزلات، وليس فقط تلك التي يبدو مدلولها واضحاً بسهولة، كما هو الحال في الأمثلة المذكورة سابقاً.

الدليل الآخر الذي يمكن تقديمه للبرهنة على فرضية أن العمليات العقلية اللاشعورية للفرد تحمل مدلولاً في حياته العقلية هو ما يلي : إن دوافع سلوك الفرد قد تكون غير واضحة له رغم كونها واضحة للملاحظ الخارجي. لدينا أمثلة عديدة من خبرتنا الإكلينيكية والشخصية: فقد يبدو جلياً من سلوك الأم، مثلاً، أنها مستبدة ومسيطرة، بينما تعتقد في قرارة نفسها أنها أكثر الأمهات تضحية، ولا تريد إلا ما هو خير لطفلها، دون أدنى فكرة لديها عن

رغباتها الخاصة. أعتقد بأن معظمنا سوف يسلم بأن لهذه المرأة رغبة لاشعورية للسيطرة والتحكم في طفلها، رغم إنكارها القوي لمثل هذه الرغبة. المثال الآخر، والغريب بعض الشيء، هو الشخص الهادئ المسالم المستعد للشجار العنيف مع أي شخص يعارض رأيه المؤيد للعنف. فمن الواضح أن هذا الهدوء الواعي تصحبه رغبة لاشعورية في القتال، وهي في هذه الحالة نفس الشيء الذي يدينه اتجاهه الواعي.

لقد استعنا حتى الآن بأمثلة من الحياة العقلية السوية كدليل على وجود العمليات العقلية اللاشعورية، غير أن الواقع هو أن فرويد اكتشف أهمية النشاط العقلي اللاشعوري في البداية من خلال الأعراض المرضية للمضطربين عقلياً، ونتيجة لهذا الاكتشاف أصبحت فكرة أن الأعراض المرضية لها معنى مجهول عند المريض فكرة مقبولة ومفهومة لدرجة لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح، فإذا كان هناك مريض يعاني عمى هستيرياً، فسوف نفترض وجود شيء ما يتجنب المريض لا شعورياً رؤيته، أو أن ضميره يمنعه من رؤيته. صحيح أنه ليس من السهل دائماً تخمين المعنى اللاشعوري لأي عرض بشكل صحيح، وأن المحددات اللاشعورية، حتى ولو لعرض واحد، يمكن أن تكون كثيرة ومعقدة جداً لدرجة أنه حتى لو أمكننا تخمين معناها بشكل صحيح، فإن هذا التخمين يمثل جزءاً واحداً فقط، وأحيانا جزءاً صغيراً جداً من الحقيقة كلها. إلا أن هذا على أي حال، غير مهم فيما يتصل بهدفنا الحالي المتعلق بالمصادر المختلفة من الأدلة حول فرضيتنا الأساسية عن العمليات العقلية اللاشعورية.

رغم أنه يمكننا الآن، وكما في الأمثلة التوضيحية السابقة أن نبرهن، حتى بدون مساعدة أسلوب التحليل النفسي، على قوة النشاط العقلي اللاشعوري في التأثير على السلوك

والأفكار الشعورية عند كل من الأصحاء والمرضى وفي مواقف التجريب على التنويم المغناطيسي، إلا أننا يجب، مع ذلك، أن نتذكر أن استخدام أسلوب التحليل النفسي هو الذي جعل هذا الاكتشاف ممكناً، وأنه كان جوهرياً لغرض الدراسة المتكاملة للظواهر العقلية اللاشعورية.

أقنعت هذه الدراسة فرويد أن غالبية ما يقوم به العقل من وظائف يتم دون وعي، وأن الوعي هو السمة الاستثنائية وليس القاعدة في أداء العقل لوظائفه، وهذا يناقض بشكل حاد وجهة النظر السائدة قبل زمن فرويد في أن الوعي وأداء العقل لوظائفه أمران مترادفان. نحن نعتقد اليوم أنهما لا يمكن أن يكونا كذلك وأن الوعي، رغم كونه خاصية هامة في العمليات العقلية، إلا أنه ليس ضرورياً. وفي ظننا أنه ليس من حاجة لربطه بالعمليات العقلية الحاسمة في تحديد سلوك الفرد، أو حتى بتلك العمليات الأكثر دقة وتعقيداً من حيث طبيعتها. فمثل هذه العمليات، حتى لو كانت معقدة وحاسمة، يمكن أن تكون لا شعورية تماماً.

قراءات إضافية

Freud, S., Introductory lectures on psychoanalysis. Standard edition,vol.,15 and 16,1963. Also in: Complete introductory lectures on psychoanalysis. New York:Norton,1966.

الفصل الثاني

الدوافع

The Drives

تعتبر الفرضيتان اللتان تمت مناقشتهما أساسيتين في أي تفسير لنظرية التحليل النفسي. إنهما يشكلان أرضية، إن صح التعبير، يرتكز عليها كل الباقي، أو بتعبير آخر، يمثلان الدليل الذي يحدد ويوجه طريقتنا في صياغة كل فروضنا القادمة المتعلقة بالأجزاء والعناصر المختلفة للجهاز النفسي وطريقتها في العمل.

دعونا نواصل محاولتنا لتقديم البناء العقلي الذي تعرضه لنا نظرية التحليل النفسي بمناقشة القوى الغريزية التي يعتقد أنها تستحث العقل وتدفعه للنشاط.

كانت النظريات التي صاغها فرويد ذات توجه فسيولوجي دائماً بقدر ما كان يسمح لها أن تكون. وكما نعرف من رسائله التي نشرت حديثاً، فقد قام في أوائل عقد التسعينات من القرن التاسع عشر، بأعظم محاولة طموحة لصياغة علم نفس عصبي (Freud, 1954). لقد أرغم فرويد على التخلي عن المحاولة، لأن الحقائق لم تكن تسمح بإيجاد رابطة بين الحقلين العلميين، لكنه شاطر معظم الأطباء النفسانيين المعاصرين له، وربما معظم علماء النفس، اعتقادهم في أنه سوف يأتي اليوم الذي توصف فيه الظواهر العقلية بلغة وظائف الدماغ. ورغم بعض المحاولات المثيرة التي تمت في هذا الاتجاه، إلا أن تحقيق ذلك بنجاح لا يبدو ممكناً حتى الآن، ولا أحد يعرف متى ستنجح هذه المحاولات. في نفس الوقت فإن الروابط الشكلية والنظرية بين التحليل النفسي والفروع الأخرى لعلم الأحياء قليلة، والرابطان الرئيسيان يتعلقان بالوظائف النفسية المتصلة بالإدراك الحسي والقوى الغريزية المسماة بالدوافع، والتي تشكل موضوع هذا الفصل.

نستهل أولا بكلمة حول تسمية المصطلح. فما يطلق عليه هنا مصطلح الدوافع

drives يشار إليه غالباً في أدبيات التحليل النفسي ،وبشكل تبادلي، باسم الغرائز instincts، وهذه الكلمة أكثر شيوعاً في السياق الحالي من مصطلح الدوافع، إلا أنه في حالتنا هذه نفضل الكلمة الأقل ألفة، وذلك لكون الوظائف النفسية الإنسانية التي ننوي وصفها تختلف تماماً عما يسمى بالغرائز في الحيوانات الدنيا رغم العلاقة الوثيقة بين الاثنين. والتمييز الذي ينبغي عمله هو أن: الغريزة حاجة أو قابلية فطرية للتصرف تجاه مجموعة معينة من المثيرات بطريقة نمطية ثابتة - هذه الطريقة غالباً ما يعتقد أنها تشمل السلوك الأكثر تعقيداً مما نسميه الانعكاس البسيط كنفضة الركبة knee jerk مثلاً. ومن ناحية ثانية، فإن الغريزة في حيوان بجهاز عصبي مركزي، مثلها مثل الانعكاس البسيط، تتكون من مثير، أي شكل ما من التنبيه المركزي، واستجابة حركية وفقاً لطريقة محددة. من الناحية الأخرى، فإن ما نسميه في الإنسان دافعاً لا يشمل الاستجابة الحركية، بل يشمل فقط حالة التنبيه المركزي في الاستجابة للمثير. والنشاط الحركي الذي يتلو حالة التنبيه هذه يكون مسبوقاً بجزء مميز جداً من العقل يعرف بـ"الأنا " في مصطلح التحليل النفسي، وهو الذي يسمح بإمكانية تعديل الاستجابة لحالة التنبيه التي تشكل الحافز أو التوتر الغريزي بواسطة الخبرة والتأمل، بدلاً من كونها محددة سلفاً كما هو الحال في غرائز الحيوانات الدنيا (Hartmann,1948). هذا الاختلاف بين الحياة الغريزية للإنسان والمظاهر الشبيهة في الحيوانات الدنيا يجب أن لا يحمل بعيداً جداً.

فبالنسبة للإنسان البالغ، على سبيل المثال، هناك رابط قريب بين الدافع الجنسي وبين ذلك النمط من الاستجابة الفطرية المسماة بهزة الجماع. ويمكن أن نضيف بأنه في حالة

أي دافع غريزي عند الإنسان، تتحدد الاستجابة الحركية سلفاً بواسطة عوامل وراثية بالمعنى العام الواسع. غير أنه مازال من الممكن القول بأن الدرجة التي تتحدد فيها الاستجابة بهذا الشكل أقل عند الإنسان منها عند الحيوانات الأخرى، وأن الدرجة التي يمكن لعوامل البيئة والخبرة أن تغير فيها الاستجابة هي أكبر بكثير عند الإنسان منها عند الحيوانات الأخرى. لهذا نفضل أخذ هذه الاختلافات في الحسبان ومن ثم الحديث عن الدوافع عند الإنسان وليس الغرائز.

الدافع، إذن، مكون نفسي، محدد وراثياً، يؤدي عندما ينشط إلى حالة من التنبيه النفسي أو ما نسميه غالباً بالتوتر. وهذا التنبيه، أو التوتر، يدفع الفرد لنشاط محدد وراثياً، غير أنه يمكن تحويره إلى حد ما بواسطة الخبرة الفردية، حيث يؤدي هذا النشاط إلى ما يمكن أن نسميه وقف التوتر والتنبيه أو الإشباع. في الحالة الأولى فإن المصطلح أكثر موضوعية، بينما أكثر ذاتية في الحالة الأخيرة. وهكذا نلاحظ تتابعاً يعتبر خاصية في عملية الدافع، ويمكن أن نسمي هذا التتابع توتراً، أو نشاطاً حركياً، أو وقفاً للتوتر، أو حاجة، أو إشباعاً، وذلك حسب ما نريد. يتجاهل المصطلح السابق متعمداً عناصر الخبرة الذاتية، ويشير لها المصطلح الأخير بشكل صريح.

انبهر فرويد بما يمتلكه الدافع من خاصية تدفع الفرد للنشاط، وكأنه بهذا يشبه مفهوم الطاقة الفيزيائية بما تمتلكه من قدرة على الفعل. لهذا افترض فرويد وجود طاقة عقلية تعتبر جزءاً من الدوافع ومشتقة منها بشكل ما. غير أنه ينبغي أن لا نفهم هذه الطاقة العقلية كما نفهم الطاقة الفيزيائية، إذ أنها تشبهها فقط فيما سبق ذكره. ومفهوم الطاقة العقلية مثل

مفهوم الطاقة المادية مجرد افتراض يقصد به تبسيط وتيسير فهمنا لحقائق الحياة العقلية التي نلاحظها.

واصل فرويد تشبيه افتراضاته النفسية بالافتراضات الفيزيائية، وذلك بالحديث عن مقدار quantum الطاقة النفسية الموجود بالأشياء أو الإنسان، وقد استخدم للدلالة على هذا المعني الكلمة الألمانية Besetzung التي ترجمت إلى الإنجليزية بكلمة Cathexis، ومعناها كمية الطاقة الموجهة نحو الرموز العقلية لشخص ما أو شيء ما. وهذا معناه أنها تدل على ظاهرة عقلية محضة، وأنها مفهوم نفسي وليس مادياً.

لا يمكن للطاقة النفسية الانسياب في الفضاء والتعلق بالموضوع الخارجي مباشرة، بل إن ما يشحن نفسياً what are cathected هو خيالات وأفكار وذكريات الموضوع object التي تُكوِّن ما نسميه رموزه النفسية أو العقلية. ومن الناحية النفسية، فإنه كلما زادت الشحنة الانفعالية، زادت أهمية الموضوع، والعكس صحيح.

يمكن أن نوضح تعريفنا للتكثيف أو الشحن الانفعالي cathexis بمثال الطفل الصغير الذي تعتبر أمه، كما هو الحال في الأوضاع الطبيعية، مصدراً للعديد من الإشباعات الغريزية الهامة. وحسب مفاهيمنا الجديدة يمكننا التعبير عن هذه الحقيقة بالقول أن أم الطفل تشكل موضوعاً هاماً لدوافعه، وأن هذا الموضوع مشحون بشحنة عالية من الطاقة النفسية. ونعني بهذا أن خيالات وتصورات وأفكار الطفل المرتبطة بأمه، أي رموزها العقلية في ذهن الطفل، مشحونة بتركيز عالٍ جداً.

قبل أن نغادر هذا الموضوع لابد من إبداء الملاحظات التالية كتأكيد لما سبق

طرحه. لقد أثار مفهوم الطاقة النفسية جدلاً كبيراً بين المحللين النفسانيين، ومكمن الصعوبة هو في كلمة "طاقة" في الفيزياء هناك أنواع متعددة من الطاقة: الطاقة الحركية، والطاقة الكامنة، والطاقة الإشعاعية ... الخ. لهذا تبدو الطاقة النفسية وكأنها أحد أشكال الطاقة المادية، أي طاقة حركية، وطاقة كامنة، وطاقة إشعاعية، وطاقة نفسية. لا، إنها ليست كذلك!. الطاقة النفسية مصطلح لمفهوم نفساني، وليس لمفهوم فيزيائي. وهي لذلك يمكن تعريفها بمصطلحات نفسية فقط، ولا يمكن إطلاقاً تعريفها بمصطلحات مادية. صحيح أن علم النفس هو إلى حد ما مظهر لنشاط الجهاز العصبي المركزي. إنه فرع من علم الأحياء الحيوانية، ولهذا فهو في النهاية فرع من الكيمياء أو الفيزياء، إلا أننا لا نعلم كثيراً عن الرابطة بينهما. فنحن لا نعلم، على سبيل المثال، ما هي أنشطة الدماغ؟، أو ما هي العمليات الفيزيائية التي تصاحب رغبة الإشباع؟. وإلى أن نحصل على تلك المعرفة، لا يمكننا ربط الطاقة الفيزيائية بشبيهتها النفسية. يجب أن نلتزم بحدود معرفتنا الحالية، وأن نتجنب المقارنات غير المفهومة بين النفسي والمادي. فمن غير المجدي، كما حاول البعض، تطبيق قوانين الديناميكا الحرارية على الطاقة النفسية، أو مناقشة تحول أو اعتلاج[1] entropy العمليات العقلية. إن ذلك كله، و بالمعنى الحرفي للكلمة، كلام فارغ.

نعود الآن إلى السؤال الخاص بطبيعة الدوافع وتصنيفاتها. لقد تغيرت فرضيات فرويد حول تصنيف الدوافع وتطورت عبر ثلاثة عقود من الزمن، أي من عام 1890 وحتى عام 1920 (Bibning,1941)، وأضيفت بعض الإضافات الهامة لأفكاره خلال السنوات

[1]. مصطلح فيزيائي. (المترجم).

الماضية، من قبل عدد من الأشخاص. اقترح فرويد في صياغته الأولى تقسيم الدوافع إلى دوافع جنسية ودوافع للمحافظة على الذات. إلا أنه تخلى فيما بعد عن فكرة غريزة المحافظة على الذات معتبراً إياها غير مقنعة، ثم ولسنوات عدة اعتبرت جميع المظاهر الغريزية جزءاً من، أو مشتقة من، الغريزة الجنسية. لقد أدت دراسة الظواهر النفسية المتعددة في النهاية، وبالذات السادية والمازوخية، بفرويد إلى تعديل نظرياته مرة أخرى. وفي كتابه "ما وراء مبدأ اللذة" (Freud,1920)، صاغ نظرية الغرائز المقبولة اليوم عموماً من قبل المحللين النفسانيين، رغم أنه ليس جميع المحللين النفسانيين يقبلونها حسب الأصل الذي صاغها به فرويد.

اقترح فرويد في صياغته الأخيرة لتفسير المظاهر الغريزية في حياتنا العقلية وجود نوعين من الغرائز هما: الغرائز الجنسية والغرائز العدوانية. وكما هو واضح من الاسم، ترتبط هذه الثنائية تقريباً بما نعنيه حينما نتحدث عن الجنس والعدوان، غير أن الواقع هو استحالة التعريف الدقيق لهاتين الغريزتين. قد يكون اقرب للمعنى إذا قلنا أن إحدى الغرائز باعثة للعنصر الجنسي، بينما الأخرى تبعث العنصر التدميري.

مثل هذه الصياغة الدقيقة والحذرة ضروري لأن نظرية فرويد تعتبر، وهذا شيء هام للغاية يلزم تذكره حول النظرية المزدوجة للغرائز، أنه في كل مظاهرها الملاحظة، سوية كانت أم مرضية، تتشارك كل من الغريزة الجنسية وغريزة العدوان. وحسب تعبير فرويد تنصهر كلتا الغريزتين معاً وبشكل منظم، رغم أن اندماجهما بكميات متساوية ليس شرطاً.

وهكذا فحتى أكثر تصرفات القسوة المتعمدة فظاعة، والتي تبدو ظاهرياً وكأنها فقط لإرضاء الغريزة العدوانية، تتضمن معنى جنسياً لاشعورياً بالنسبة للفاعل، وتمده بدرجة ما من

الإشباع الجنسي اللاشعوري. في نفس الوقت، لا يوجد أي تصرف دال على الحب، مهما كان راقياً، لا يوفر في نفس اللحظة تنفيساً لا شعورياً للغريزة العدوانية.

بمعنى آخر، فالغرائز التي نفترضها لا يمكن ملاحظتها في السلوك الإنساني في صورة نقية. إنها أفكار تجريدية مشتقة من حقائق الخبرة. إنها مفاهيم افتراضية إجرائية، إذا استخدمنا المصطلحات المعاصرة، تساعدنا على فهم وشرح بياناتنا بطريقة بسيطة ومنظمة قدر الإمكان. لهذا يجب أن لا نتوقع أو نبحث عن مثال إكلينيكي تظهر فيه الغريزة العدوانية منفصلة عن الغريزة الجنسية أو العكس. ليست غريزة العدوان بأكثر اتساقاً في معناها مع ما نسميه بالعدوان من اتساق معنى الغريزة الجنسية مع الرغبة الجنسية في الجماع الجنسي.

نميز في نظريتنا الحالية، إذن، بين نوعين من الغرائز، أحدهما نسميه بالغرائز الجنسية، والآخر نسميه بالغرائز التدميرية. وانسجاماً مع هذا التمييز، نفترض أيضاً وجود نوعين من الطاقة النفسية، أحدهما مرتبط بالغريزة الجنسية، والآخر مرتبط بالغريزة العدوانية. الأول له اسم خاص وهو الشهوة (الليبيدو libido)، أما الثاني فلا اسم له. ورغم أنه اقترح تسميته (ديسترودو destrudo)، قياساً على كلمة يدمر (destroy)، إلا أنه عادة ما يشار إليه ببساطة بالطاقة العدوانية، وأحيانا " العدوان." على أن هذا الاستخدام الأخير غير ملائم، لأنه، كما سبق القول، يختلف معنى الطاقة العدوانية والغريزة العدوانية عن معنى السلوك الذي نشير إليه عادة بالعدوان، واستخدام نفس الكلمة للدلالة على المعنيين يمكن أن يقود فقط إلى إرباك غير ضروري، ويطمس التمييز المهم الذي يجب أن يكون بين الاثنين.

من المهم الانتباه أيضاً إلى أن تقسيم الغرائز في نظريتنا الحالية إلى جنسية وعدوانية مستند إلى دليل نفساني. لقد حاول فرويد في صياغته الأصلية أن يربط النظرية النفسية للغرائز بمفاهيم بيولوجية أساسية مقترحاً تسميتها بغرائز الحياة وغرائز الموت. هذه الغرائز تتوافق تقريباً مع عمليات البناء والهدم الحيوي، ولها أكثر من دلالة نفسية. إنها خصائص غريزية لكل مادة حية — غرائز المادة الحية نفسها إن جاز التعبير.

بغض النظر عن كون هذه التخمينات البيولوجية التي قدمها فرويد صحيحة أم لا، فمن المؤكد أنها أدت إلى درجة كبيرة من سوء الفهم. لا يمكن الجزم بأن تقسيم الدوافع الذي استخدمناه يقوم على أسس إكلينيكية، وأن صموده أو تداعيه يعتمد على هذه الأسس. وسواء أكان فرويد على خطأ أم على صواب في أفكاره حول دوافع الموت والحياة، فذلك لا علاقة له بالمسألة. الحق أن هناك بعض المحللين النفسانيين الذين يقبلون بمفهوم دافع الموت، وهناك البعض الآخر (وربما الغالبية في الوقت الحاضر) الذين لا يقبلون بهذا المفهوم، غير أن كلا من الذين يقبلونه والذين يرفضونه مقتنعون، على المستوى الإكلينيكي، باعتبار الظاهرة الغريزية مكونة من خليط من الدوافع الجنسية والعدوانية.

عرف فرويد، في البداية، الدافع كمثير للعقل قادم من الجسم (Freud, 1955b). ولأنه في ذلك الوقت كان مهتماً فقط بالدوافع الجنسية، فقد بدا هذا التعريف جد مناسباً للحقائق. لا تتوقف الاستثارة والإشباع الجنسي على التنبيه والتغيرات البدنية التي تلم بالجسم، بل إن الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء المختلفة تؤثر أيضاً وبشكل واضح على السلوك والحياة الجنسية كلها. لكن الدليل على وجود أساس بدني لدافع العدوان ليس

واضحاً تماماً. لقد كان الافتراض في البداية أن الجهاز العضلي الهيكلي له نفس العلاقة مع هذا الدافع مثلما لأجزاء الجسم المستثارة جنسياً علاقة بالدافع الجنسي. غير أنه تم التخلي عن هذه الفرضية وإهمالها، لكوننا لا نملك، في الوقت الحالي، دليلاً فسيولوجياً، أو كيميائياً، أو نفسياً لدعم هذه الفرضية. ويبدو واضحاً أن الافتراض الضمني يرى بأن المادة الجسمية لدافع العدوان يتم تجهيزها من لدن الجهاز العصبي. غير أن بعض المحللين النفسانيين يفضلون النأي عن الخوض في الجدل حول الأسس الجسمية لدافع العدوان، باعتبار أنه لا توجد إجابة لهذا السؤال في الوقت الحالي.

ربما يكون من المفيد، عوضاً عن إثارة هذه الأسئلة الافتراضية، التوجه نحو جوانب من الدوافع تكون وثيقة الصلة بالحقائق المشاهدة. وهناك العديد من الطرق التي يمكن من خلالها فعل ذلك، لعل إحداها مناقشة جانب الدافع الذي ثبتت أهميته بشكل خاص لكل من النظرية والتطبيق، وذلك هو تطورها الموروث.

وللتبسيط، دعونا نبدأ بالدافع الجنسي، لأننا على معرفة بنموه وتقلبه أكثر من معرفتنا لصنوه، وأحياناً غريمه، دافع العدوان. تفترض نظرية التحليل النفسي أن هذه القوى الغريزية تكون جاهزة للعمل عند الوليد، تؤثر على السلوك وتطالب بالإشباع، محدثة فيما بعد الرغبات الجنسية عند البالغ، بكل ما فيها من سعادة وألم. والواقع أن عبارة "تفترض" غير مناسبة، ومن الأفضل القول أنه افتراض حاز على قدر كبير من البرهان.

وردت البراهين المتوفرة من ثلاثة مصادر على الأقل. أولها، الملاحظة المباشرة للأطفال، إذ من المثير كم هي واضحة الأدلة على الرغبات والسلوك الجنسي عند الأطفال

إذا ما تمت ملاحظتهم والحديث معهم بعقل موضوعي غير متحيز. ولكن لسوء الحظ، فبسبب حاجة كل إنسان لنسيان الصراعات والرغبات الجنسية في طفولته المبكرة، لم يكن ممكناً لأي واحد قبل فرويد أن يلاحظ الحضور الواضح لهذه الرغبات الجنسية عند الأطفال الذين يلاحظهم. المصادر الأخرى للبرهان حول هذه المسألة جاءت من التحليل النفسي للأطفال والكبار. ففي حالة الأطفال يمكن للشخص أن يراها مباشرة، أما بالنسبة للكبار فيمكنه استنتاج الدلالات الواضحة للرغبات الجنسية الطفولية وطبيعتها.

المسألة الأخرى التي يجب توضيحها هي أن التشابه بين الرغبات الجنسية للطفل، ما بين ثلاث وخمس سنوات، وتلك التي للشخص البالغ كبيرة جداً لدرجة يمكن، وبدون تردد، تسمية رغبات الطفل بنفس الاسم الذي يطلق على الرغبات الجنسية للإنسان البالغ. لكن كيف يمكننا تحديد مظاهر الدافع الجنسي عند هذا العمر المبكر ؟ يمكن، وعلى طريقة فرويد (b1905)، الاعتماد على الملاحظات التالية :

(1) خلال النمو السوي في مرحلة الطفولة المبكرة، تلاحظ صوراً معينة من السلوك الباعث على المتعة تصاحب فيما بعد الإشباع والإثارة القضيبية وتساهم فيها، وذلك مثل سلوك التقبيل، والنظر، والضم، وإظهار العورة... الخ.

(2) في حالات معينة من النمو الجنسي الشاذ (الانحرافات الجنسية)، يشكل واحد أو أكثر من التصرفات أو الاهتمامات الطفولية المصدر أو المصادر الرئيسة للإشباع الجنسي في مرحلة البلوغ، وهي غالباً شرجية أو فمية أو بصرية.

(3) تشير الأدلة المستخلصة من العلاج التحليلي للمرضي العصابيين إلى أن مثل هذه

الرغبات المنحرفة تنشط في عقول هؤلاء المرضى أيضاً. ولكن، عوضاً عن كون هذه الرغبات مبعث إثارة، كما هو الحال مع المنحرفين جنسياً، فإنها تصبح لاشعورية ومصدر قلق وشعور بالذنب.

أصبحنا الآن في وضع يمكّننا من وصف التتابع النمطي لمظاهر الدوافع الجنسية من الطفولة والمراحل التالية، وذلك وفقاً لما عرضه فرويد في بحثه الذي ظهر عام 1915 بعنوان ثلاث مقالات في الجنس.

على القارئ أن يفهم أن المراحل التي سوف نصفها ليست مميزة عن بعض كما يوحي بذلك عرضنا التخطيطي لها، بل الواقع أن إحدى المراحل تندمج مع الأخرى فيتداخلان معاً، مما يعني أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى يتم تدريجياً. كما يجب أن نفهم أيضاً، أن الفترة الزمنية لكل مرحلة هي متوسطة وتقريبية.

خلال السنة والنصف الأولى تقريباً من الحياة يكون الفم، والشفاه، واللسان، الأعضاء الجنسية الرئيسية للطفل. ونعني بهذا أن رغبات الطفل وإشباعاته تكون فمية في الأساس. وقد جاء الدليل على هذا من معلومات اعتمدت على التحليل النفسي للأطفال الكبار والأشخاص البالغين، على أن من الممكن، أيضاً، الملاحظة، وبشكل مباشر، لأهمية الامتصاص والعض بالنسبة لأطفال هذه المرحلة كمصدر للذة والمتعة.

في خلال السنة والنصف التالي، تصبح نهاية القناة الهضمية، أي الشرج، أهم أماكن التوتر والإشباع الجنسي. وترتبط الإحساسات السارة والمؤلمة بإمساك البراز وإخراجه، وتصبح هذه العمليات الجسمية والبراز نفسه موضع الاهتمام الشديد للطفل.

وبنهاية السنة الثالثة، تبدأ الأعضاء التناسلية في تولي قيادة الدور الجنسي، والمحافظة على هذا الدور لاحقاً. ويشار إلى هذه المرحلة من النمو الجنسي عادة باسم المرحلة القضيبية، وذلك لسببين: في المقام الأول، يصبح القضيب موضوع الاهتمام الرئيسي للطفل من كلا الجنسين. ثانيا، نعتقد أن عضو الإثارة الجنسية عند البنت في هذه الفترة هو البظر، الذي هو جنينياً النظير الأنثوي للقضيب، وهذا قد يستمر خلال المراحل المتأخرة، رغم أن المهبل يحل عادة محل البظر.

هذه، إذن، المراحل الثلاثة للنمو الجنسي النفسي عند الطفل – الفمية، والشرجية، والقضيبية – والأخيرة تندمج مع مرحلة النظام الجنسي للراشد عند البلوغ. وتعرف مرحلة البلوغ هذه بمرحلة التناسل، وإذا راعينا الاستخدام الصحيح، فإن عبارة (مرحلة قضيبية) يجب أن تطلق على هذه المرحلة وحدها. ويمكننا أن نضيف أن الفرق بين المرحلة القضيبية والمرحلة التناسلية هو فرق في المحتوى، وليس فقط فرقاً في الاسم، حيث القدرة على التهيج الجنسي تكتسب عادة عند البلوغ. إن الاستخدام الصحيح لا يراعى دائماً في هذا الجانب في أدبيات التحليل النفسي، ولذلك تستخدم باستمرار كلمة genital (تناسلي) بدلاً من الكلمة الصحيحة phallic (قضيبي). وعلى وجه الخصوص، عادة ما يطلق على المرحلتين الفمية والشرجية مصطلح ما قبل التناسلية بدلا عن مصطلح ما قبل القضيبية.

إضافة إلى الثلاثة أشكال من السلوك الجنسي عند الطفل، التي أعارت أسماءها لأطوار النمو الرئيسية التي ناقشناها، هناك مظاهر أخرى من الدوافع الجنسية تستحق الإشارة، أحدها الرغبة في التطلع التي تلاحظ غالباً في المرحلة القضيبية، ونظيرتها رغبة العرض الجنسي،

حيث يرغب الطفل في إظهار أعضائه ورؤية الأعضاء الجنسية للآخرين. وطبعاً، يشمل حب الطفل للاستطلاع والظهور أعضاء ووظائف جسمية أخرى.

المكون الآخر للسلوك الجنسي، والملاحظ عند الطفل عادة، هو ذلك المرتبط بمجرى البول، ويسمى الإثارة الإحليلية urethral erotism. وتساهم الأحاسيس الجلدية والشمية والسمعية بنصيبها، مما يترك متسعاً للاختلافات الفردية بين كل طفل وآخر. هل مرد هذه الاختلافات في الأهمية النسبية للأشكال الجنسية فروق تكوينية بين كل طفل وآخر، أم ترجع إلى تأثيرات البيئة على الطفل، بما تحمله من إغراءات وإحباطات – لا توجد إجابة محددة عن هذا السؤال حتى الآن. يوافق علماء التحليل النفسي فرويد على الاعتقاد بأن العوامل التكوينية تلعب، في بعض الحالات، الدور الأهم، بينما في حالات أخرى تكون الأهمية للعوامل البيئية. أما في معظم الحالات، فتساهم كلتا المجموعتين من العوامل في النتيجة النهائية (Freud,1905b).

لقد وصفنا تتابع أطوار الدافع الجنسي الذي يحدث خلال مرحلة الطفولة. ويجوز لنا أن نفترض بأن هذا التتابع يؤدي إلى تغيرات في درجة الاهتمام والأهمية التي تتعَلق، خلال الحياة النفسية للطفل، بموضوعات وأشكال مختلفة من الإشباع للدافع الجنسي. فعلى سبيل المثال، تصبح الحلمة أو الثدي أكثر أهمية من الناحية النفسية خلال المرحلة الفمية منها خلال المرحلة الشرجية أو المرحلة القضيبية. ونفس الشيء يقال عن الامتصاص، الذي هو شكل الإشباع السائد في المرحلة الفمية المبكرة. تحدث هذه التغيرات، كما لاحظنا، تدريجياً وليس فجائياً، ويتم التخلي عن الأشكال والموضوعات القديمة للإشباع تدريجياً حتى بعد

توطيد الأشكال الجديدة وتوليها الدور الرئيسي. إذا صورنا هذه الحقائق وفقاً لمفاهيمنا التي حددناها، نقول بأن شحنة الليبيدو النفسية libidinal cathexis لموضوع ما من مرحلة مبكرة تتلاشى مع بداية المرحلة التالية، لكن ورغم تلاشيها، تدوم لبعض الوقت، بعد أن تكون المرحلة التالية قد تأسست، وأصبحت الموضوعات المناسبة بهذه المرحلة أهدافاً أساسية للشحنة الليبيدية.

تزودنا نظرية الطاقة النفسية بتفسير بسيط لما حدث في هذه التغيرات، وهو تفسير يتوافق مع الحقائق كما نعرفها. فنحن نعتقد أن الليبيدو التي شحنت موضوع الإشباع في المرحلة المبكرة تنفصل عنه تدريجياً، وتتصل بدلاً منه بموضوع الإشباع في المرحلة التالية. لهذا فإن الليبيدو، الذي تعلق انفعاليا cathected، لأول مرة بالثدي، أو بمعنى أدق بالرموز النفسية للثدي، سوف يتعلق فيما بعد بالبراز ثم أخيراً بالقضيب. وفقاً لنظريتنا، يوجد تدفق لطاقة الليبيدو، خلال أطوار النمو النفسي، من موضوع لآخر، ومن شكل من أشكال الإشباع إلى آخر، ويتواصل هذا التدفق عبر طريق محدد بعوامل تكوينية مشتركة، ولكنها تتفاوت من شخص لآخر.

يحق لنا القول بأن من غير الممكن التخلي وبشكل تام عن أي شحنة ليبيدية قوية فعلاً. إن معظم الليبيدو يمكنه الانتقال إلى أهداف أخرى، لكن بعضه على الأقل يظل مرتبطاً بالموضوع الأصلي، ونسمي هذه الظاهرة، أي استمرار الشحنة الليبيدية الانفعالية نحو الأشياء من مرحلة الطفولة إلى مرحلة متأخرة من الحياة، بتثبيت الليبيدو.

على سبيل المثال، قد يظل الولد متعلقاً fixated بأمه، وهكذا يصبح، كشخص

بالغ، غير قادر على تحويل عواطفه إلى امرأة أخرى كما يفترض أن يكون. وكلمة تثبيت تدل أحياناً على نمط الإشباع، وهكذا نتحدث عن أشخاص مولهين fixated بالأشكال الفمية أو الشرجية من الإشباع.

إن كلمة تثبيت غالباً ما يفهم منها الإشارة إلى المرض النفسي، وسبب ذلك أن فرويد وأتباعه هم أول من أدرك استمرارية الشحنات الانفعالية المبكرة ووصفها عند المرضى العصابيين. قد تكون هذه صفة عامة للنمو النفسي، غير أنها قد تؤدي إلى عواقب مرضية عندما توجد بدرجة مبالغ فيها، كما يحتمل وجود عوامل أخرى، غير معروفة حتى الآن، تحدد ما إذا كان التثبيت سيؤدي إلى مرض عقلي أم لا.

والتثبيت، سواء أكان على موضوع الإشباع أو على شكل الإشباع، يكون عادة لا شعورياً بشكل كلي أو جزئي. ويمكن الافتراض للوهلة الأولى بأن التثبيت القوى، أي استمرار شحنة انفعالية قوية، سوف يكون شعورياً، بينما الشحنة الانفعالية الضعيفة سوف تكون لاشعورية. غير أن أقوى أدلتنا لا يشير إلى أية علاقة بين قوة الشحنة الانفعالية المتواصلة واللاشعور. فعلى سبيل المثال، رغم القوة الهائلة للاهتمامات الجنسية في مرحلة الطفولة، إلا أنهاُ تنسَى بتقدمنا في العمر كما أوضحنا ذلك بداية هذا الفصل، رغم أن كلمة (نسيان) ضعيفة جداً لوصف ما حدث بدقة. والأكثر دقة هو القول بأن ذكريات هذه الاهتمامات الجنسية صُدَت وبشكل فعال عن الدخول إلى منطقة الشعور. وينطبق نفس الشيء على أشكال أخرى متأخرة من التثبيت.

إضافة إلى ما سبق وصفه من تدفق صاعد لليبيدو أثناء مرحلة النمو النفسجنسي

فإن حالة من الانحسار والتراجع قد تحدث هي الأخرى وهذا ما نسميه بالنكوص. وعندما نستخدم الكلمة بشكل محدد في علاقتها بالدافع، كما نفعل هنا، فإننا نتحدث عن نكوص غريزي، حيث المصطلح يعبر عن عودة إلى موضوع أو نمط مبكر من الإشباع.

يتصل النكوص الغريزي بشكل وثيق مع التثبيت، لأن النكوص إذا حدث، فإنه يكون لموضوع أو نمط من الإشباع ثُبِت عليه الشخص أصلاً. فإذا تخلى الشخص عن متعة جديدة لكونها غير مشبعة، فإنه سوف يتحول، كما هو متوقع، إلى واحدة أخرى مجربة.

المثال على هذا النكوص هو استجابة الطفل الصغير لميلاد شقيق جديد يشاركه اهتمام أمه وحبها. فعلى الرغم من أن هذا الطفل تخلى عن مص أصبعه منذ شهور عدة قبل ميلاد شقيقه الجديد، إلا أنه يعود إلى ذلك مرة أخرى بعد ميلاد الطفل الجديد. في هذه الحالة، فإن الموضوع المبكر للإشباع الليبيدي لهذا الطفل هو إصبعه، بينما الشكل المبكر للإشباع هو الامتصاص.

وكما هو الحال في المثال السابق، يحدث النكوص غالباً في ظروف غير مواتية، غير أن هذا لا يعني أن هذه هي الحال دائماً. فالأطفال، وحتى الكبار، قد ينهمكون في سلوك نكوصي غرضه المتعة، كما هو الحال في المداعبات الشرجية anal games أو النكات. فالنكوص يجب أن لا يقرن بالمرض النفسي. إنه ظاهرة سوية في الحياة العقلية في بعض الظروف، وظاهرة غير مناسبة أو مرضية في ظروف أخرى (Kris, 1952;Freud, 1965).

علينا أن نذكر عند هذه النقطة صفة للجنسية الطفلية infantile sexuality، ذات أهمية خاصة، وتتعلق بعلاقة الطفل بموضوعات شبقه الجنسي، خاصة الأشخاص. وكمثال بسيط

على ذلك، فإن الطفل إذا لم يتمكن من الحصول على ثدي أمه بشكل دائم، فإنه سوف يتعلم حالاً كيف يشبع رغبته بمص أصابع يده أو رجله. وتسمى هذه القدرة على إشباع حاجاته الجنسية معتمداً على ذاته بالشبق الذاتي، وهي تمنح الطفل استقلالاً معيناً عن البيئة بالقدر الذي يسمح له بالحصول على الإشباع، كما تترك الباب مفتوحاً لما يمكن أن يكون انسحاباً كلياً من عالم الواقع الخارجي إلى اهتمام مفرط، وحتى حصري بالذات، كما هو الحال في الحالات المرضية الحادة كالفصام.

إذا تحولنا الآن بالبحث إلى الدافع العدواني، فيجب أن نعترف بأن ما كتب عنه أقل بكثير مما كتب عن الدافع الجنسي. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى حقيقة أن فرويد وحتى عام 1920 لم يعتبر دافع العدوان مكوناً غريزياً مستقلاً من الحياة العقلية، مكافئاً للمكون الجنسي المعترف به منذ زمن بعيد كموضوع للبحث.

وكما هو الحال في مظاهر الدوافع الجنسية، فإن لمظاهر الدوافع العدوانية نفس القابلية للتثبيت، والنكوص، ونفس القابلية للتحول من مرحلة فمية إلى شرجية إلى قضيبية. هذا يعني أن الاندفاعات العدوانية عند الطفل الصغير يمكن تنفيسها بواسطة نشاط فمي مثل العض، وفي المراحل التالية يصبح التغوط أو حبس البراز متنفساً هاماً لهذه الدوافع. أما الطفل الكبير فيستخدم القضيب، أو على الأقل يُعِدُّه (يستخدمه في الخيال) كسلاح وأداة تدمير معاً.

غير أن العلاقة بين الدوافع العدوانية وأجزاء الجسد المختلفة التي ذكرناها ليست بمثل قرب العلاقة مع الدوافع الجنسية. فالطفل ذو الخمس أو الست سنوات، مثلا، لا يستخدم

قضيبه حقاً كسلاح، إنه عادة ما يستخدم يديه وأسنانه وقدميه وألفاظه. والحق أن ما يستخدمه الطفل في ألعابه وخيالاته من أسلحة مثل السهام، والرماح، والبنادق ... الخ، يمكن إظهاره من قبل المحلل النفساني باعتباره يمثل القضيب في التفكير اللاشعوري للطفل. فالطفل يظهر في خيالاته اللاشعورية مدمراً أعداءه باستخدام قضيبه القوي. مع ذلك، نختم بالقول بأن الدوافع الجنسية أكثر ارتباطاً، وبشكل صريح، بمناطق الجسم المثيرة للشهوة من ارتباط الدوافع العدوانية بهذه المناطق أو بأي جزء آخر مشابه من الجسم. قد لا ينطبق هذا التمييز على المرحلة الفمية المبكرة. هناك القليل الذي يمكن للوليد ذي الأشهر المعدودة أن يستخدمه عدا فمه، الذي يمكن اعتباره المتنفس الرئيسي لدوافعه العدوانية (العض)، كما هو لدوافعه الجنسية (المص واللعق). والواقع أنه ليس لدينا شك حول الصلة بين الدوافع الجنسية واللذة، غير أن الصلة بين الدوافع العدوانية واللذة مازالت محل شك. فإشباع الدوافع الجنسية لا يعني فقط تفريغاً للتوتر عديم الأهمية، بل يعني تفريغاً ممتعاً. وحقيقة أن اللذة أو المتعة يمكن أن تتداخل مع، أو حتى تستبدل بمشاعر الذنب، والخجل، والاحتقار في بعض الحالات، لن يغير رأينا فيما يتعلق بالعلاقة الأصلية بين الجنس واللذة. ولكن هل إشباع الدوافع العدوانية (أو بكلمات أخرى تفريغ التوتر العدواني) يؤدي هو الآخر إلى المتعة ؟ لم يوافق فرويد على ذلك (Freud,1920)، بينما أيد الكتاب اللاحقون وجهة النظر هذه (Hartmann et al., 1949)، ويبدو أن أغلبية علماء التحليل النفسي يقبلون بهذه الفكرة.

بالمناسبة، قد يكون مفيداً التنبيه إلى سوء الاستخدام المتواصل لكلمة ليبيدو في مؤلفات التحليل النفسي. فهي تفهم دائماً على أنها لا تشير فقط إلى طاقة الدافع لجنسي، بل أيضاً

إلى طاقة الدافع العدواني. وهذا صحيح بالنسبة للكتابات السابقة على صياغة مفهوم الدافع العدواني، حيث في ذلك الوقت، كان ''الليبيدي'' مرادفاً ''للغريزي''. غير أن تأثير الاستعمال الأصلي كان قوياً جداً لدرجة أنه حتى الآن يجب على المرء أن يفهم بأن ليبيدو تستخدم لتشمل الطاقة العدوانية والطاقة الجنسية أيضاً.

قراءات إضافية

Freud, S., Three essays on the theory of sexuality. Standard edition, vol. 7, pp. 125-243.Also,New York: Basic books,1962.

Freud, S., New introductory lectures on psychoanalysis. Standard edition,vol.22. Chapter,4,lecture XXXII, 1964. Also in complete introductory lectures on psychoanalysis. NY, Norton,1966.

الفصل الثالث

الجهاز النفسي

The psychic Apparatus

لنسأل أنفسنا الآن "ما هي صورة العقل التي حصلنا عليها حتى الآن من مناقشتنا لنظرية التحليل النفسي ؟"

للإجابة عن هذا السؤال، بدأنا، أولاً، بفرضيتين أساسيتين، يتعلقان بأداء العقل لوظائفه. إحداهما كانت قانون العلية النفسية، والأخرى الفرضية القائلة بأن النشاط النفسي ذو طبيعة لاشعورية في الأساس.

هاتان الفرضيتان سوف يشكلان نقاط التوجيه لمناقشتنا التالية لنظرية التحليل النفسي وهما، كما سبق القول، وصفيتان في طبيعتهما.

غير أننا في مناقشتنا للموضوع التالي، المتعلق بالدوافع، وجدنا أنفسنا نتعامل مع مفاهيم ذات طبيعة ديناميكية. ناقشنا في الفصل السابق (الدوافع) مجموعة من النقاط:

1. ناقشنا الطاقة النفسية التي تدفع الكائن للنشاط حتى حصوله على الإشباع.
2. كما ناقشنا نمط التحول المحدد وراثياً، من أحد أطوار النظام الغريزي إلى طور آخر، والذي يمر من خلاله الطفل في رحلته نحو النضج، والاختلافات الفردية التي قد تحدث داخل الحدود الواسعة لهذا النمط.
3. ناقشنا تدفق الليبيدو والطاقة العدوانية من موضوع إلى موضوع آخر أثناء مرحلة النمو.
4. وأخيراً، ناقشنا تأسيس نقاط التثبيت، وظاهرة عودة الطاقة النفسية إلى هذه النقاط التثبيتية التي أسميناها بالنكوص الغريزي.

من خصائص نظرية التحليل النفسي أنها تمدنا فعلاً بمثل هذه الصورة الديناميكية المتحركة للعقل، بدلاً من صورة جامدة لا حياة فيها. إنها تحاول شرح وتوضيح نمو وظائف

العقل، والعمليات التي تتولاها أجزاؤه المختلفة، وصراعاتها وتفاعلاتها المتبادلة، وكما سوف نرى في هذا الفصل والفصلين التاليين، والتي تتعامل مع ما يسميه فرويد بعناصر الجهاز النفسي، فإنه حتى تقسيمها للعقل إلى أجزاء مختلفة قد تم على أسس ديناميكية ووظيفية.

ظهرت محاولة فرويد الأولى لبناء نموذج الجهاز النفسي في الفصل الأخير من تفسير الأحلام (Freud,1900)، حيث تصوره يشبه آلة بصرية مركبة، مثل المجهر أو التلسكوب، المصنوع من أجزاء بصرية مرتبة بشكل تتابعي. بنفس الطريقة يجب التفكير في الجهاز النفسي كما لو أنه مركب من عناصر نفسية متعددة مرتبة بشكل تتابعي وممتدة من الجهاز الحسي عند أحد الجوانب إلى الجهاز الحركي على الجانب الآخر، مع ما بينهما من أنظمة تذكر وربط مختلفة.

وحتى في هذه الصيغة المبكرة جداً للعقل يمكن ملاحظة الطبيعة الوظيفية لتقسيماته؛ فأحد مكونات الجهاز يستجيب للمثيرات الحسية، وجزء آخر قريب جداً ينتج عن تحفيزه ظاهرة الشعور، بينما تخزن أجزاء أخرى الذكريات وتستعيدها... وهكذا. ومن نظام إلى التالي يتدفق نوع من الإثارة النفسية التي تستحث بعضها، تماماً مثل النبض العصبي الذي يمر من أحد أجزاء قوس الانعكاس إلى الجزء الآخر.

إضافة إلى ذلك، اقترح فرويد تمييز ثلاثة أنظمة نفسية أقحمها في مخططه الأول بين نظامي الربط والذاكرة، وقد أكد في مناقشته الأولى على أهمية وحداثة هذه الأنظمة الثلاث، ثم طور أفكاره حول هذه الأنظمة في مقالة له متأخرة (Freud,1915c) نلخصها فيما يلي:

يمكن تقسيم محتويات وعمليات العقل على أساس كونها شعورية أم لا، حيث ينبغي

التمييز بين ثلاثة أنظمة، نظام اللاشعور، وما قبل الشعور، والشعور.

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه النظرية الثانية لفرويد حول الجهاز النفسي بعيدة جداً عن كونها ديناميكية ووظيفية، إذ يبدو تقسيمه لأجزاء العقل مرتكزاً على أسس كيفية محض جامدة: "هل هو شعوري أم لا؟" في هذه الحالة، المظاهر الأولى خادعة، فهذه النظرية أيضاً، كما يتضح من المناقشة التالية، وظيفية في جوهرها.

لقد أشار فرويد إلى أن مجرد وجود خاصية الشعور أساس غير كاف للتمييز بين محتويات وعمليات العقل، والسبب في ذلك وجود نوعين من المحتويات والعمليات غير الشعورية، التي يمكن تمييزها عن بعض بمعايير دينامية ووظيفية. فالنوع الأول لا يختلف بأي شكل عما تصادف وأن كان في اللحظة الحالية شعورياً، فعناصره يمكن أن تكون شعورية بسهولة عن طريق بذل الجهد في التركيز. وبالعكس، فإن ما هو شعوري في هذه اللحظة سيفقد هذه الصفة حالما يتحول عنه الانتباه. أما النوع الثاني من العمليات والمحتويات العقلية، التي هي غير شعورية، فإنها تختلف عن النوع الأول من حيث كونها لا يمكن أن تصبح شعورية بمجرد بذل الجهد في الانتباه، لأنها ممنوعة، بواسطة قوة ما داخل العقل، من دخول الشعور في الوقت الحاضر.

إن أبسط مثال لهذه المجموعة الثانية هو الأمر المعطى تحت التنويم المغناطيسي، كما سبق توضيحه بالفصل الأول، والذي كان على الشخص تنفيذه بعد الاستيقاظ من غشية التنويم، دون أن يحتفظ له بأي ذكرى شعورية. في هذه الحالة، فإن كل ما تسرب أثناء فترة التنويم قد منع من دخول الشعور بأمر النسيان الذي أعطاه المنوِّم... أو، إذا أردنا الدقة، فإن

ذكرى أحداث التنويم تم منعها من الدخول إلى الشعور بواسطة جزء العقل الذي كان خاضعاً لأمر النسيان من المنوم.

على هذه الأسس الوظيفية ميز فرويد بين نظامين دعاهما بالترتيب اللاشعور وما قبل الشعور؛ حيث أطلق نظام اللاشعور على تلك المحتويات والعمليات النفسية الممنوعة من الدخول إلى الشعور. أما تلك التي يمكن أن تصبح شعورية عن طريق بذل الجهد في الانتباه فقد سماها ما قبل الشعور. أما نظام الشعور فيعبر طبعاً عن ما هو شعوري في العقل.

وبسبب قربهما من حيث الوظائف فقد أدمج نظاما الشعور وما قبل الشعور معاً تحت نظام الشعور – ما قبل الشعور، وذلك في مقابل نظام اللاشعور. من اليسير جداً فهم العلاقة بين الشعور وما قبل الشعور، إذ أن الفكرة التي تخص نظام الشعور في هذه اللحظة تكون جزءاً من نظام ما قبل الشعور بعد لحظات إذا ما تحول عنها الانتباه. وعلى نقيض ذلك، تصبح الأفكار والرغبات... الخ عند كل لحظة، والتي كانت حتى هذه اللحظة تنتمي إلى نظام ما قبل الشعور، تصبح شعورية وبالتالي جزءاً من نظام الشعور.

وحيث أن العمليات الشعورية كانت معروفة ودرست قبل فرويد بوقت طويل، فقد كان طبيعياً أن تكون اكتشافاته وإسهاماته الأساسية الجديدة تتعلق بنظام اللاشعور. حقاً، لقد دعي التحليل النفسي، ولسنوات عدة، "بعلم نفس الأعماق" أي علم نفس اللاشعور، وهو علم نفس يهتم أساساً بمحتويات وعمليات العقل المحجوزة عن الشعور بنوع ما من القوة العقلية. لقد استفاد التحليل النفسي، خلال فترة تطوره، إفادة قصوى من النظريات التي لخصناها سابقاً حول الجهاز النفسي.

أدرك فرويد، أثناء تطوير فكرته لجهاز اللاشعور، أن مضامينه لم تكن متسقة كما توقعها، فقد اتضحت معايير أخرى غير المنع الصارم من منطقة الشعور يمكن تطبيقها على محتويات وعمليات العقل. وعندما ظهر له أن تطبيق هذه المعايير الجديدة يفضي إلى تجميع أكثر تجانساً وفائدة للمحتويات والعمليات العقلية من المعيار القديم، فقد اقترح نظرية للأنظمة العقلية (Freud,1923)، يشار إليها غالباً بالنظرية البنائية، تمييزاً لها عن سابقتها والمسماة بالنظرية الطوبغرافية (Arlow & Brenner , 1964).

ولكن، على الرغم من اسمها، فإن النظرية البنائية، تشبه سابقتها، في كونها تحاول التمييز بين المجموعات المختلفة على أساس الاختلافات الوظيفية، بأن تجمع معاً المحتويات والعمليات العقلية المرتبطة وظيفياً. فكل واحد من هذه "البناءات" العقلية التي اقترحها فرويد في نظريته الجديدة هو في حقيقة الأمر مجموعة من المحتويات والعمليات العقلية يرتبط كل منها وظيفياً بالآخر. وقد ميز فرويد ثلاثاً من هذه المجموعات المترابطة وظيفياً، وسماها بالتتابع الهو، والأنا، والأنا الأعلى.

وحتى نخلص إلى توجه أولي عام لنظريات فرويد في ختام هذا العرض، يمكننا القول بأن الهو يتضمن الرموز والصور النفسية للدوافع، ويتكون الأنا من الوظائف ذات الصلة بعلاقة الفرد بمحيطه، بينما يحتوي الأنا الأعلى المدركات الأخلاقية لعقولنا إضافة إلى طموحاتنا المثالية.

نحن نسلم بأن الدوافع موجودة منذ الميلاد، غير أن ذلك لا يسري على اهتمامنا بالبيئة أو تحكمنا فيها ولا على طموحاتنا وحسنا الأخلاقي. ويتضح من ذلك، أنه لا الأنا

ولا الأنا الأعلى يمكن أن يتشكل حتى مرور بعض الوقت بعد الميلاد. وقد عبر فرويد عن هذه الحقيقة بافتراض أن الهو يشمل الجهاز النفسي كله عند الميلاد، وأن الأنا والأنا الأعلى كانا أصلا أجزاء من الهو ثم تميزتا عنه أثناء مرحلة النمو وذلك لضمان وجودهما ككيانات وظيفية منفصلة[1].

يحدث هذا التمايز أولاً مع وظائف الأنا. فمن المعلوم أن المولود الجديد يظهر اهتماماً ببيئته، ويكون قادراً على ممارسة درجة من التحكم فيها، قبل وقت طويل من اكتسابه أي حس أخلاقي. ولقد قادته دراساته إلى القول بأن تميز الأنا الأعلى لا يبدأ فعلاً حتى سن خمس أو ست سنوات، وقد لا يترسخ بشكل قوي حتى سنوات عديدة فيما بعد، ربما حتى سن العاشرة أو الحادية عشرة. من الناحية الأخرى، يبدأ الأنا في التميز خلال الست أو الثماني أشهر الأولى، ويثبت بشكل راسخ عند عمر سنتين أو ثلاث سنوات، رغم أن تغيراً ونمواً كبيرين يحدثان عادة بعد هذه السن[2].

وبسبب هذه الاختلافات في توقيت النمو، فقد يكون من المناسب مناقشة تمايز كل من الأنا والأنا الأعلى على حدة. وتملي طبيعة هذه الاختلافات الزمنية أن تكون البداية بالأنا أولاً.

---

[1] أكد فرويد، فيما بعد ن على أن هناك ميزات في اعتبار أن البناء النفسي للطفل الوليد ليس بناءً متميزاً، وقد تطور عنه الأنا والأنا ألأعلى، وذلك بدلا من افتراض أن الهو سابق وأب للاثنين الآخرين (Hartmann,et al.,1946). (المؤلف).

[2] طور بعض المحللين، بالذات ميلاني كلين Melanie Klein وزملاؤها، النظرية القائلة بأن الأنا الأعلى يبدأ عمله كنظام نفساني مستقل قبل نهاية السنة الأولى من العمر، غير أنها وجهة نظر غير مقبولة من غالبية المحللين النفسانيين في الوقت الحاضر. (المؤلف).

هناك نقطة يجب على القارئ تذكرها أثناء المناقشة التالية لتشكل وتميز الأنا، وهي أن جوانب عديدة من هذا التطور، وغم كونها تعرض في الكتاب بتسلسل، إلا أنها في الواقع تحدث في آن واحد، وكل منها يؤثر في الآخر ويتأثر به. فينبغي، لكي تحصل على صورة وافية تماماً عن تطور الأنا، أن تكون مطلعاً على كل مظاهره، إذ لا توجد طريقة لعرض جانب واحد منه فقط في كل مرة على حدة وإهمال الجوانب الأخرى.

فكل المظاهر يجب مناقشتها في آن واحد، وإلا، رغم استحالة ذلك، على القارئ أن يستحضر كل المظاهر الأخرى حين قراءته عن أي مظهر واحد منها منفصلاً. وما لم يكن القارئ على معرفة سابقة بمادة المناقشة التالية، فإن عليه معاودة قراءتها مرتين أو ربما عدة مرات. فمن خلال تكرار القراءة فقط يستطيع القارئ أن يفهم بوضوح العلاقة القريبة والمتبادلة بين الأوجه المختلفة لتمايز الأنا وتطوره.

سبق أن ذكرنا بأن مجموعة الوظائف النفسية التي نسميها الأنا هي تلك التي يوجد بينها تشابه في أن كلاً منها له صلة، إما بشكل رئيسي أو بدرجة كبيرة، بعلاقة الفرد مع بيئته. وفي حالة الشخص البالغ، فإن هذا التحديد العام يشمل مدى واسعاً من الظواهر مثل، الرغبة في الإشباع، العادة، الضغوط الاجتماعية، حب الاستطلاع الفكري، الاهتمام الفني أو الجمالي، وأخرى كثيرة، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً ،بينما يختلف البعض الآخر بدرجة بسيطة جداً.

مع ذلك، لا يوجد في مرحلة الطفولة، وبالذات المرحلة المبكرة، مثل هذه الأسباب الوفيرة للاهتمام بالبيئة، كما أن طبيعة هذه الاهتمامات ليست بمثل ذلك التنوع والتعقيد.

فاتجاه الطفل الصغير بسيط جداً وعملي: "أعطني ما أريد!" أو "افعل ما أريده أنا!" بمعنى آخر، الأهمية الذاتية الوحيدة التي تعنيها البيئة للطفل هي كونها مصدراً محتملاً للإشباع، أو تصريفاً للرغبات والحاجات الملحة urges والتوترات النفسية النابعة من الدوافع المكونة للهو. ولجعل الأمر أكثر وضوحاً يجب أن نضيف ما هو سلبي أيضاً، إذ البيئة مهمة أيضاً كمصدر محتمل للألم أو الإزعاج، وهي إحساسات يحاول الطفل تجنبها.

أكرر مرة أخرى، بأن اهتمام الطفل الأساسي ببيئته يرجع لكونها مصدراً محتملاً للإشباع، وأجزاء العقل التي يقع عليها استخدام البيئة تتطور تدريجياً إلى ما نسميه الأنا. وهكذا، فالأنا هو ذلك الجزء من العقل المهتم بالبيئة لغرض الحصول على الحد الأقصى من الإشباع أو التصريف للهو. وكما لاحظنا في الفصل الثاني، فالأنا هو الأداة المنفذة executant للدوافع.

إن مثل هذا التعاون الودي بين الأنا والهو لا نلاحظه في عملنا الإكلينيكي المعتاد. بل على العكس، هناك نتعامل يومياً مع صراعات حادة بين الأنا والهو. وهذه الصراعات هي المادة العقلية للعصاب، وانشغالنا المستمر بها في عملنا اليومي كمعالجين نفسانيين يجعلنا ننسى بسهولة أن الصراع ليس هو العلاقة الوحيدة بين الأنا والهو، وبكل تأكيد ليس هو العلاقة الأساسية كما سبق وأن قلنا.

إننا لا نعلم عند أي مرحلة من مراحل النمو النفسي تبدأ الصراعات بين الأنا والهو في الظهور، وتكون لها دلالة جادة فيما يتعلق بالوظائف النفسية، غير أنه يبدو أن ذلك يحدث فقط بعد أن تتوفر للأنا درجة من التنظيم والتمايز الجوهري. ومهما كان الأمر، فإننا

سوف نؤجل مناقشة مثل هذه الصراعات حتى وقت لاحق من عرضنا لتطور الأنا والهو.

والآن، ما هي نشاطات الأنا إزاء البيئة في الأشهر الأولى من الحياة؟ قد تبدو لنا هذه الأنشطة، كأشخاص راشدين، تافهة تقريباً، لكن لحظة من التأمل سوف تظهر لنا أهميتها، بحيث يظهر لنا أنه، رغم تفاهتها الظاهرة، فإنها أكثر المراحل أهمية في حياة كل منا، وأكثر أهمية من أي إنجازات تالية قد تحدث.

إحدى المجموعات الواضحة من وظائف الأنا هي إحراز التحكم في الجهاز الهيكلي العضلي، الذي نسميه عادة بالتحكم الحركي. وبنفس الدرجة من الأهمية الأشكال المتعددة للإدراك الحسي، التي توفر معلومات أساسية حول البيئة. وإذا كان الفرد يأمل في التأثير على بيئته بشكل فعال، فإن اكتساب ما يمكن أن نسميه مكتبة الذكريات هو أيضاً جزء مهم من المؤهلات الشخصية. إذ من الواضح أنه كلما أدرك الشخص الماضي بشكل أفضل، وتراكمت خبراته الماضية بشكل اكبر، كلما أصبح في وضع أفضل للاستفادة من الحاضر. وبالمناسبة، يبدو أن الذكريات المبكرة هي تلك المتصلة بالإشباع الغريزي.

بالإضافة إلى هذه الوظائف، يجب أن توجد عملية نفسية ما لدى الطفل مرادفة لما نسميه بالمزاج في المراحل المتأخرة. ما الذي يمكن أن تعنيه هذه الانفعالات البدائية، أو بوادر الانفعالات، هو سؤال مثير للاهتمام ولا توجد له حتى الآن إجابة مرضية تماماً. وأخيراً، يظهر في فترة ما من الطفولة المبكرة أهم النشاطات الإنسانية المميزة للأنا على الإطلاق: أول حيرة وتردد بين النزوة والفعل، أول تأجيل للتصريف، والتي سوف تتطور لاحقاً إلى ظاهرة عظيمة ومعقدة نسميها التفكير (Rapaport,1951).

كل هذه الوظائف للأنا – التحكم الحركي، والإدراك، والذاكرة، والوجدان، والتفكير – تبدأ، كما هو ملاحظ، بطريقة بدائية أولية، ثم تتطور تدريجياً بنمو الطفل وتقدمه في العمر. ومثل هذا التطور التدريجي هو خاصية لوظائف الأنا عموماً. تنقسم العوامل المسئولة عن تطور وظائف الأنا إلى مجموعتين: أولاهما، النمو الجسماني، الذي يعني في هذه الحالة وبشكل أساسي، نمو الجهاز العصبي المركزي المحدد وراثياً. الثانية، الخبرة، أو عوامل الخبرة. ولغرض التبسيط، يمكن الإشارة إلى الأول بعامل النضج (Hartmann & Kris , 1945).

يمكننا إدراك أهمية النضج بسهولة. فالطفل، مثلاً، لا يمكنه الوصول إلى تحكم حركي فعال في أطرافه إلا بعد نمو التغليف النخاعي للمجرى الهرمي pyramidal tract. كما تعتمد مقدرته على الرؤية بكلتا العينين على وجود آلية عصبية كافية لتنسيق حركات العينين ودمج الصور المتناثرة. تمارس عوامل النضج هذه تأثيراً عميقاً وواضحاً على سرعة وتتابع تطور وظائف الأنا، وكلما توسعت معرفتنا عنها من علم نفس النمو كان ذلك أفضل. مع ذلك، كان اهتمام فرويد موجهاً بشكل خاص نحو تأثير عوامل الخبرة على تطور الأنا، على الرغم من إدراكه للأهمية الجوهرية للعوامل الوراثية، وتعقيد التفاعل بين التكوين الوراثي والبيئة التي هي خاصية في النمو النفسي.

أحد مظاهر الخبرة التي اعتبرها فرويد (1922) ذات أهمية جوهرية في المراحل المبكرة لتكوين الأنا هي، رغم غرابتها، علاقة الطفل بجسده. فقد أشار فرويد إلى أن أجسامنا تحتل مكانة خاصة في حياتنا النفسية طالما نحن أحياء، وأنها تبدأ في شغل هذا المركز الخاص في

مرحلة مبكرة جداً. هناك أكثر من سبب وراء ذلك. فعلى سبيل المثال، يختلف الجزء من الجسم عن أي شيء آخر في بيئة الطفل، لأنه حين يلمسه، يحدث أحساسان بدلاً من واحد. إنه يَحِس ويُحَسُ به، وهي خاصية لا توجد في أي شيء آخر.

إضافة إلى ذلك، وربما أكثرها أهمية، أن أجزاء الجسم توفر وسائل سهلة لإشباع الهو. فعلى سبيل المثال، يكون الطفل عادة قادراً، نتيجة للنضج وإلى حد ما للخبرة، على وضع إبهامه أو أصبعه في فمه من عمر ثلاث إلى ست أسابيع (Hoffer,1950)، وبذلك يشبع رغبته في الامتصاص حينما يود ذلك. ونحن نعتقد بأنه، بالنسبة لطفل في هذا العمر، لا شيء يضاهي في أهميته النفسية الإشباع المصاحب للامتصاص. ولنا أن نتخيل وبنفس الدرجة الأهمية العظمي المعلقة على وظائف الأنا المختلفة (التحكم الحركي، الإحساس الحركي، الذاكرة) التي تجعل الإشباع بمص الإبهام ممكناً، والمتعلقة بموضوعات الدافع نفسه كالإبهام والأصابع. وينبغي أن نتذكر أن أعضاء المص (الفمية) لها أيضاً أهميتها النفسية القصوى لنفس السبب - أي أنها على اتصال وثيق بكل الخبرة الممتعة للمص. إذاً، كلا الجزأين من الجسم، الجزء الماص والجزء الممصوص، لهما نفس الأهمية النفسية، وتشغل رموزهما النفسية مكاناً هاماً بين تلك المحتويات العقلية التي تصنف تحت عنوان الأنا.

ينبغي أن نضيف أن أجزاء من الجسم قد تكتسب أهمية نفسية كبيرة لمجرد كونها مصدراً متكرراً للإحساسات المؤلمة وغير السارة، استناداً إلى حقيقة أن هذه الإحساسات المؤلمة لا يمكن الهروب منها في الغالب. فإذا كان الطفل جائعاً، على سبيل المثال، فسوف يبقى كذلك حتى يتم إطعامه، فهو لا يمكنه الانسحاب من شعور الجوع كما يسحب يده

بعيداً عن مثير الألم فيوقفه.

إن التأثير المتراكم لهذه العوامل، وربما لعوامل أخرى مستترة عنا، هو أن جسم الطفل، كأجزاء متعددة في الأول وككل في الآخر، يشغل مكاناً هاماً للغاية داخل الأنا. وتمثل الرموز النفسية للجسم، أي الذكريات والأفكار المتصلة به، مع شحناتها من طاقة الدافع، تمثل الجزء الأكثر أهمية في نمو الأنا خلال مراحله المبكرة. وقد عبر فرويد (1923) عن هذه الحقيقة بقوله أن الأنا هو أولاً وقبل كل شيء صدي للجسم أو أنا للجسم body ego.

تبقى عملية أخرى تعتمد على الخبرة، وذات دلالة هامة في نمو الأنا، وهي ما تسمى بالتوحد identification مع الموضوعات، عادة الأشخاص، في البيئة. ونعني بالتوحد: السلوك أو العملية التي يصبح من خلالها الشخص شبيهاً لشيء ما، أو شخص ما، في جانب أو جوانب عدة من التفكير أو السلوك. لقد أوضح فرويد أن الميل لمحاكاة شيء في بيئتك هو جزء هام جداً في علاقة الشخص بالأشياء عموماً، وذو دلالة خاصة في باكورة الحياة.

يمكن ملاحظة الدليل على هذا الميل في سلوك الطفل المبكر عند منتصف السنة الأولى من العمر. فهو، مثلاً، يتعلم الابتسام عن طريق تقليد الكبار الذين يبتسمون له، ويتعلم الكلام بمحاكاة ما يقال له، وهناك مجموعة من الألعاب التي يلعبها الكبار مع الأطفال عادة في هذه المرحلة والتي تعتمد على الميل للمحاكاة. ولكي نتذكر الدور الكبير الذي تلعبه مثل هذه الألعاب في هذه المرحلة من الطفولة، علينا أن نتذكر فقط ألعاباً مثل الخبط على

اليد "clap-hands" والبيكا – بو "peek-a-boo"[3].

أما المثال الآخر على التوحد فيمكن استنتاجه من اكتساب الطفل للغة ،الذي يحدث في وقت ما لاحقاً. فالملاحظة البسيطة تظهر لنا أن اكتساب الطفل لحركة الكلام يعتمد بدرجة كبيرة على الميل النفساني لتقليد موضوعات البيئة، أو بعبارة أخرى، التوحد معها. صحيح أن الطفل لا يمكنه الكلام حتى ينضج جهازه العصبي بشكل كاف، وأن اكتساب اللغة ليس فقط عملية محاكاة. ومع ذلك، فالأطفال يتكلمون عادة باستخدام المحاكاة في السنة الأولى على الأقل. يعني أنهم يكررون الأصوات كما ينطقها الكبار، ويتعلمون لفظها في تقليدهم للكبار كجزء من اللهو واللعب. والأكثر دلالة هو ملاحظة الطفل يتحدث بنفس اللهجة التي يتحدث بها الكبار في محيطه. فإذا كان تعليم الطفل سليماً، فإنه سوف يقلد النطق واللهجة والأداء بكل دقة لدرجة تجعلنا نتساءل عما إذا كان ما نسميه عادة بصمم تمييز النغم "tone deafness"، أي القصور في اكتشاف الفروق النسبية في طبيعة الصوت، يمكن أن يكون خلقياً. ومهما يكن فليس لدينا شك في أن التوحد يلعب دوراً هاماً في اكتساب هذه الوظيفة الخاصة بالأنا التي نسميها بحركة الكلام.

إن نفس الشيء يقال عن طريقة السلوك الجسماني، وعن الاهتمامات الفكرية، وعن الهوايات الرياضية، وعن الميل للتعبير الطليق عن الدوافع الغريزية، مثل نوبات الغضب أو الميل

---

[3] لعبة يخفي فيها الشخص الكبير وجهه عن الطفل ثم يظهره فجأة، وهي لسبب ما ممتعة للأطفال ومثيرة لفضولهم. وتتسق استجابة الطفل لهذه اللعبة مع أحد مستويات المعرفة في نظرية بياجيه وهو مفهوم دوام الأشياء object permanence. (المترجم).

المعاكس لكبح هذا التعبير، أو الكثير غيرها من مظاهر وظائف الأنا. إن بعض هذه الوظائف واضح، وبعضها الآخر أقل وضوحاً، ولكن إذا أخذت جميعاً معاً، فسوف يظهر جلياً أنها تمثل جزءاً هاماً من تأثير الخبرة على تكوين الأنا.

وبطبيعة الحال، فليس الميل نحو تقمص شيء أو شخص في البيئة، تتعلق به الشحنة الانفعالية، مقصوراً بأي شكل على الطفولة المبكرة. فالمراهق، مثلاً، الذي يلبس أو يتحدث مثل أحد نجوم التمثيل أو الرياضة يكون في الواقع قد تقمصه. ومثل هذا التقمص في مرحلة المراهقة قد يكون عرضياً ودلالته عابرة، لكن ذلك ليس الحال دائماً. فعلى سبيل المثال، يدرك المربون جيداً بأن من المهم جداً أن يكون معلم المراهقين ليس فقط كفؤاً، بل يجب أن يكون مثالاً طيباً لتلامذته، وهي طريقة أخرى للقول بأن طلابه يميلون للإعجاب به، أي للتوحد معه. ورغم أننا قد لا نتفق دائماً مع زملائنا المربين حول ما الذي يُكوِّن القدوة المرغوبة، إلا أننا نتفق جميعاً على أن التلاميذ ميالون إلى تقمص معلميهم.

يستمر هذا الميل، في الواقع، طوال الحياة، غير أنه ينحو في مراحل الحياة المتأخرة إلى أن يكون لا شعورياً في مظهره. بمعنى آخر، فإن الشخص الراشد لا يدرك في الغالب أنه، في بعض جوانب تفكيره أو سلوكه، يقلد شخصاً آخر، أو أنه معجب به أصلاً. فالرغبة في أن تكون مثل الآخر تصبح أكثر دنواً من الشعور في مراحل الحياة المبكرة. فالطفل الصغير، على سبيل المثال، لا يخفي رغبته في أن يكون مثل أبيه، أو مثل (سوبرمان)، أو روي روجرز[4]، بينما يربي فيما بعد شنباً، مثل مديره الجديد تماماً، دون إدراك شعوري لرغبته في

[4]أحد ممثلي أفلام رعاة البقر المعروفين. (المترجم)

تقمصه. فهذه الرغبة لا شعورية حتى لو عبر عنها بقرار تربية الشنب.

ناقشنا حتى الآن الميل نحو تقمص الأشخاص والأشياء المحيطة بالفرد والمشحونة بقوة الليبيدو. وينبغي أن يكون واضحاً من المناقشة أن هذا الميل صحي وسوي تماماً، رغم أنه يبدو أكثر وضوحاً وأهمية خلال مراحل الحياة العقلية المبكرة منه خلال الحياة المتأخرة.

من المهم، أيضاً، ملاحظة الميل نحو تقمص المواضيع المشحونة بدرجة عالية من الطاقة العدوانية. ويظهر هذا بشكل خاص إذا كان الموضوع أو الشخص قوياً، وهو نمط من التقمص يسمى (التوحد مع المعتدي) (A. Freud, 1936). ففي مثل هذه الأحوال، يرضى الشخص عن نفسه لكونه يشارك، ولو في خياله، في السلطة والمجد الذين يعزوهما لخصمه. وهذا، بالمناسبة، نفس النوع من الإشباع المتاح للفرد، سواء أكان طفلًا أم راشداً، الذي يتقمص موضوعاً معجباً به مشحون بشكل أساسي بطاقة الليبيدو. طالع مثلا أمثلتنا السابقة عن تقمص الأبوين، والمعلمين، وأرباب العمل، والمشاهير.

مع ذلك، فإن أفضل دليل لدينا هو ما يدعم وجهة النظر القائلة بأن علاقة التقمص بأوهام وخيالات الشخص في الحلول محل الموضوع المثير للإعجاب، من أجل الاستيلاء على حقوقه وممتلكاته، هي علاقة ثانوية. ومما لاشك فيه أن هذا دافع قوي للغاية في حالات كثيرة، غير أنه يبدو أن نزعة التوحد مع أي موضوع هي نتيجة لشحناته الليبيدية، طالما أن بالإمكان ملاحظة ذلك أثناء الطفولة، وقبل وقت طويل من ظهور دوافع مثل الحسد، أو أي نزوة خيالية كالحلول محل المحسود أو أخذ مكانه. هل يمكن أن يكون التقمص نتيجة مباشرة لشحنات نفسية عالية مع طاقة عدوانية؟ هذا سؤال يبحث عن

إجابة.

هناك عامل آخر، أكد عليه فرويد (1916a)، يلعب دوراً هاماً في عملية التقمص سماه فقدان الموضوع object loss، وهو مصطلح قد يعني أشياء كثيرة، إذ يمكن أن يشير إلى الموت الفعلي أو المتخيل لشيء ما، أو الانفصال الدائم عن شيء ما، أو تخيل مثل هذا الانفصال. لقد اكتشف فرويد أنه تحت أي من هذه الظروف هناك ميل لتقمص الشيء المفقود. وقد أكدت الخبرة الإكلينيكية التالية، وبشكل متكرر، صحة ودلالة هذا الكشف. وتتراوح الحالات المرتبطة بهذا الموضوع على امتداد خط متصل يبدأ من حالة الابن الذي أصبح نسخة مطابقة من أبيه الميت، يدير أعماله كما تعود أبوه أن يفعل تماماً كما لو أنه الأب ذاته، إلى المريضة التي ذكرها فرويد (a19161)، والتي اتهمت نفسها بجرائم ارتكبها في حقيقة الأمر والدها المتوفي. فالمثال الأول لحالة سوية، بينما الثاني لحالة مرضية تعاني مرضاً عقلياً حاداً.

وكما أوضحت في الأمثلة السابقة، فإن فقدان شخص محاط بشحنة انفعالية عالية، بسبب الموت أو الانفصال، قد تكون له آثار حادة على تطور الأنا. لأنه في مثل هذه الحالات تبقى الحاجة مستمرة لمحاكاة المفقود. والحالات المدروسة من هذا النوع، عن طريق التحليل النفسي، هي من نوع الاكتئاب. وهي حالة إكلينيكية يلعب فيها عادة التوحد اللاشعوري مع الموضوع المفقود دوراً هاماً.

هكذا يتبين أن التقمص يلعب دوراً هاماً في تطور الأنا لأكثر من سبب. فهو، قبل كل شيء، جزء أصيل في علاقة الفرد المبكرة بالموضوع المشحون وجدانياً شحناً عالياً. أضف

إلى ذلك، ما لاحظناه من ميل للتوحد مع موضوع محط إعجاب وكره معاً، وهو ما تسميه آنا فرويد بـ "تقمص المعتدي". وأخيراً، فإن فقد أي شيء محاط بشحنة وجدانية عالية يؤدي، بشكل أو بآخر، إلى تقمص الشيء المفقود، مع ذلك، وبغض النظر عن الطريقة التي يحدث بها التقمص، فالنتيجة دائماً إثراء الأنا بهذه الوسيلة في جميع الأحوال.

ننتقل الآن إلى موضوع آخر، ذي علاقة وطيدة بتمييز الأنا والهو كل عن الآخر، وهو موضوع أساليب أداء الجهاز النفسي لوظائفه التي نسميها بالعمليات الأولية والثانوية (Freud,1911).

سميت العملية الأولية بهذا المصطلح لأن فرويد اعتبرها الوسيلة الأساسية، أو الأولية، التي يؤدي بها الجهاز النفسي وظائفه. وفي اعتقادنا فإن الهو يؤدي وظائفه مدى الحياة وفقاً للعملية الأولية، أما الأنا فيفعل ذلك خلال السنوات الأولى من الحياة، حيث نظامه مازال فجاً يشبه الهو كثيراً، لكونه انبثق عنه في وظائفه حديثاً. من ناحية أخرى، تتطور العملية الثانوية بشكل تدريجي وتصاعدي خلال السنوات الأولى من الحياة، وهي صفة مميزة لعمليات الأنا الناضج نسبياً.

يستخدم كل من مصطلحي العملية الأولية والعملية الثانوية في أدبيات التحليل النفسي للدلالة على ظاهرتين مرتبطتين ولكنهما متمايزتان. فعبارة عملية أولية، مثلاً، قد تدل، إما على نمط معين من التفكير الذي هو صفة مميزة لطفل مازالت أَناَه فجة. أو تدل على الطريقة التي انتقلت بواسطتها، طاقة الدافع، سواء أكانت ليبيدية أم عدوانية، وأُفرغت في الهو أو في الأنا غير الناضج. وبنفس الطريقة، تدل العملية الثانوية على نمط التفكير المميز

للأنا الناضج، أو على عمليات حشد وتعبئة الطاقة النفسية التي يُعتقَد حدوثها في الأنا الناضج. كلا النمطين من التفكير قابلان للدراسة ولهما أهميتهما الإكلينيكية القصوى. أما ما هو أكثر أهمية في نظريتنا فهو طرق التعامل مع الطاقة النفسية وتصريفها، غير أنها أقل انكشافاً للبحث والدراسة، وذلك كما هو الحال مع كل فرضياتنا حول الطاقة النفسية.

لنبحث أولا أي الظواهر نقصدها في إدارة الطاقة النفسية عندما نتحدث عن العملية الأولية أو الثانوية.

بالنسبة للعملية الأولية، يمكن وصف خصائصها الأساسية بسهولة وفقاً لصياغتنا السابقة لطاقة الدافع. ففي اعتقادنا أن شحنات الدافع المرتبطة بالعملية الأولية هي شحنات متحركة إلى حد بعيد، وأن هذا الحراك المشحون cathectic mobility مسئول عن خاصيتين بارزتين للعملية الأولية هما: (1) الميل للإشباع الفوري (تصريف الشحنات الانفعالية)، والتي هي خاصية لكل من الهو والأنا غير الناضج. (2) السهولة التي يتم بها تحويل الشحنة الانفعالية من موضوعها الأصلي، أو طريقة تصريفها، إلى مسار آخر إذا ما حدث وأن سُدَّت هذه الطرق أو تعذر الوصول إليها.

الصفة الأولى، أي الميل نحو الإشباع أو التفريغ الفوري للشحنات، هي الصفة المسيطرة بوضوح أثناء مرحلة الطفولة، حيث وظائف الأنا ما تزال غير ناضجة. كما أن ذلك شائع، بأكثر مما نظن، في مرحلة الحياة اللاحقة. إذ كشف منهج التحليل النفسي، من خلال أبحاث العمليات العقلية اللاشعورية، خاصة عمليات الهو، أن الميل للتصريف الفوري للشحنات النفسية هو سمة الهو مدى الحياة.

أما عن الصفة الثانية، أي سهولة إحلال مسلك لتصريف الشحنة الانفعالية محل آخر، فيمكن توضيحه ببعض الأمثلة البسيطة، وقد مر بنا أحدها، كما في حالة الطفل الذي يمص إبهامه إذا عجز عن الحصول على الثدي أو زجاجة الرضاعة. فالشحنة الانفعالية لطاقة الدافع المرتبطة بالنزوة أو الرغبة في الرشف هي ذات طبيعة أولية، موجهة، على سبيل المثال، نحو الرموز العقلية للثدي أو الزجاجة. وهي شحنة متحركة، لذلك إذا لم يتم تصريفها عن طريق رشف الثدي أو امتصاص الزجاجة، لكونهما غير متوفرين، فإنها سوف تتحول إلى إبهام الطفل لكونه متاحاً، فيمص الطفل إبهامه ومن ثم يتم تفريغ الشحنة.

المثال الآخر عن الطفل الذي يلعب بالوحل. فاللعب بالبراز لم يعد ممكناً كطريقة لتفريغ الشحنات لأنه أصبح ممنوعاً، ولذلك فإن الطفل، وبسبب حركية الشحنات المرتبطة بالرموز النفسية لبرازه، يمكنه الحصول على نفس الإشباع بتحويل الشحنة إلى الوحل، وتصريفها عن طريق اللعب بالوحل بدلاً عن البراز. ومن المألوف حالة الطفل الذي يضرب أخاه الأصغر في حين أنه غاضب من أمه، أو الرجل الذي يصرخ في أطفاله ليلاً لأنه لم يجرؤ على التعبير عن غضبه من رئيسه نهاراً.

إذا تحولنا لبحث العملية الثانوية فسوف نجد ظروفاً مختلفة تماماً، إذ أن التأكيد هنا على مقدرة تأجيل تصريف الطاقة النفسية المشحونة cathectic energy. ويمكن القول أن الفرق الأساسي يكمن في القدرة على تأجيل التصريف حتى تتوفر الظروف البيئية الملائمة. ومن المؤكد أن هذه صياغة تجسيمية anthropomorphic formulation، لكن مع ذلك نحن نتحدث عن الأنا الذي هو في صميمه إنساني is anthropos itself

(Hartmanm1953b). ومهما يكن، فالقدرة على تأجيل التصريف مظهر أساسي في العملية الثانوية.

المظهر الآخر للعملية الثانوية هو أن الشحنات أكثر ارتباطاً بموضوع بعينه ،أو أسلوب تصريف، مما هو الحال مع العملية الأولية. وهنا فالفرق، كما هو الحال في السمة الأولى، أي القدرة على تأجيل الإشباع، فرق كمي أكثر منه نوعياً.

وعلى نفس المنوال، فإن التحول من عملية إلى أخرى يتم تدريجياً، سواء تاريخياً بتتبع النمو والتطور لدى فرد بعينه، أو وصفياً بمحاولة وضع حد بين العمليات الأولية والثانوية لفرد بعينه. ويمكن القول أن سلوكاً أو تفكيراً معيناً يحمل كذا وكذا من آثار العملية الأولية أو الثانوية، ولكن لا أحد يمكنه القول "هنا تنتهي العملية الأولية، وهناك تبدأ الثانوية" فالتغير من العملية الأولية إلى الثانوية يتم تدريجياً، وهو جزء من تطور وتمايز تلك العمليات العقلية التي تكون ما نسميه الأنا.

يعبر مصطلحا العملية الأولية والعملية الثانوية أيضاً، وكما أسلفنا، عن نموذجين أو نمطين من التفكير. ومرة أخرى، نعتقد أن عملية التفكير الأولي تظهر مبكراً في الحياة قبل عملية التفكير الثانوي، وأن هذه الأخيرة تنمو تدريجياً كجزء أو كمظهر من تطور الأنا.

إذا حاولنا الآن وصف وتعريف هذين النمطين من التفكير، فسوف نجد أن العملية الثانوية أيسر على الوصف من العملية الأولية، وذلك لكونها مألوفة لنا أكثر. إنها مألوفة، وتتكون من التفكير الواعي كما نعرفه من عملية الاستبطان، وهي لفظية في المقام الأول وتتبع قوانين الإعراب والمنطق المعتادة. إنها نمط التفكير الذي نعزوه عادة إلى الأنا الناضج

نسبياً، ولأنها مألوفة لنا جميعاً، لن تحتاج إلى توضيح إضافي.

من جهة أخري، تدل عملية التفكير الأولي على نمط التفكير السائد في مرحلة الطفولة حينما كان الأنا ما يزال فجاً وغير ناضج. إنها مختلفة في نواحي هامة عن أساليبنا المعتادة من التفكير الواعي، الذي نسميه العملية الثانوية، وهي حقاً مختلفة لدرجة تدفع القارئ للشك فيما إذا كان لعملية التفكير الأولي أي مكان في الأداء السوي للعقل في مقابل الأداء المختل للعقل. لذلك من المهم التأكيد، كما سوف نرى، على أن عملية التفكير الأولي هي نمط التفكير السائد عادة لدى الأنا غير الناضج، وأنها تستمر حتى البلوغ.

ولكي نمضي في وصفنا لعملية التفكير الأولي، يمكن أن نبدأ بإحدى أهم خصائصها التي تثير غالباً انطباعاً قوياً بالغرابة والإبهام. إنها غياب أدوات الشرط والنفي، أو أي أداة أخرى لوصل الكلام، بحيث أنه عند صياغة العبارة يمكن، فقط بواسطة قرينة الكلام، الكشف عما إذا كان القصد منها النفي، أو الإثبات، أو الشرط، أو التمني. فالأضداد يحل كل منها محل الآخر، وتتعايش الأفكار المتناقضة معاً بسلام. وسوف نصادف المصاعب، حتى نوضح أن هذا التفكير ليس كله مرضياً. ولكن قبل أن نواصل مناقشة هذه النقطة أكثر، لنستكمل وصفنا للعملية الأولية كنمط للتفكير.

يتكرر في عملية التفكير الأولي التصوير بواسطة التلميح والتشبيه، وقد يستخدم جزء من الموضوع، أو الذاكرة، أو الفكرة ليمثل الكل أو العكس. فضلاً عن ذلك، قد تُمثل العديد من الأفكار المختلفة بواسطة فكرة أو رمز واحد، والحقيقة أن البيان اللفظي لا

يستخدم في التفكير الأولي بشكل حصري كما في التفكير الثانوي. فقد تظهر الانطباعات البصرية أو الحسية الأخرى بدلاً عن كلمة، أو بدلاً عن فقرة، أو بدلاً عن فصل كامل. وقد نضيف كخاصية أخيرة أن الإحساس بالزمن والقلق على الوقت لا مكان لهما في عملية التفكير الأولي. فلا يوجد شيء مثل "قبل"، أو "بعد"، أو "الآن"، أو "فيما بعد" ؛ أو مثل "أولاً"، أو "تالياً"، أو "أخيراً" فالماضي والحاضر والمستقبل كلها شيء واحد في التفكير الأولي.

حقاً، إن عملية التفكير الأولي واضحة في حالات عدة من المرض العقلي الحاد، وتكون جزءاً بارزاً من الحياة العقلية يسهم بشكل جلي في الأعراض التي يظهرها هؤلاء المرضى. وهذا هو الواقع في حالات الهذاء المختلفة المرتبطة بحالات التسمم والأمراض العضوية للمخ، كما هي كذلك في الأمراض الحادة مجهولة الأسباب كالفصام وذهان الهوس – الاكتئاب. ومع ذلك، فعملية التفكير الأولي ليست في ذاتها مرضاً. إذ يكمن الشذوذ في مثل هذه الحالات في غياب أو اختفاء عملية التفكير الثانوي، وليس في وجود عملية التفكير الأولي. فالسيطرة الخالصة للعملية الأولية هي التي تشكل شذوذاً حينما تحدث في مرحلة الرشد. ورغم ما تتركه عمليات التفكير الأولي لدينا من انطباع بالغرابة، إلا أن الاعتبارات التالية قد تساعدنا في فهمها بشكل أفضل. بل إنها قد تقنعنا بأنها في الواقع مألوفة لنا بأكثر مما نتخيل.

إن غياب الإحساس بالزمن، على سبيل المثال، يمكننا أن نعزوه إلى ما نعرفه عن النمو العقلي للأطفال. إذ تمر سنوات عدة قبل أن ينمي الطفل إحساساً بالوقت، وقبل ذلك

لا شيء يفهمه سوى "الآن وهنا"، لذلك فهذه الخاصية من عملية التفكير الأولي سمة مألوفة في الطفولة المبكرة.

ونفس الشيء يقال عن الميل نحو عرض الأفكار بطريقة غير لفظية، إذ أن هذه هي طريقة التفكير لدى طفل ما قبل المرحلة اللفظية.

أما فيا يتعلق بتراكيب الجمل المربكة وغير المنطقية التي وصفناها، فإن استعمال أدوات الربط qualifying conjunctions، وحتى استعمال أدوات النفي، هو أكثر شيوعاً في الكلام المكتوب منه في الكلام الملفوظ، حيث أن جزءاً كبيراً من المعنى يُنقَل بواسطة سياق الكلام، والإيماءات، وتعبير الوجه، ونغمة صوت المتكلم. أضف إلى ذلك، أنه كلما كان الكلام باللهجة العامية وبعيداً عن الفصحى، كان بناء الجمل أبسط ،والكلمات أكثر غموضاً عند عزلها عن سياق الكلام. على سبيل المثال، قد تعنى عبارة "إنه شخص عظيم" أشياء مختلفة اعتماداً على ما يعنيه المتكلم، إذا كان يقصد بها الجد، أو الهزل، أو النقد الساخر. فإذا كان الاحتمال الأخير هو الصحيح، فإن كلمة "عظيم" ستعني العكس تماماً للتعريف الذي يعطيه القاموس. مثل هذا التعبير باستخدام النقيض، والذي يبدو للوهلة الأولى أحد أهم الصفات المحيرة لعملية التفكير الأولي، شائع للغاية في لغة الحديث اليومية. وهو شائع جداً لدرجة أننا نادراً ما ننتبه إلى استخدامه المتكرر ما لم نصغي إليه بشكل مقصود.

وبنفس الطريقة، فإن التعبير عن الجزء بواسطة الكل أو العكس، أو التعبير بالتلميح أو التشبيه، كلها طرق من التفكير معتادة في الشعر، كما يتواتر استخدامها في الإنتاج

العقلي الأقل أهمية مثل النكتة واللغة الدارجة. وحتى التعبير عن الأفكار بأساليب غير لفظية ينسل، في أحوال كثيرة، إلى حياتنا الشعورية، عندما نتحدث عن صورة "تحكي القصة أفضل من الكلمات" ورغم أن ذوي الخبرة الفنية منا قد لا يمنحون اللوحات الفينة الجادة، التي تحكي قصة ما، تقديراً عالياً، إلا أننا جميعاً نعلم تكرار مثل هذه المحاولات، على سبيل المثال، في الرسوم المتحركة الهزلية، والكاريكاتير، وصور الإعلانات التجارية.

كل هذه الأمثلة تظهر أن خصائص عملية التفكير الأولي ليست غريبة عن التفكير الواعي في حياة الإنسان الراشد كما كنا نظن في البدء. هذه الخصائص ثابتة مدى الحياة، وتلعب دوراً، رغم كونه ثانوياً، إلا أنه هام إلى حد بعيد. أضف إلى ذلك، أن الأنا يحافظ في العادة على قدرته علي العودة، ولو إلى حين، إلى أنماط غير ناضجة تخص مرحلة الطفولة. ويظهر هذا بشكل خاص في ألعاب ونكات الكبار، سواء تمت تحت تأثير الكحول أم لا. وهي أيضاً تحدث في الأحلام أثناء النوم، كما تحدث في أحلام اليقظة. ففي جميع هذه الحالات، من الواضح وجود زيادة مؤقتة في أهمية عملية التفكير الأولي مقارنة بعملية التفكير الثانوي السائدة عادة، كما قلنا، في حياة الكبار.

رغم أننا غطينا الآن النقاط الأساسية في عمليات التفكير الأولي والثانوي، إلا أنه مازال هناك بعض النقاط التي يلزم إضافتها لتسهل على القارئ الولوج إلى أدبيات التحليل النفسي المتعلقة بهذه الموضوعات.

ففي المقام الأول، هناك اثنان من المصطلحات تستخدم في مؤلفات التحليل النفسي للتعبير عن بعض سمات عملية التفكير الأولي ومن المستحسن تحديد معانيها. أولى هذه

المصطلحات الإزاحة والثاني التكثيف.

يشير مصطلح الإزاحة، حينما يستخدم بمعناه الفني التحليلي، إلى التعبير عن الجزء بواسطة الكل أو العكس، أو بشكل عام، إحلال صورة أو فكرة محل أخرى مرتبطة بها بشكل وثيق. لقد افترض فرويد أن هذا الإحلال يرجع إلى تبدل في الشحنات الانفعالية، أي في شحنة الطاقة النفسية، من فكرة إلى أخرى. لهذا كان اختياره لكلمة "استبدال": فما استبدل هو الشحنة الانفعالية the cathexis. وبالمناسبة فإن هذا المصطلح يصور العلاقة الوثيقة بين عملية التفكير الأولي والأساليب المميزة في تنظيم طاقة الدافع المسماة كذلك بالعملية الأولية. في هذه الحالة فإن القابلية للإزاحة، التي هي سمة لعملية التفكير الأولي، ترتبط بحركية وانتقال الشحنة التي أشرنا إليها كصفة للعملية الأولية الخالصة.

يستخدم مصطلح التكثيف للتعبير عن الصور والأفكار المتعددة باستخدام صورة واحدة أو كلمة واحدة أو حتى جزء من الكلمة. وكما في الاستبدال يشير مصطلح التكثيف إلى إزاحة للطاقة التي يفترض أن العملية تعتمد عليها. لقد افترض فرويد أنه عندما تختزل رموز عقلية متعددة في رمز واحد، فإن شحنات تلك الرموز سوف تتركز (تتكاثف) على ذلك الرمز.

هناك خاصية أخرى لعملية التفكير الأولي، التي عادة ما تعتبر كما لو أنها صفة خاصة ومنفصلة، رغم أنها في حقيقة الأمر مثال لخاصية الاستبدال التي ناقشناها. هذه الخاصية هي ما نسميه التمثيل الرمزي، بالمعنى التحليلي لكلمة رمزي.

اكتشف فرويد مبكراً (1900) أثناء دراسته للأحلام والأعراض العصابية أن بعض

عناصر الأحلام أو الأعراض لها معنى ثابت نسبياً من مريض لآخر، يختلف عن معناها المتداول عادة. والأغرب من هذا كله، أنه غير معروف للمريض نفسه! فعلى سبيل المثال، ترمز رؤية زوج من الأخوات في الحلم إلى نهدي المرأة، والرحلة أو الغياب للموت، وترمز النقود للبراز... وهكذا، كما لو أن هناك لغة سرية يستخدمها الناس لا شعورياً، دون أن يكونوا قادرين على فهمها شعورياً. يسمي فرويد مفردات هذه اللغة، إذا جاز التعبير، بالرموز symbols. بمعنى آخر، قد تستعمل النقود في العملية الأولية كرمز، أي كمرادف للبراز، والسفر كمرادف للموت... الخ. وهذا الموضوع يثير جدلاً واسعاً، وليس مستغرباً أن هذا الكشف أثار اهتماماً كبيراً، ومعارضة شديدة في نفس الوقت. ومرد هذا الاهتمام والمعارضة هو أن كثيراً من الأفكار والأشياء المعروضة بشكل رمزي هي أشياء وأفكار محظورة، بمعنى جنسية أو " قذرة."

إن قائمة ما يمكن تمثيله رمزياً ليست طويلة جداً. فهي تشمل الجسد وأجزاؤه، خاصة الأعضاء الجنسية، والأرداف، والشرج، والجهاز البولي، والنهدين. كما تشمل المحارم من الأسرة كالأم، والأب، والأخ، والأخت. وتشمل وظائف جنسية معينة مثل الاتصال الجنسي، والإثارة الجنسية، والتبول، والتبرز، والأكل، والبكاء، والغضب؛ وتشمل الولادة، والموت؛ وبضع أمثلة أخرى. وسوف يلاحظ القارئ أن هذه الأشياء مهمة للغاية بالنسبة للطفل الصغير، أي أنها أشياء هامة للفرد في وقت مازال فيه الأنا فجاً وغير ناضج، ومازالت العملية الأولية تلعب دوراً هاماً في تفكيره.

بهذا تنتهي مناقشتنا للعمليات الأولية والثانوية، ونتجه الآن إلى مظهر آخر من

نظرية طاقة الدافع لما لها من علاقة بتمايز الأنا عن الهو وتطوره اللاحق.

المظهر الذي نشير إليه يدعى إبطال أو تحييد طاقة الدافع (Freud,1923; Hartmannm et al.,1949). إذ تصبح طاقة الدافع، والتي في ظروف مختلفة، مثلها مثل جميع شحنات الهو الانفعالية، تضغط بإلحاح من أجل التفريغ السريع، تصبح نتيجة للتحييد متوفرة للأنا وتحت تصرفه لتنفيذ رغباته ومهامه المختلفة طبقاً للعملية الثانوية. وهكذا، ننسب طاقة الدافع غير المحيدة أو غير المعطلة إلى العملية الأولية، وطاقة الدافع المحيدة أو المعطلة إلى العملية الثانوية، رغم أننا لسنا واثقين من ماهية العلاقة الدقيقة بين التحييد وانبثاق وعمل العملية الثانوية.

ما نعرفه حقاً هو أولاً، أن التحييد تحول تدريجي أكثر منه فجائي؛ وثانياً، أن ما يوفره التحييد لوظائف الأنا ضروري للأنا، إذ بدونه لا يستطيع الأنا أداء وظائفه بشكل مناسب، هذا إذا تمكن من أدائها أصلاً. (Hartmann,1953a).

وعندما نقول أن التحييد أو التعطيل عملية تدريجية، فإننا نعني أنها تحول يحدث شيئاً فشيئاً عبر فترة طويلة من الزمن. وهو مثل التغيرات الأخرى المرتبطة بنمو الأنا يحدث تدريجياً، وموازياً لتطور الأنا الذي يسهم فيه بنصيب وافر كما سبق وأن أوضحنا.

إذا حاولنا تعريف الطاقة المحيدة أو المعطلة، فإن أبسط تعريف شامل لها هو أنها طاقة تم تحويرها عن صيغتها الأصلية الجنسية أو العدوانية. وهذا المفهوم حول إفقاد الطاقة الدافعة لخصائصها الطبيعية denaturation of drive energy قدمه فرويد أولاً في وقت كان فيه الدافع الغريزي الوحيد المعروف لدينا هو الدافع الجنسي (Freud,1905b). والنتيجة أن فرويد،

وهو يناقش العملية التي نحن بصددها الآن، أشار إليها باسم سحب الطاقة الجنسية أو تجريدها من مظاهرها الجنسية desexualization، وفي السنوات الأخيرة أدخل مصطلح سحب الطاقة العدوانية أو تجريدها من مظاهرها العدوانية deaggressivization كمصطلح مرادف (Hartmann et al. , 1949). لكن من المستحسن من أجل سهولة التعبير أن نتحدث عن التحييد فقط، سواء أكان تحييداً للطاقة الجنسية أو للطاقة العدوانية.

يدل مصطلح التحييد ضمناً على أن نشاطاً ما للفرد، كان في الأصل يوفر إشباعاً للدافع من خلال تصريف الشحنة الانفعالية، توقف عن فعل ذلك وتحول إلى خدمة الأنا، بعيداً تماماً عن الحاجة إلى إشباع أو تصريف الشحنات في أي شيء حتى لو قارب شكله الغريزي الأصلي. والمثال التالي قد يساعد على تبسيط هذه الأشياء وجعلها مفهومة.

تتيح محاولات الطفل المبكرة للكلام تصريفاً لشحنات غريزية متعددة، كما تفعل عموماً الأنشطة الأخرى للأنا الفج غير الناضج. قد يكون من الصعب أن نعرف بشكل كامل ودقيق ماهي الطاقات الدافعية للطفل التي أفرغت عبر الحديث، غير أننا نتفق بكل تأكيد على الكثير منها مثل: التعبير عن الانفعال، وتقمص شخصية البالغ أو الشقيق الأكبر، و اللعب مع شخص كبير وجذب انتباهه. مع ذلك، سوف نتفق على أنه، وفي الوقت المحدد، يصبح استعمال اللغة متحرراً من غرض الإشباع، ومتاحاً للتواصل الفكري، حتى مع غياب الإشباعات المباشرة، مثل تلك المصاحبة له في البداية : فما كان أصلاً طاقة للدافع تم تحييده وأصبح في خدمة الأنا.

ما أود تأكيده هو أن العلاقة ما بين إشباع الدافع ونشاط مثل الحديث يعتبر سوياً في مرحلة مبكرة من الحياة. فبدون المساهمة من طاقة الدوافع، فإن اكتساب اللغة سيتعطل بشكل

حاد، هذا إذا أمكن حدوثه أصلاً. ويمكن ملاحظة الأمثلة الإكلينيكية لهذه الحقيقة في خرس الأطفال الذهانيين الإنسحابيين، الذين تنقصهم العلاقات المشبعة مع الكبار، والذين تعود إليهم القدرة على الكلام، أو تظهر لديهم للمرة الأولى أثناء العلاج، حينما ينشئون هذه العلاقات لأول مرة أو يعيدون إحياءها فيما بعد. ومن الناحية الأخرى، إذا لم يتم تحييد طاقة الدافع بشكل كاف، أو تم التراجع عن التحييد في وقت لاحق من الحياة، ومن ثم أعيدت الصيغة الغريزية للكلام أو للطاقة الطبيعية المتاحة له، فإن الصراعات العصابية قد تتداخل مع ما كان حتى اللحظة وظيفة للأنا متاحة للفرد بغض النظر عن صراعاته الداخلية. وتلاحظ أمثلة نتائج هذا الترسيخ الغريزي instinctualization في تهتهة الطفولة (تحييد ناقص) وفقدان الصوت الهستيري (إعادة الترسيخ الغريزي reinstinctualization). ويمكن أن نضيف بأن إعادة الغريزة (إبطال التحييد deneutralization) هو أحد مظاهر ظاهرة النكوص ،التي أشرنا إليها في الفصل الثاني، والتي سوف نناقشها مرة أخرى في الفصل الرابع.

تنسجم فكرة أن الطاقة المحيدة neutralized energy تخضع لتصرف الأنا من أجل تنفيذ الكثير من وظائفه مع حقيقة أن عمليات الأنا، على الأقل بعد مرحلة الطفولة المبكرة، مستقلة لا يعكرها تدفق الدوافع ولا الصراعات الداخلية المثارة بواسطة هذه الدوافع (Hartmann et al. , 1946). ومع ذلك، فاستقلال عمليات الأنا نسبي وليس مطلقاً. فكما سبق القول، قد تعاد للطاقة الواقعة تحت تصرف هذه العمليات طبيعتها الغريزية reinstinctualized في بعض المواقف المرضية، وتصبح الوظائف نفسها متأثرة بالرغبات النابعة من الدوافع، أو بالصراعات حول هذه الرغبات، أو حتى بالوقوع تحت رحمتها.

قراءات إضافية

Freud, S., The ego and the id. Standard edition,vol.19,pp.3-66,1961. Also New York: Norton,1961.

Freud, S., New introductory lectures on psychoanalysis. Standard edition, vol.22. Chapter ,3 ,lecture XXXI, 1964. Also in complete introductory lectures on psychoanalysis.NY,Norton,1966.

Rapaport, D., ed., Organization and pathology of thought. New York: Columbia University Press,1951.

الفصل الرابع

الجهاز النفسي (تابع)

The psychic Apparatus (Continued)

ناقشنا في الفصل الثالث مواضيع مختلفة تتعلق بتمايز الأنا عن الهو، وتطوره التدريجي، وأدائه لوظائفه. وتحدثنا عن الوظائف النفسية الأساسية التي جمعت معاً تحت عنوان "الأنا"، مثل التحكم الحركي، والإدراك الحسي، والتذكر، والتفكير، والمزاج؛ ولفتنا الانتباه إلى أن العوامل المؤثرة على تطور الأنا تقع ضمن فئتين عريضتين أسميناهما عوامل النضج، وعوامل البيئة أو الخبرة، حيث ناقشنا الفئة الأخيرة مطولاً، وأشرنا إلى أهميتها الخاصة في نمو الأنا فيما يخص أحد موضوعات بيئة الطفل وهو جسمه. إضافة إلى ذلك ناقشنا التأثير الكبير للأشخاص الآخرين في بيئة الطفل على نمو وتطور أنا الطفل من خلال عملية التوحد، ثم تحولنا بعد ذلك إلى ما أسميناه أداء الأجزاء المختلفة من الجهاز النفسي لوظائفها، وناقشنا العمليات الأولية والثانوية، وعمليات التفكير الأولي والثانوي. وأخيراً، ناقشنا الدور الذي يلعبه تحييد الطاقة النفسية المستمدة من الدوافع في تشكيل الأنا وفي أدائه لوظائفه.

وفي هذا الفصل سوف ننظم مناقشتنا حول موضوعين رئيسيين قريبين جداً إلى بعضهما البعض. أولهما، يتعلق بقدرة الأنا على اكتساب المعرفة حول بيئته والسيطرة عليها؛ والثاني، يبحث في الطرق الهامة جداً والمعقدة التي يحرز بها الأنا درجة من التحكم والسيطرة على الهو، أي على الرغبات والنزوات الناشئة عن الدوافع. والموضوع الأول له علاقة بنضال الأنا ضد العالم الخارجي، من خلال دوره كوسيط بين الهو والبيئة؛ أما الموضوع الثاني فله علاقة بالأنا في نضاله ضد الهو نفسه، أي ضد العالم الداخلي.

ولنبدأ بأول هذه المواضيع وهو سيطرة الأنا على البيئة. فمن الواضح أن للأنا ثلاث وظائف، ناقشناها سابقاً، هي ذات أهمية جوهرية في هذا الخصوص. أولى هذه الوظائف

يشمل الإدراك الحسي الذي يخبر الأنا عن محيطه في المقام الأول. أما الثانية، فتشمل القدرة على التذكر، والمقارنة، والتفكير، طبقاً للعملية الثانوية، التي تتيح مستوى أعلى من المعرفة عن البيئة، أكثر مما يمكن أن توفره الانطباعات الحسية الأولية. والثالثة تتكون من المهارات الحركية والتحكم الحركي، الذي يسمح للفرد بمباشرة التأثير في بيئته المادية بوسائل فعالة. وكما هو متوقع، فإن هذه الوظائف على علاقة متبادلة مع بعضها أكثر من كونها منفصلة عن بعض. فمثلاً، قد تكون المهارات الحركية أساسية في اكتساب الانطباعات الحسية، كما هو الحال في اكتساب الرؤية التجسيمية stereoscopic vision[1]، أو استعمال اليدين في التلمس palpation. وبالإضافة إلى هذه الوظائف المتعددة للأنا، ذات العلاقات المتبادلة، ميزنا وظيفة معينة تلعب دوراً هاماً في علاقة الأنا بالبيئة، سميناها اختبار الواقع (Freud,1911,1923).

ونعني باختبار الواقع قدرة الأنا على التمييز بين المثيرات والمدركات القادمة من العالم الخارجي، من ناحية، وتلك النابعة من رغبات ونزوات الهو، من ناحية أخرى. فإذا كان الأنا قادراً على إنجاز هذه المهمة بنجاح، نقول إن الفرد المعني لديه وعي جيد وكاف بالواقع. أما إذا عجز الأنا عن تنفيذ المهمة، فإننا نقول أن إدراكه للواقع مختل وضعيف.

كيف ينمو الإحساس بالواقع ؟ في اعتقادنا أنه ينمو تدريجياً، مثل وظائف الأنا الأخرى، بنمو الطفل ونضجه عبر فترة طويلة من الزمن. فالطفل، كما نعتقد، غير قادر خلال الأسابيع العديدة الأولى من حياته، على التمييز بين المثيرات القادمة من جسمه

[1]. قدرة الكائن على رؤية الهدف بالعينين معاً في آن واحد. (المترجم)

والدوافع الغريزية وبين تلك القادمة من بيئته. إنه يطور هذه القدرة تدريجياً، بعضها بسبب نضجه العصبي وأعضائه الحسية، وبعضها بسبب عوامل الخبرة.

لقد لفت فرويد (1911) الانتباه إلى حقيقة أن الإحباط هو أحد هذه العوامل الأخيرة، معتبراً إياه ذا أهمية كبرى في نمو اختبار الواقع خلال الأشهر الأولى من الحياة. لقد أشار فرويد، مثلاً، إلى أن الطفل يكتشف ،ولمرات عدة، أن مثيرات معينة هامة للإشباع، مثل تلك التي مصدرها الثدي واللبن، تكون أحياناً غائبة. وكما يتضح للطفل، فإن هذا يحدث حتى ولو كانت المثيرات المعنية مشحونة بانفعال مرتفع Highly Cathected، أي حتى ولو كان الطفل جائعاً.

اعتبر فرويد أن مثل هذه الخبرات من الإحباط المتكرر بطرق مختلفة عبر مرحلة الطفولة، أكثر العوامل أهمية في نمو الإحساس بالواقع. فمن خلال هذه الخبرات المحبطة يتعلم الطفل أن بعض الأشياء في الحياة تأتي وتروح، وأنها يمكن أن تكون غائبة وأن تكون حاضرة أيضاً، وأنها "ليست هنا"، مهما تمنى غير ذلك. هذه إحدى البدايات التي يعرف الطفل من خلالها أن بعض الأشياء (كثدي الأم مثلا) ليست "الذات،" بل " خارج الذات ".

وعلى العكس مما سبق، هناك بعض المثيرات التي لا يستطيع الطفل إبعادها. فمهما رغب الطفل في أن تكون "ليست هنا"، فهي تظل "هنا". هذه المثيرات تنبع من داخل الجسم، وهي بدورها بداية لأدراك أن أشياء مثل (ألم المعدة) ليست خارج الذات، بل "الذات".

واضح أن القدرة على تحديد ما إذا كان شيء ما "ذاتاً" أو "ليس ذاتاً" جزءً من

الوظيفة العامة لاختبار الواقع ندعوه بتأسيس الحدود الثابتة للأنا. والحق أنه قد يكون أقرب إلى الدقة الحديث عن حدود ذاتية أكثر من الحديث عن حدود للأنا، لكن العبارة الأخيرة أصبحت راسخة بقوة في كتابات التحليل النفسي في الوقت الحاضر.

تحت تأثير هذه الخبرات التي عرضناها ينمي أنا الطفل تدريجياً القدرة على اختبار الواقع. ونحن نعرف أن هذه القدرة متحيزة في مرحلة الطفولة، وتختلف في تأثيرها من وقت لآخر. فعلى سبيل المثال، نعلم جيداً ميل الطفل لمعايشة اللعب والخيال وكأنه واقع، على الأقل طالما اللعب مستمر. إضافة إلى ذلك، يجب أن ندرك بأنه حتى في مرحلة الرشد السوية، تتأثر رؤيتنا للواقع دوماً برغباتنا الخاصة، ومخاوفنا، وآمالنا، وذكرياتنا. وهناك القليل منا، إذا وجد أصلاً، من يرى العالم دائماً واضحاً وثابتاً. أما بالنسبة لغالبيتنا العظمى، فإن رؤيتنا للعالم حولنا تتأثر بدرجة ما، قليلاً أو كثيراً، بحياتنا العقلية الداخلية.

ولنأخذ مثالاً بسيطاً نظرتنا إلى الشعوب الأخرى، حينما تكون بلداننا في حالة سلم، وكيف تختلف حينما تصبح بلداننا في حالة حرب، حيث تتحول هذه الشعوب من أناس دمثين ورائعين إلى حقراء وأشرار! ما الذي أدى إلى هذا التغير في تقييمنا لصفاتهم ؟ أعتقد بأن علينا الاعتراف بأن العوامل الحاسمة في إحداث هذا التغير عمليات نفسية داخلية. ومما لاشك فيه أن هذه العمليات النفسية معقدة للغاية، غير أنه يمكن التخمين بسهولة أن واحداً منها، على الأقل، هو تفجر الكره للعدو، والرغبة في إيذائه وتدميره، والشعور بالذنب الناجم عن ذلك، أي الخوف من العقاب والخوف من الانتقام. ونتيجة لهذه المشاعر العنيفة داخلنا يصبح جيراننا السابقون الطيبون أشراراً وحقراء في أعيننا.

إن نقص قدرة أو دقة الأنا في اختبار الواقع ينعكس بالتالي في سيطرة الهو كما بينا للتو. ذلك أيضاً واضح من الاعتقاد الواسع في الخرافات والممارسات السحرية. مع ذلك، يحرز الشخص الراشد عادة درجة كبيرة من النجاح في قدرته على اختبار الواقع، على الأقل في المواقف العادية أو اليومية، وهي قدرة تفقد أو تتضرر بدرجة كبيرة بسبب المرض العقلي الحاد. فالمرضى بمثل هذا المرض يعانون اضطراباً في قدرتهم على إدراك الواقع أكثر حدة مما تعودنا رؤيته عند العصابيين أو الأسوياء. وكمثال على ذلك، يمكن الاستشهاد بحالة المريض عقلياً الذي يعتقد أن أوهامه وهلاوسه حقيقية، بينما ترجع جذورها في الواقع إلى مخاوفه ورغباته الداخلية.

واضطراب إدراك الواقع خاصية مألوفة في أمراض عقلية حادة عديدة لدرجة أنه أصبح معياراً تشخيصياً لها. وتؤكد لنا النتائج الخطيرة لمثل هذا الاضطراب أهمية القدرة على إدراك الواقع بالنسبة للأنا في دوره السوي كمنفذ لرغبات الهو. فالإحساس السليم بالواقع يساعد الأنا على التصرف في البيئة بشكل فعال لصالح الهو. إنه شيء مفيد إذن للأنا حينما يتحالف مع الهو في محاولة استغلال البيئة لغرض الإشباع.

لنفحص الآن المظهر الآخر لدور الأنا كوسيط بين الهو والبيئة الذي ننوي بحثه في هذا الفصل. في هذا الجانب نجد الأنا مؤجلاً وكابحاً وعائقاً لتصريف طاقات الهو أكثر منه مشجعاً وميسراً لهذا التصريف.

تشير العلاقة بين الأنا والهو، كما نفهمها، إلى أن قدرة الأنا على التحكم في تصريف طاقات الهو هي في المقام الأول شيء ضروري وقيم للاستغلال الفعال للبيئة، كما بينا

سابقاً. فإذا كان في إمكان الفرد الانتظار قليلاً يمكنه غالباً تجنب بعض نتائج الإشباع المؤلمة، أو زيادة المتعة الممكن إحرازها. وكمثال بسيط على ذلك، يمكن للطفل ذي العام ونصف العام تجنب التوبيخ إذا استطاع الأنا تأجيل التبول حتى وصول الطفل إلى الحمام، في نفس الوقت الذي يحوز فيه الرضا بسبب المديح والثناء. إضافة إلى ذلك، سبق أن لاحظنا أن بعض التأجيل لتصريف طاقة الدافع ضروري لتطور العملية الثانوية وعملية التفكير الثانوي، التي هي بكل تأكيد شيء ثمين للأنا في استثماره للبيئة.

تؤدي عملية نمو الأنا، إذاً، إلى درجة معينة من التأجيل لتصريف طاقات الهو، ومستوى معين من تحكم الأنا في الهو. لقد عبرت آنا فرويد (a1954) عن هذا الجانب من العلاقة بين الأنا والهو بمقارنتها بالعلاقة بين المواطن والأداة المدنية في الدولة الحديثة، حيث أشارت إلى أنه في المجتمع المعقد يجب على المواطن أن يفوض كثيراً من المهام إلى موظفين مدنيين إذا رغب في إنجازها بكفاءة لمنفعته الخاصة. استحداث الإدارة المدنية، إذاً، لفائدة المواطن، وتجلب له منافع كثيرة يسعد بالاستمتاع بها، ولكنه في نفس الوقت، يكتشف لها مساوئ معينة أيضاً. فالإدارة الحكومية بطيئة جداً في تلبية حاجات المواطن الخاصة، ولديها أفكارها الخاصة حول ما هو الأفضل له، وهي أفكار لا تتوافق دائماً مع ما يريده في اللحظة الحاضرة. وبنفس الطريقة، قد يفرض الأنا تأجيلاً لدوافع الهو، وقد يدعي اعتراض البيئة عليها، وقد يخصص عن طريق التحييد بعض طاقة الدوافع لاستعماله الخاص.

يمكن أن نتوقع مما عرفناه حتى الآن عن العلاقة بين الأنا والهو أن العلاقة بين الأنا والبيئة لن تكون قوية بشكل كاف لدفع الأنا لمعارضة جادة أو طويلة لمطالب الهو الغريزية. قلنا

مراراً أن علاقة الأنا بالواقع هي أساساً لخدمة الهو، ويجب أن نتوقع لذلك أنه في حالة أي صراع حقيقي بين رغبات الهو والواقع البيئي، فإن الأنا سوف يتحالف بقوة مع الهو.

مع ذلك، فإن ما وجدناه يختلف نوعاً ما عن توقعاتنا، فقد عرفنا أن الأنا قد ينظم نفسه ضد الهو في ظروف معينة، وقد يعارض بشكل مباشر تصريف طاقات الهو الغريزية. هذه المعارضة من الأنا للهو لا تظهر بوضوح إلا بعد توفر درجة معينة من التطور والتنظيم لوظائف الهو، لكن بداياتها لن تتأخر عن نهاية السنة الأولى من العمر. والمثال البسيط على هذه المعارضة هو رفض الأنا لرغبة قتل الأخ. فكما نعلم، يتصرف الأطفال الصغار غالباً وفقاً لما يشبه هذه الرغبة فيهاجمون إخوتهم، ولكن مع مرور الوقت، وتحت ضغط الرفض والاستهجان من البيئة يعترض الأنا أخيراً، ويرفض رغبة الهو هذه لدرجة تبدو وكأنها أخيراً توقفت عن الوجود. ففيما يتعلق بالسلوك الظاهري على الأقل، فقد انتصر الأنا وتم التخلي عن رغبة القتل.

وهكذا نرى أنه رغم أن الأنا، في المقام الأول، هو المنفذ لرغبات الهو، ويستمر كذلك في جوانب عديدة مدى الحياة، إلا أنه يبدأ في ممارسة درجة متزايدة من التحكم في الهو في وقت مبكر من الحياة، ويصبح تدريجياً معارضاً لبعض تطلعات الهو، وحتى في صراع مفتوح معها. وبدلاً من كونه الخادم الأمين والمطيع للهو في كل جانب، يصبح الأنا في جزء منه المعارض للهو وحتى سيده. غير أنه يجب أن يثير هذا التعديل لتصورنا لدور الأنا بعض التساؤلات التي تستحق الإجابة. كيف يمكننا تفسير أن الأنا، وهو جزء من الهو ابتدأ خادماً لدوافعه، يصبح إلى حد ما سيده ؟ أيضاً، ما هي الوسائل الخاصة التي يستخدمها الأنا بنجاح

من أجل الإبقاء على نزوات الهو تحت المراقبة؟

تكمن إجابة السؤال الأول إلى حد ما في طبيعة علاقة الطفل بمحيطه، وفي خصائص نفسانية معينة في العقل البشري. بعض هذه الخصائص جديد، وبعضها الآخر مألوف لنا من قبل من خلال مناقشتنا السابقة، وما يجمعها جميعاً هي علاقتها بأداء الأنا لوظائفه.

أولاً فيما يتعلق بالبيئة. نحن نعلم أن محيط الطفل، أو بالأحرى، تلك الأجزاء من محيطه ذات دلالة بيولوجية خاصة بالنسبة له. فبدون هذه الأجزاء، التي هي في البداية أمه ثم كلا الأبوين فيما بعد، لا يمكن للطفل أن يبقى على قيد الحياة. لذلك، ليس غريباً أن يوازي الاعتماد الجسماني الطويل والاستثنائي للطفل البشري على والديه اعتماده النفسي عليهما. وبسبب اعتماد الطفل، كما رأينا، في معظم مصادر متعته على والديه، يمكن أن تصبح الأم، مثلاً، شيئاً هاماً في بيئة الطفل، حتى أنه في حالة الصراع بين مطالب الأم ورغبات الهو المباشرة للطفل، فإن الأنا سوف يقف مع مطالب الأم ضد رغبات الهو. علي سبيل المثال، إذا منعت الأم التعبير عن النزوة التخريبية، كتمزيق صفحات الكتاب مثلاً، فإن الأنا سينحاز غالباً إلى جانب الأم ضد الهو.

هذا الجزء من الإجابة سهل الاستيعاب، ولا يتطلب مناقشة فنية واسعة. لكن بانتقالنا لباقي الإجابة سيكون علينا بحث أكثر من عامل، وبشكل موسع.

يلزمنا، أولاً وقبل كل شيء، إعادة التأكيد على أن تكون الأنا وأدائه لوظائفه يتطلب طاقة تأتي كلها ،أو يأتي معظمها، من الهو. ومالم نفترض أن الهو مستودع لا ينضب من الطاقة النفسية، فإنه يلزمنا الاستنتاج بأن مجرد وجود الأنا وقيامه بوظائفه يعني خفضاً في كمية

طاقة الدافع عند الهو. فبعض هذه الطاقة يستنفد في تكوين الأنا وتشغيله. وفعلاً، إذا نظرنا لمن حولنا فسنخرج بانطباع بأن بعضهم، خاصة ذوي العواطف الجامدة، لم يبق لديهم هو، وأن كل طاقتهم النفسية استنفدت في تكوين الأنا، رغم معرفتنا بأن مثل هذه الحالة المتطرفة مستحيلة. النقطة الهامة، هي أن نمو الأنا يترتب عليه حتماً إضعاف الهو. ويمكن القول وفقاً لوجهة النظر هذه أن الأنا ينمو كالطفيلي على حساب الهو، وأن ذلك قد يسهم بدرجة ما في أن يكون الأنا في النهاية قوياً بما فيه الكفاية كي يصبح إلى حد ما سيد الهو، بدلاً من أن يبقى وللأبد خادماً له، مع أنه وكما أوضحنا سلفاً، يبدو مستبعداً قدرة هذا التعليل على التفسير الكامل لهذه النتيجة.

قد يكون من المفيد أن ننوه عند هذه النقطة بالعمليات المتعددة، ذات الأهمية في تكون الأنا وفي أدائه لوظائفه، والتي تساهم بشكل هام في تناقص الطاقة النفسية للهو وزيادتها عند الأنا.

إحدى هذه العمليات، التي تعتبر جزءاً هاماً في نمو الأنا، وتعمل بالطريقة التي وصفناها الآن، هي تحييد طاقة الدافع، حيث تؤدي عملية المسخ هذه، والتي وصفناها مطولاً في الفصل الثالث، إلى خفض الطاقة الليبيدية والعدوانية للهو وزيادة الطاقة المتوفرة للأنا.

العامل الآخر، الذي نعرف أهميته في تطور الأنا، ويلعب دوراً هاماً في تحويل الطاقة النفسية من الهو إلى الأنا، هو التوحد. بحثنا التوحد في الفصل الثالث، ويذكر القارئ أنه يتكون أساساً من أن الفرد يصبح شبيهاً لموضوع (شيء أو شخص) من العالم الخارجي، ذا

أهمية نفسية بالنسبة له، أي مشحوناً شحناً انفعالياً عاليا بطاقة الدافع.

وكما مر بنا، يؤدي "التحول إلى شبيه" إلى تغير في الأنا؛ وأحد نتائج هذا التغير أن كل الشحنات الانفعالية المرتبطة سابقاً بموضوع خارجي، تصبح مرتبطة، بدلاً من ذلك، بنسخة ذلك الموضوع في الأنا. وتساهم بعض طاقة الهو الموصولة الآن بجزء من الأنا في إثراء الطاقات المتوفرة للأنا على حساب الهو، ومن ثم تقوية الأنا في مقابل الهو.

تبقى طريقة أخرى، تستحق انتباهنا، يتم بواسطتها إضعاف مطالب الهو، وبذلك يصبح أكثر عرضة لسيطرة الأنا، وهي عملية الإشباع الخيالي. ومن المدهش، رغم كونه حقيقة شائعة، أن الخيال، سواء أكان أحلام نوم أو أحلام يقظة، والذي تعرض فيه رغبات الهو وكأنها تحققت، يؤدي فعلاً إلى إشباع جزئي لنزوات الهو وتفريغ جزئي لطاقاته. وهكذا، على سبيل المثال، قد يحلم العطشان بارتواء ظمئه، ويشعر بارتياح تام عن طريق الحلم، لذلك يستمر نائماً، حتى لو كان صنبور الماء موجوداً في مكان آخر.

من الواضح أن الخيال، حتى من خلال التأمل البسيط، يلعب دوراً هاماً للغاية في حياتنا العقلية؛ ولا نرغب في الوقت الحالي حتى في مجرد رسم مخطط تمهيدي للأهمية العامة لوظيفة الخيال. وما نريده فقط هو أن نشير إلى أن أحد تأثيرات الخيال ربما يكمن في أن نزوة الهو تصبح مشبعة تقريباً، لدرجة تُسهِل على الأنا ضبطها والتحكم فيها فيما بعد، وأن الخيال لذلك يمكنه لعب دور في تهيئة الأنا للسيطرة على جزء من الهو. ونضيف بأن هذه الخيالات تحدث باستمرار في الحياة العقلية السوية.

نأتي الآن إلى الخاصية النفسية الأخيرة، التي نود مناقشتها لكونها تلعب دوراً في

مساعدة الأنا كي يصبح، إلى حد ما، سيداً للهو، ومن المحتمل أن تكون هذه الخاصية هي الحاسمة في الموقف كله، والمسئولة حقاً عن قدرة الأنا على معارضة وإخضاع نزوات الهو إلى حد ما وفي أوقات معينة. إنها النزعة الإنسانية في إظهار القلق تحت ظروف معينة. هذه النزعة التي لا تتطلب فقط مناقشة فنية مطولة لتوضيحها، بل تمهيداً وافياً أيضاً، حيث لا يمكن فهم نظرية التحليل النفسي عن القلق دون عرض لما يسميه فرويد (1911) بمبدأ اللذة.

يعني مبدأ اللذة، ببساطة، أن العقل يميل إلى العمل بطريقة تؤمن له اللذة وتجنبه الألم، والكلمة الألمانية التي استخدمها فرويد للتعبير عن نقيض اللذة هي unlust، التي تترجم غالباً بمعنى (ألم)، لذلك يطلق على مبدأ اللذة أحياناً مبدأ اللذة والألم. ومع ذلك، فخلافاً للكلمة الألمانية، تعبر كلمة ألم (pain) الإنجليزية عن الإحساس الجسماني بالألم ونقيض اللذة في آن واحد، وتجنباً للغموض فقد اقترح أكثر من مترجم استخدام كلمة كدر (unpleasure) الغريبة إلى حد ما، ولكن الواضحة، بدلاً من كلمة ألم.

أضاف فرويد إلى مفهوم مبدأ اللذة فكرة أنه في بداية العمر يكون الميل نحو تحصيل اللذة ملحاً وعاجلاً، وأن الفرد يكتسب القدرة على تأجيل اللذة تدريجياً مع تقدم العمر.

والآن، فإن مفهوم مبدأ اللذة يبدو شبيهاً للغاية بمبدأ العملية الأولية الذي بحثناه في الفصل الثالث. وفقاً لمبدأ اللذة، يوجد ميل لتحصيل اللذة وتجنب الكدر، وهذا الميل لا يتحمل التأجيل في بداية العمر، وطبقاً للعملية الأولية، يجب تفريغ الشحنات الانفعالية لطاقة الدافع بأسرع ما يمكن، ونحن نفترض أن هذه العملية هي المسيطرة على الوظائف العقلية في أوائل العمر. أكد فرويد، إضافة إلى ذلك، أنه فيما يتعلق بمبدأ اللذة يلاحظ تزايد

تدريجي مع تقدم العمر في مقدرة الفرد على تأجيل تحصيل المتعة وتجنب غيابها. وفيما يختص بالعملية الأولية فقد استنبط فكرة أن تطور العملية الثانوية، وزيادة أهميتها النسبية، تسمح للفرد بتأجيل تصريف الشحنات الانفعالية كلما تقدم به العمر.

لذلك، يتطابق مفهوم فرويد المبكر حول مبدأ اللذة، في معظم خصائصه، مع مبدئه المتأخر عن العملية الأولية. والفرق الجوهري بينهما، كما يمكن تمييزه من المصطلحات، هو أن مبدأ اللذة صيغ بمصطلحات ذاتية، بينما صيغ مفهوم العملية الأولية بمصطلحات موضوعية. يعني، تشير كلمة لذة وكدر إلى ظواهر ذاتية، في هذه الحالة إلى الانفعال؛ بينما تشير عبارات "تصريف الشحنات الانفعالية" أو "تصريف الطاقة الغريزية" إلى الظواهر الموضوعية لتوزيع وتصريف الطاقة، في هذه الحالة داخل الهو. ووفقاً لنظريتنا، فالوجدان ظاهرة للأنا، مهما اعتمد في تكوينه على عمليات داخل الهو.

كان فرويد على دراية تامة بالتشابه الكبير بين صياغة كل من مبدأ اللذة وصياغة ذلك الجانب من وظائف الهو الذي سماه بالعملية الأولية. ولقد حاول في الواقع توحيد المفهومين، ولكن شعوره بفشل محاولته يحتم علينا في هذا الموضع مناقشة الفرضيتين بشكل منفصل.

ارتكزت محاولة توحيد المفهومين على أساس افتراضي بسيط للغاية، وهو أن زيادة مقدار الشحنات الانفعالية غير المفرغة المتحركة داخل الجهاز العقلي تسبب شعوراً بالكدر، بينما يؤدي تصريف مثل هذه الشحنات، مع التناقص الموازي لمقدارها المتبقي، إلى شعور باللذة. يمكن القول ببساطة، ولكن بأقل قدر من الدقة، أن فرويد (1911) افترض أصلاً أن

زيادة التوتر النفسي يؤدي إلى الكدر، بينما يؤدي نقصه إلى اللذة. فإذا كان هذا الافتراض صحيحاً، فإن كلا من مبدأ اللذة والعملية الأولية مجرد تعابير مختلفة للدلالة على نفس الشيء.

يمكن شرح الفكرة السابقة على النحو التالي: ينص مبدأ اللذة على وجود ميل عند كل طفل لإشباع اللذة لا يمكن تأجيله. وتنص العملية الأولية على وجود ميل لدى كل طفل لتفريغ الشحنات، أي على تفريغ طاقة الدافع التي قد يتعذر تأجيلها. غير أنه طبقاً لفرضية فرويد الأصلية، فإن لذة الإشباع قد تكون أحد مظاهر تفريغ الشحنات. لذلك، إذا كان هذا الافتراض صحيحاً، فإن كلتا الصيغتين تعنيان نفس الشيء، وأن مبدأ اللذة والعملية الأولية مجرد صيغتين بديلتين لنفس الفرضيات.

وبسبب ما نحمله من ميل طبيعي لتبسيط نظرياتنا، فقد توصل فرويد (1924 c) إلى أنه رغم أن اللذة تصاحب، في معظم الحالات، تصريف الطاقة النفسية المتحركة بينما ينشأ الكدر عن تراكم مثل هذه الطاقة، فإنه توجد حالات هامة لا ينطبق عليها ذلك. بل إنه أشار إلى وجود حالات العكس فيها هو الصحيح. وقد أشار كمثال على ذلك، إلى ما يؤدي إليه زيادة التوتر الجنسي من إحساس باللذة حتى نقطة معينة.

لذلك، كان قرار فرويد النهائي أن العلاقات بين ظواهر كل من تراكم وتصريف طاقة الدافع المتحركة من جهة، وانفعالات اللذة والكدر من جهة أخرى ليست علاقات محددة ولا بسيطة، قدم فرويد افتراضاً واحداً، وهو أن إيقاع ومعدل تزايد أو تصريف الشحنات النفسية قد يكون عاملاً حاسماً، وترك الأمر عند هذا الحد. وقد جاءت محاولات

تالية لبناء فرضيات مقنعة حول العلاقة بين اللذة وتراكم وتصريف طاقة الدافع، لكن لا أحد منها حظي بقبول كاف يبرر عرضه هنا (Jacobson,1953).

والنتيجة المستخلصة من هذه الحقائق هي أننا غير قادرين حتى الآن على صياغة مقبولة لمبدأ اللذة وفق المفاهيم الأخيرة التي تتعامل أساساً مع الطاقة النفسية. لذلك، يلزمنا التمسك بالتفسير السابق المصاغ وفقاً لمصطلحات الخبرات الذاتية من اللذة والكدر : يسعى العقل، أو الفرد في حياته العقلية، لتحصيل اللذة وتجنب الكدر.

إن سبب تقديمنا لمناقشة مبدأ اللذة هنا، كما يذكر القارئ، كان لتمهيد السبيل أمام موضوع القلق، الذي سنناقشه الآن، وسوف يتجلى من خلال مناقشتنا أهمية مبدأ اللذة في نظرية التحليل النفسي عن القلق.

ينشأ القلق، حسب نظرية فرويد الأصلية، من الكبح والتصريف غير الكاف لليبيدو. وسواء أكان التراكم الشاذ لليبيدو داخل النفس ناجماً عن معوقات خارجية لتصريفه بشكل ملائم (Freud,1895)، أو كان راجعاً لمعوقات داخلية، مثل الصراعات اللاشعورية، أو كبح الإشباع الجنسي - كل ذلك لا أهمية له من وجهة نظر نظرية القلق. لم تشرح النظرية كيف يحدث التحول، ولا ما هي العوامل التي تحدد الوقت الدقيق لحدوثه. لكن من المهم ملاحظة أنه وفقاً لهذه النظرية يعبر مصطلح "قلق" عن نمط مرضي من الخوف له علاقة ظاهرة phenomenologically بالخوف السوي من الخطر الخارجي، غير أن جذوره مختلفة تماماً. فالخوف من خطر خارجي رد فعل متعلم، أي رد فعل قائم على الخبرة، بينما القلق تحول ليبيدي، أي تحل مرضي لطاقة الدافع.

كان هذا موقف نظرية التحليل النفسي من القلق حتى عام 1926، عندما نشر فرويد مقالة سماها، في الترجمة الأمريكية، مشكلة القلق، وأطلق عليها في الترجمة الإنجليزية الكف، والأعراض، والقلق. أشار فرويد في هذه المقالة إلى أن القلق هو المشكلة المركزية في العصاب، واقترح نظرية جديدة للقلق ترتكز على الفرضيات البنائية التي سوف نلخصها الآن.

لكن قبل القيام بذلك، فإن مما يستحق إشارة خاصة، الصلة الوثيقة بين موضوع بحث الكف والأعراض والقلق، أي نظرية فرويد الثانية عن القلق، وبين العاملين المبكرين اللذين أشرنا إليهما باستمرار في الفصلين الثاني والثالث: ما وراء مبدأ اللذة، والأنا، والهو. تحوي هاتان المقالتان المفاهيم الأساسية التي تميز نظرية التحليل النفسي المعاصرة عما قبلها. هذه المفاهيم هي النظرية الثنائية للدوافع والفرضيات البنائية. إنها تتيح فهم الظواهر العقلية بطريقة أكثر اتساقاً ووضوحاً مما كان عليه الأمر في السابق، بالإضافة إلى فهم علاقاتها المتبادلة المعقدة. مهدت النظريات الجديدة السبيل أيضاً لتطورات هامة في التطبيقات الإكلينيكية للتحليل النفسي والمثال البارز على ذلك هو ظهور تحليل الأنا ومجمل ميدان علم نفس الأنا التحليلي psychoanalytic ego psychology.

كتب فرويد العديد من الأبحاث التي أوضح فيها كيف يمكن تطبيق النظريات الجديدة بشكل مثمر في العلاج (Freud , 1924b , 1924c , 1924d , 1926). ويعتبر مقال الكف والأعراض والقلق أكثر الأمثلة أهمية عن مثل هذا الاستخدام المثمر، ففي هذا المقال طور فرويد نظرية للقلق يمكن تطبيقها إكلينيكياً، قائمة على الاستبصار المرتكز على

الفرضيات البنائية.

يجب أن ندرك أولا قبل محاولة فهم النظرية الجديدة أن فرويد اعتبر أن أصول القلق بيولوجية موروثة. بمعنى أن الكائن البشري مهيئاً منذ الولادة بإمكانية استجابة تتصف بمظاهر جسمانية ونفسية نسميها القلق. وقد أشار فرويد إلى أنه في الإنسان، كما في الحيوانات الدنيا، فإن لهذه المقدرة قيمة واضحة في بقاء الفرد على قيد الحياة، على الأقل في حالته البدائية. إن دمار الإنسان سوف يكون محتوماً إذا كان، ودون حماية من والديه، لا يمكن إخافته بأي شيء.

ما حاول فرويد إيضاحه في نظريته عن القلق، إذن، ليس طبيعة ولا أصل القلق، بل مكانته وأهميته في الحياة النفسية للإنسان. وكما سوف نلاحظ، فقد احتوت الصياغات المبكرة، التي تضمنها مقال الكف والأعراض والقلق، جزءاً من أفكاره المبكرة، بينما تجاوزها في جزء آخر.

إضافة إلى ذلك، فإن جزءاً هاماً من نظريته المبكرة تم هجره بالكامل: فقد تخلى كلية عن فكرة أن عدم تصريف الليبيدو undischarged libido يتحول إلى قلق. وقد قام فرويد بهذه الخطوة على أسس إكلينيكية، وبرهن على صدق موقفه الجديد ببحث تفصيلي لحالتين من مخاوف الطفولة.

اقترح فرويد في نظريته الجديدة ربط ظهور القلق بما يسميه "مواقف الصدمة" و"مواقف الخطر". فالأولى، تعني موقفاً أُجهِدَت فيه النفس من جراء تدفق مثيرات كثيرة، لا يمكنها السيطرة عليها أو تصريفها، واعتقد فرويد أنه حينما يحدث هذا يظهر القلق تلقائياً.

وبما أن جزءاً من وظيفة الأنا هو السيطرة على المثيرات القادمة وتفريغها بشكل فعال، فإن من المتوقع حدوث المواقف الصادمة بشكل أكثر خلال السنوات والأشهر الأولى من العمر، حينما يكون الأنا مازال ضعيفاً وغير مكتمل. وقد اعتبر فرويد أن النموذج الأولي لصدمة الموقف هي خبرة الميلاد، كما يتأثر بها المولود الجديد، إذ أنه في ذلك الوقت يتعرض الطفل لتدفق مرهق من المثيرات الحسية الداخلية والخارجية، ويستجيب لها بما يعتبره فرويد مظاهر للقلق.

يرجع اهتمام فرويد الرئيسي بالميلاد كموقف صدمة مصحوب بالقلق إلى كونه يمكن النظر إليه كنموذج أولي لمواقف صادمة متأخرة، ذات مدلول نفساني أكبر، وبهذا الشكل حقق انسجاماً رائعاً مع أفكاره الجديدة إلى حد بعيد. حاول أوتو رانك (1924) استخدام فكرة فرويد هذه علاجياً، وبطريقة أكثر جرأة مما فعله فرويد، واقترح الفكرة القائلة بأن كل حالات العصاب يمكن إرجاعها إلى صدمة الميلاد، ويمكن شفاؤها عن طريق إعادة بناء مكونات الصدمة من جديد، وجعل المريض واعياً لها. أدت نظريات أوتو رانك أول صدورها إلى ضجة كبيرة بين المحللين النفسانيين، غير أنها الآن أهملت وتم التخلي عنها تماماً.

أعطى فرويد اهتماماً كبيراً في مقاله لمواقف الصدمة التي تحدث بعد الميلاد أثناء الطفولة المبكرة، وقد اختار الموقف التالي مثالاً على ذلك: يعتمد الطفل الصغير على أمه، ليس فقط في إشباع معظم حاجاته الجسمانية، بل أيضاً في الإشباع الغريزي الذي يكتشفه الطفل في الأشهر الأولى من حياته من خلال علاقته بالإشباع الجسماني. وهكذا، حينما يرضع الطفل، على سبيل المثال، لا يشبع فقط جوعه، بل يختبر في نفس الوقت أيضاً اللذة

الغريزية المرتبطة بالإثارة الفمية، بالإضافة إلى لذة كونه محمولاً ودافئاً ومدللاً. ولا يستطيع الطفل قبل سن معينة تحصيل هذه اللذات، أي هذا الإشباع الغريزي بنفسه، لذا يحتاج إلى أمه حتى يمكنه فعل ذلك. ويظهر الموقف الصادم للطفل بالمعنى الذي حدده فرويد، إذا شعر الطفل في غياب أمه بحاجة غريزية يمكن إشباعها فقط عن طريق الأم. فأنا المولود لم تنمو بشكل كاف، يمكنها من تأجيل الإشباع عن طريق كف رغبات الدافع وتعطيلها مؤقتاً، وبدلا من ذلك تُجهَد نفس الطفل بتدفق المثيرات. وبما أن الطفل لا يمكنه السيطرة على هذه المثيرات ولا تصريفها بشكل مرض، تظهر عنده.

ومما يستوجب الملاحظة في مثالنا، وفي الحالات الأخرى المشابهة، هو أن فيض المثيرات المسبب لهذا النمط البدائي واالتلقائي من القلق ذو مصدر داخلي، وينبع بشكل محدد من عملية الدوافع، أو بشكل أكثر دقة من الهو. لهذا السبب يشار عادة إلى القلق التلقائي ب"قلق الهو." غير أن هذا الاسم نادراً ما يستخدم اليوم، لأنه أدى إلى فكرة خاطئة، وهو أن الهو محل هذا النوع من القلق. والواقع أن فكرة فرويد المضمنة في الفرضيات البنائية هي أن الأنا محل كل الانفعالات. فالشعور بأي انفعال، وفقاً لما يراه فرويد، هو وظيفة الأنا، وهذا بالطبع يجب أن يصدق على القلق أيضاً. والذي صعب من الاعتقاد الخاطئ بأن الهو مستودع القلق المستحدث تلقائياً وجود الأنا كمكون متميز، فما بالك ببناء متماسك عند هذه المرحلة المبكرة من العمر كتلك التي أشار إليها مثالنا في الفقرة السابقة. فالأطفال المواليد، كما سبق القول، يحوزون فقط على بدايات الأنا، وحتى الجزء البسيط، الذي بدأ يتخلق عن باقي الهو، مازال تمييزه عنه صعباً. مع ذلك، فأي أنا يمكن تمييزه لدى هؤلاء

الأطفال الصغار يشكل موقعاً للقلق.

اعتقد فرويد أيضاً بأن ميل الجهاز النفسي للاستجابة لتدفق مخصوص من المثيرات بالطريقة الموصوفة سابقاً، أي بواسطة إظهار القلق، يدوم مدى الحياة. بمعنى آخر، قد يظهر موقف الصدمة، بمعناه الخاص عند فرويد، عند أي عمر. وبدون شك، سوف تظهر مثل هذه المواقف بشكل أكثر في الحياة المبكرة للسبب الذي ذكرناه سابقاً، وهو أن الأنا ما يزال غير ناضج بعد، إذ أنه كلما تطور الأنا بشكل أفضل، أصبح أكثر سيطرة وقدرة على تصريف المثيرات القادمة، سواء أكانت من مصادر داخلية أم خارجية. وكما يذكر القارئ فإن الموقف سوف يصبح صادماً ويظهر القلق عندما يتعذر تصريف المثيرات أو السيطرة عليها بشكل كاف.

إذا كان فرويد محقاً في افتراضه بأن الولادة تشكل نموذجاً لمواقف الصدمة المتأخرة، إذن تعتبر خبرة الميلاد مثالاً لموقف صادم في مرحلة الطفولة سببه الأساسي مصدر خارجي. وفي حالات أخرى، تنشأ المثيرات المؤلمة أساساً من الدوافع، يعني أن مصدرها داخلي، كما هو الحال مع الطفل الذي لم تكن أمه موجودة لتمده بالإشباع الذي يطلبه الهو، والذي يمكنها هي فقط توفيره.

وحسب ما نعلم، فإن مواقف الصدمة الناجمة عن مطالب الهو هي الأكثر شيوعاً وأهمية في الحياة المبكرة. وقد تصور فرويد أن هذه المواقف أيضاً تظهر في الحياة المتأخرة، في تلك الحالات التي صنفها كعصاب قلق حقيقي (أنظر الفصل الثامن)، حيث القلق الذي يعاني منه هؤلاء المرضى يرجع في الحقيقة إلى التدفق المجهد للمثيرات، النابع من طاقة الغريزة

الجنسية التي لم تُفرَّغ، بشكل كاف ،بسبب العراقيل الخارجية.

مع ذلك، فالأهمية العملية لهذا الافتراض، خاصة ما قدمه فرويد، أهمية ضعيفة نسبياً، إذ أن تشخيص العصاب الحقيقي، إن حدث، فهو نادر. وعلى أي حال، فقد احتل استخدام آخر لنفس الفكرة الأساسية أهمية إكلينيكية أكبر، وأعني بذلك الافتراض بأن ما يسمى بعصاب الصدمة في حياة الكبار، كعصاب المعركة وما يسمى بصدمة القذيفة مثلاً، ناجم عن تدفق مرهق لمثيرات خارجية أدت تلقائياً إلى القلق. لقد أثار فرويد هذا الاحتمال، وخيل لمؤلفين عديدين فيما بعد أن ذلك صحيح، أو أن فرويد اعتقد صحته. لكن الواقع هو أن فرويد (1926) عبر عن رأيه في أن عصاب الصدمة لا يمكنه على الأرجح أن يظهر بمثل هذه الطريقة البسيطة دون ما يسميه " مشاركة الطبقات الأعمق من الشخصية".

يشكل مفهوم فرويد حول المواقف الصادمة، والتطور التلقائي للقلق في مواقف الصدمة، ما يمكن أن ندعوه بالجزء الأول من نظريته الجديدة عن القلق. إنه الجزء الأقرب لنظريته السابقة، رغم اختلافه الجوهري عنها فيما يتعلق بنشوء القلق. فالقلق ينشأ، كما يذكر القارئ، وفقاً لوجهة نظر فرويد المبكرة من تحول الليبيدو، بينما يظهر القلق حسب وجهة نظره الأخيرة كنتيجة لتدفق غامر من المثيرات التي قد تنشأ أو لا تنشأ عن الدوافع.

نستطيع الآن إيجاز الجزء الأول من نظرية فرويد الجديدة فيما يلي:

1. يظهر القلق تلقائياً كلما غُمِر العقل بتدفق غزير من المثيرات يتعذر تصريفه أو السيطرة عليه.
2. هذه المثيرات قد تكون داخلية أو خارجية، ولكنها غالباً تنبع من الهو، أي من الدوافع.

3. حينما ينشأ القلق تلقائياً وفق هذا النمط، يسمى الموقف موقف صدمة.

4. أنموذج هذه المواقف الصادمة هو الميلاد.

5. القلق التلقائي خاصية لمرحلة الطفولة، بسبب ضعف وعدم نضج الأنا في هذه المرحلة من العمر، وهو أيضا موجود في مرحلة الرشد فيما يسمى بحالات عصاب القلق الحقيقي.

أما مضمون الجزء الثاني من النظرية الجديدة فهو أن الطفل يتعلم، أثناء طور النمو، توقع حدوث موقف الصدمة والاستجابة له بالقلق قبل أن يصبح صادماً، وقد سمى فرويد هذا النوع من القلق بقلق الإشارة، حيث ينشأ عن موقف خطر حقيقي أو متوقع. ومن وظائف الأنا خلق هذا النوع من القلق، الذي يفيد في تعبئة القوى تحت سيطرة الأنا لمواجهة أو تجنب موقف الصدمة المتوقع.

ولتوضيح معنى عبارة "موقف خطر"، عاد فرويد إلى مثال الطفل الذي تركته أمه وحيداً، فإذا ما ألحت على الطفل حاجة، وهو بمفرده، وتطلب إشباع هذه الحاجة وجود الأم، فسيصبح الموقف صادماً وينشأ القلق تلقائياً، لقد حاول فرويد البرهنة على أنه، بعد بلوغ الطفل مرحلة معينة من النمو، فإن الأنا سوف يدرك العلاقة بين مغادرة الأم وظهور حالة مؤلمة من القلق التلقائي، الذي يظهر عادة إثر غيابها أو مغادرتها. بمعنى آخر، سوف يعرف الأنا أنه لن يظهر القلق إذا كانت الأم موجودة، بينما قد يظهر في حال مغادرتها. والنتيجة أن الأنا سوف يتوصل إلى اعتبار الانفصال عن الأم "موقف خطر"؛ وهذا الخطر يتمثل في ظهور طلب ملح للإشباع من جهة الهو عند غياب الأم، مع ما يتبعه من تطور

منطقي في نشوء الموقف الصادم.

ماذا يفعل الطفل في مثل هذا الموقف الخطر؟ إن جزءاً مما يفعله مألوف لدى كل واحد له خبرة مع الأطفال، حيث يحاول الطفل منع أمه من الذهاب، أو استدعاءها إذا غادرت، وذلك باستخدام تعابير تدل على الضيق والانزعاج، غير أن فرويد كان أكثر اهتماماً بما يجري داخل نفس الطفل منه بنشاطات الأنا المختلفة، التي يقصد بها التأثير على البيئة مهما كانت أهميتها، ألمح فرويد إلى أنه في موقف الخطر يتفاعل الأنا مع القلق الذي يغذي نفسه بنشاط، مقترحاً تسميته بقلق الإشارة، طالما أنه يصدر عن الأنا كإشارة تدل على الخطر. ولكن قبل أن نتابع، كيف يمكن للأنا إنتاج القلق، سواء كإشارة أو لأي غرض آخر؟ تعتمد إجابة هذا السؤال على تذكرنا أن الأنا في النهاية مجموعة من الوظائف المترابطة. ففي أي موقف خطر، يختص جزء من هذه الوظائف، في اعتقادنا، بالتعرف على الخطر، على سبيل المثال، الإدراك الحسي، والذاكرة، وشكل ما من عملية التفكير، بينما تختص أجزاء أخرى من الأنا، أو وظائف أخرى للأنا، بالاستجابة للخطر بالقلق. ويمكننا أن نفترض من واقع خبرتنا الإكلينيكية أن إدراك الخطر يؤدي إلى تخيل للموقف الصادم، وهذا التخيل يؤدي إلى قلق الإشارة. وسواء أكان هذا الافتراض صحيحاً أم لا، فإنه يمكننا القول بأن بعض وظائف الأنا مسئول عن إدراك الخطر، والبعض الآخر مسؤول عن الاستجابة له بالقلق.

لنواصل الآن مع فرويد عرضه لما يحدث عندما يدرك الأنا موقفاً خطراً ويستجيب له بقلق الإشارة، إذ عند هذه النقطة يدخل مبدأ اللذة إلى الصورة. قلق الإشارة مؤلم، ويزداد

الألم بزيادة حدة القلق. ويمكننا أن نفترض بأنه، وإلى حد ما، تتناسب حدة القلق مع تقدير الأنا لشدة الخطر أو لوقوعه الفوري أو للاثنين معاً. لذلك نتوقع أنه في أي موقف شديد الخطورة يكون الألم والقلق كبيرين أيضاً، ثم يُفعِّل الألم تلقائياً ما يسميه فرويد بمبدأ اللذة كلي القوة all-powerful' pleasure principle.'' إن تفعيل مبدأ اللذة هو الذي يمنح الأنا القوة الكافية لفحص ظهور أو استمرار نشاط أي نزعات للهو قد تكون أدت إلى موقف الخطر. فعلى سبيل المثال، في حالة الطفل الذي تركته أمه قد يعبر عن النزوة بالرغبة في أن يرضع ويدلل من قبلها.

رسم فرويد صورة لسلسة من مواقف الخطر النمطية التي من المتوقع حدوثها بالتتابع أثناء حياة الطفل. أولها من حيث الترتيب الزمني، انفصاله عن شخص مهم كمصدر للإشباع، ويشار لذلك غالباً في مؤلفات التحليل النفسي بـ "فقدان الموضوع" أو "فقدان الموضوع المحبوب" رغم أن الطفل حين إدراكه ذلك الخطر للمرة الأولى ما يزال صغيراً جداً كي نعزو له هذه العواطف المعقدة كالحب مثلاً. أما موقف الخطر النمطي الثاني بالنسبة للطفل فهو خسارة حب شخص قريب منه يعتمد عليه في الإشباع، أي أنه رغم أن الشخص حاضر، إلا أن الطفل قد يخاف فقدان حبه، ويشار إلى هذا بعبارة "خسارة حب الموضوع" أما موقف الخطر التالي فهو يختلف باختلاف جنس الطفل. ففي حالة الولد يكمن الخطر في فقد عضوه الذكري، وهو ما يشار إليه في مؤلفات التحليل النفسي بالخصاء. أما في حالة البنت فالخطر يكمن في جرح مشابه لأعضائها التناسلية. وآخر موقف خطر هو موقف الذنب أو الرفض والعقوبة من الأنا الأعلى.

أول هذه المخاطر، كما نعتقد، يمثل خاصية للمرحلة المبكرة من تطور الأنا، ربما حتى عمر سنة ونصف، حينها يضاف إليه موقف الخطر الثاني، بينما الثالث لا يظهر على المسرح حتى عمر سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات، أما آخر مواقف الخطر النمطية فيظهر بعد خمس أو ست سنوات، حينما يتم تشكل الأنا الأعلى. وتستمر جميع هذه المخاطر بدرجة ما لا شعوريا خلال الحياة – وبدرجة كبيرة عند العصابيين – وتختلف الأهمية النسبية لكل خطر من شخص لآخر. ولذلك، من المهم عملياً في العمل الإكلينيكي أن نعرف ما هو الخطر الرئيسي الذي يخافه المريض لا شعورياً.

يمثل القلق، كما أكد فرويد، المشكلة المركزية في المرض العقلي، وهو رأي، لم يكن كذلك دائماً، وتقبله الغالبية اليوم. فقبل نشر مقالة الكف والأعراض والقلق كان التركيز الأساسي في فكر التحليل النفسي حول العصاب منصباً، من الناحيتين النظرية والإكلينيكية، على تصرفات الليبيدو، وبالذات على التثبيتات الشهوانية. فقد كان الاعتقاد وقتها، كما سبق أن قلنا، أن القلق ليبيدو متحول نتيجة عدم تصريفه بشكل كاف، لهذا كان طبيعياً أن يصبح الليبيدو نقطة الاهتمام الرئيسية في الجدل النظري الدائر؛ ويصبح حل التثبيت وضمان التصريف الكافي لليبيدو الاهتمام الرئيسي للمعالج. هذا لا يعني أن إزالة التثبيت أقل أهمية الآن عما كانت عليه في الماضي، بل يعني فقط أننا نميل الآن لرؤية هذه المشاكل، من الناحيتين النظرية والإكلينيكية، من وجهة نظر كل من الأنا والهو، بدل رؤيتها من زاوية الهو فقط.

ومع كل هذا التأكيد، في الكتابات المعاصرة للتحليل النفسي، على أهمية دور القلق

في المرض العقلي، فإن من السهل أن نغفل عن دور القلق الأساسي في النمو السوي في مساعدة الأنا الأعلى على مراقبة أو منع الرغبات أو النزعات التي تبدو خطيرة. فهذه الوظيفة للقلق ليست بأي حال وظيفة مرضية، بل بالعكس، إنها جزء ضروري من النمو والحياة العقلية، وبدونها يصبح أي نوع من التربية، بالمعنى الواسع للكلمة، مستحيلاً. فالفرد سوف يصبح تحت رحمة إرضاء أي نزعة تخطر للهو، إلا إذا أدى ذلك إلى موقف صادم يُغمَر فيه الفرد بالقلق.

والنقطة الأخرى حول قلق الإشارة هي هذه: إنه أقل حدة من القلق المصاحب للموقف الصادم. بمعنى آخر، فإن هذه الإشارة التي يتعلم الأنا إعطاءها أثناء طور النمو أقل حدة في ألمها من القلق المحتمل ظهوره في حالة عدم إعطاء الإشارة وظهور الموقف الصادم.

لنلخص الآن هذا الجزء الثاني من النظرية الجديدة للقلق :

1. يكتسب الأنا في طور النمو المقدرة على إحداث القلق عند ظهور أي موقف خطر (تهديد بموقف صادم)، وفيما بعد عند توقع الخطر.
2. من خلال عمل مبدأ اللذة يساعد قلق الإشارة الأنا على مراقبة أو كبح نزوات الهو في موقف الخطر.
3. هناك مجموعة أو سلسلة من مواقف الخطر، خلال مرحلتي الطفولة المبكرة والمتأخرة، التي تستمر هكذا لا شعورياً طوال الحياة.
4. قلق الإشارة شكل مخفف من القلق يلعب دوراً هاماً في النمو النفسي. إنه شكل القلق الذي يشكل خاصية العصاب النفسي.

أنهينا الآن إجابتنا عن السؤال الأول من السؤالين الذين أثرناهما في صفحة (76). ذلك كان السؤال حول تفسير كيف أن الأنا، الذي بدأ جزءاً من الهو يخدم الباقي، انتهى إلى أن يصبح في النهاية وبمرور الوقت سيداً للهو. ونتجه الآن إلى إجابة السؤال الثاني الذي أثير على نفس الصفحة، وهو كيف يتمكن الأنا من الحفاظ على نزوات الهو تحت المراقبة.

ما أوضحناه من مناقشتنا للقلق هو أنه حينما يعارض الأنا ظهور نزوة للهو، فإنه يفعل ذلك لكونه يُقَدِّر أن ظهور تلك النزوة سوف يخلق موقفاً خطراً. عندها يحدث الأنا قلقاً كعلامة على الخطر، وبهذه الطريقة يفوز بمساعدة مبدأ اللذة، ويكون قادراً على المعارضة الناجحة لظهور النزعات الخطرة. ونعني بالمعارضة، وفق مصطلحات التحليل النفسي، الدفاع أو العملية الدفاعية للأنا. يمكن إذاً صياغة سؤالنا كالآتي: "ماهي الدفاعات التي يمتلكها الأنا في مواجهة الهو؟ "

إجابة هذا السؤال رغم عموميتها بسيطة للغاية. فالأنا يمكنه استخدام أي شيء يقع في متناوله لخدمة هذا الغرض، فيمكنه استخدام أي اتجاه أو إدراك للأنا، أو تغير في الانتباه، أو تأييد لنزوة أخرى للهو تنافس النزوة الخطرة وأكثر أمانا منها، أو المحاولة بقوة لتحييد طاقة الدافع الخطر، أو تكوين التقمص، أو تنشيط الخيال – فالأنا يمكنه استخدام كل هذه الطرق الدفاعية منفردة أو مجتمعة. وخلاصة القول، يمكن للأنا، من وقت لآخر، استخدام كل العمليات التكوينية والوظيفية للأنا السوي لأغراض دفاعية.

إضافة إلى كل هذه العمليات الدفاعية للأنا، والتي يستخدم فيها عمليات مألوفة لنا من خلال المناقشة السابقة، توجد عمليات محددة للأنا تهتم أساساً بدفاعاته ضد الهو، وقد أطلقت

آنا فرويد (1936) على هذه العمليات اسم الحيل الدفاعية، وسوف تتناول مناقشتنا التالية هذه الحيل.

إن أي قائمة بحيل الدفاع سوف تكون ناقصة ومفتوحة للنقد، حيث ما يزال الخلاف قائماً بين المحللين حول ما يجب وما لا يجب أن يدعى حيلة دفاعية كنقيض للوسائل الأخرى المتاحة للأنا للتحكم في نزوات الهو. لذا فإن ما يجب علينا فعله هو أن نحدد ونناقش تلك الحيل الدفاعية المسلم بها كحيل دفاعية، والمعترف بها لأهميتها الكبرى في أداء العقل لوظائفه.

أولى الحيل الدفاعية، التي حددت ونوقشت باستفاضة في مؤلفات التحليل النفسي، هي تلك التي نسميها الكبت (Freud, 1915b). يتكون الكبت من أي نشاط للأنا يحمي الوعي من نزوة الهو غير المقبولة، أو أي من مشتقاتها، سواء الذكريات، أو الانفعالات، أو الرغبات، أو التخيلات المشبعة للأهواء. كل هذه تبدو كما لو أنها لم توجد في الحياة الشعورية للفرد – فالذكرى المكبوتة هي ذكرى منسية من وجهة نظر الفرد الذي حدث له الكبت، ونحن لا نعلم بشكل مؤكد إذا كان يوجد أي نوع من النسيان خلاف الكبت.

يؤدي الكبت داخل العقل إلى معارضة دائمة، أو على الأقل إلى خصام طويل، بين الأنا والهو عند مركز الكبت. وفي اعتقادنا تستمر المادة المكبوتة من ناحية في الشحن بشحنات معينة من طاقة الدافع التي تلح باستمرار طلباً للإشباع، بينما يحافظ الأنا من ناحية أخرى، على الكبت عن طريق الاستهلاك الثابت لجزء من الطاقة النفسية الموجودة

تحت تصرفه. هذه الطاقة تسمى بالشحنة المضادة، ووظيفتها معارضة شحنة طاقة الدافع التي شحنت بها المادة المكبوتة.

لا يمكن للتوازن بين الشحنات الانفعالية ومضاد الشحنات أن يكون ثابتاً، فهو توازن بين قوى متضادة ،ويمكن أن يتغير في أي وقت. وسوف تظل المادة مكبوتة طالما كانت الشحنة النفسية المضادة المستهلكة من الأنا أقوى من الشحنة النفسية للمادة المكبوتة. أما إذا أصبحت الشحنة الانفعالية المضادة ضعيفة، فإن المادة المكبوتة سوف تطفو إلى الشعور والفعل، مما يعنى فشل الكبت. ونفس الشيء سوف يحدث إذا زادت حدة شحنة الدافع دون حدوث زيادة مماثلة في الشحنة الانفعالية المضادة.

ربما من المفيد توضيح هذه الاحتمالات. فالشحنة النفسية المضادة الصادرة عن الأنا قد تتلاشى بطرق متعددة، وحدوثها في حالات التسمم الكحولي والحمي كثيرة ومألوفة جداً. فقد يظهر على سلوك الشخص أو حديثه وهو مخمور ميول عدوانية وليبيدية لا يعلم هو نفسه شيئاً عنها حينما يصحو. ونفس الشيء قد ينطبق على حالات التسمم الأخرى. كما يظهر أن انخفاضاً مماثلاً في الشحنات النفسية المضادة يحدث باستمرار أثناء النوم، كما سوف نرى في الفصل السابع، بحيث أن الذكريات والرغبات المكبوتة قد تظهر شعورياً في الحلم بطريقة يستحيل ظهورها في حالة اليقظة.

وعلى عكس ما سبق، يتوفر لدينا سبب وجيه للاعتقاد بأنه عند البلوغ، مثلاً، تزداد الطاقة المتوفرة للهو، ولذلك عند هذه السن قد ينهار الكبت الذي ظل صامداً لسنوات عديدة انهياراً جزئياً أو كلياً. كما نفترض بأن نقص الإشباع يقوي نزعات الهو؛ فكما أن

الجائع قد يأكل طعاماً يثير اشمئزازه في الأحوال العادية، فكذلك المحروم جنسياً سيكون أكثر عرضة لفشل الكبت لديه مما لو لم يحرم بهذه الحدة أو هذه المدة الطويلة. العامل الآخر الذي قد يضعف الكبت هو الإغواء أو الإغراء.

يجب أن نشير أيضاً إلى أنه إذا أُضعِف الكبت و كان على وشك الفشل، أو حتى إذا فشل بدرجة ما، فإن هذا لا يعني بالضرورة نهاية النزاع بين الهو والأنا حول هذه النزوات وأنها سوف تحصل فيما بعد على مدخل حر ومباشر للشعور وعلى مساعدة من الأنا في الإشباع. هذه طبعاً نتيجة محتملة، ففي خلال الانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، مثلاً، فإن من الضروري على الأقل في المجتمع الغربي، إلغاء الكبت الجنسي جزئياً أو كلياً، حتى يتحقق التوافق الجنسي السوي في مرحلة البلوغ. مع ذلك، هناك نتيجة أخرى مألوفة، فبمجرد أن تبدأ نزوة الهو في اختراق الشعور والإشباع، فإن الأنا يستجيب لهذا الاختراق باعتباره خطراً جديداً، ويصدر مرة أخرى إشارة قلق. بهذه الطريقة يحشد الأنا قوة حديثة من أجل تجديد الدفاع ضد النزوة الخطرة وغير المرغوبة. وإذا نجحت محاولة الأنا، فقد أعيد تثبيت الدفاع الملائم، سواء بطريق الكبت أو بأي واسطة أخرى، الأمر الذي يتطلب في المقابل استهلاكاً إضافياً من قبل الأنا للطاقة النفسية المضادة.

وفيما يتعلق باحتمالية التغير في التوازن بين الأنا والهو في حال الكبت، (Freud, 1924a;1933;p.127)، فهناك إمكانية وجود الكبت الكلي للرغبة، الذي يؤدي إلى اختفائها فعلياً أو التخلص من شحنتها النفسية، أو على الأقل تحويل شحنتها النفسية إلى محتويات عقلية أخرى. أما من الناحية العملية، فلا علم لنا بأية واقعة لمثل هذا الكبت

الكلي المثالي. وحقيقة الأمر أننا نتعامل في عملنا الإكلينيكي وبشكل رئيسي مع حالات أخفق فيها الكبت بشكل واضح، مما أدى إلى ظهور أعراض نفسية عصابية (أنظر الفصل الثامن). والحالات الوحيدة التي نعرفها هي تلك التي تستمر فيها المادة المكبوتة مشحونة بطاقة الدافع، والتي يجب بناء على ذلك معارضتها بشحنات انفعالية مضادة.

تبقى نقطتان إضافيتان يجب توضيحهما حول آلية عمل الكبت. أولاهما، أن العملية كلها تتم لا شعورياً. ليس المادة المكبوتة فقط لا شعورية، بل إن نشاطات الأنا التي تنشئ الكبت هي أيضاً لاشعورية تماماً. فليس المرء أكثر دراية بكبت شيء ما منه بنسيانه لشيء آخر. والشيء الوحيد الذي يمكن للمرء أن يعلمه هو النتيجة النهائية. مع ذلك، يوجد نشاط شعوري يشبه الكبت إلى حد ما، وهو يسمى عادة في مؤلفات التحليل النفسي بالقمع suppression. إنه القرار المألوف لنسيان شيء ما وعدم التفكير فيه مرة أخرى. قد يوجد وسيط بين القمع والكبت، وقد لا توجد حدود واضحة بين الاثنين. ومع ذلك، فعندما نستخدم كلمة كبت نعني أن المنع عن الشعور وبناء الشحنات المضادة حدث لا شعورياً.

النقطة الثانية والأخيرة هي أنه حينما يُكبَت شيء ما، فلا يكفي القول أنه منع من دخول الشعور بالإكراه. من المهم أن نفهم أن المكبوت أصبح منفصلاً عن الأنا ككل من الناحية الوظيفية، وأصبح بدلاً من ذلك جزءاً من الهو.

تتطلب مثل هذه العبارة شيئاً من التوضيح. فقد تحدثنا حتى الآن في مناقشتنا للكبت عن الصراع بين الأنا من جانب ونزعات الهو من جانب آخر. سوف يكون من غير المعقول

الحديث عن أن الكبت يجعل نزوة الهو جزءاً من الهو. وما يجب أن نعرفه في هذا الخصوص هو أن الذكريات والخيالات والانفعالات المتصلة بشكل قريب مع هذه النزوة للهو تشمل عناصر متعددة كانت جزءاً من الأنا قبل حدوث الكبت. ومع ذلك، فإن وظائف الأنا قبل الكبت كانت في خدمة هذه النزوة للهو بالذات، كما كانت في خدمة نزوات أخرى. لهذا تشكل نزوة الهو وعمليات الأنا كلاً متناغماً أكثر من كونهما جزأين متصارعين. لذلك عندما يحدث الكبت، فإن الكل هو الذي يكبت، والنتيجة أن شيئاً ما تم طرحه من نظام الأنا وأضيف إلى الهو. ولعل إدراك هذه الحقيقة يجعلنا نفهم بسهولة أن الكبت غير الملائم يضر بتكامل الأنا، ويحد من نطاق وقوة تأثيره، وذلك لأن الكبت يتطلب من الأنا استهلاكاً إضافياً من مخزونه المحدود من الطاقة كي يحافظ على الشحنات الضرورية المضادة.

الحيلة الدفاعية الثانية التي سوف نناقشها هي ما يسمى بالتكوين العكسي reaction formation. بمقتضى هذه الحيلة الدفاعية يتحول أحد طرفي الاتجاه المناقض كالبغض مثلاً، فيصبح لا شعورياً، ويُستَبقى هكذا لا شعورياً بالمغالاة في إظهار النقيض الآخر، وهو في هذه الحالة الحب. وهكذا يبدو وكأن الكره استبدل بالحب، واستبدلت القسوة بالرفق، والتمرد بالطاعة، والقذارة بالنظافة والأناقة.. الخ. ومع ذلك، يستمر الاتجاه المفقود لا شعورياً.

ورغم كوننا تعودنا على التفكير في التكوين العكسي كما في الأمثلة السابقة، حيث يتخلى الفرد عن شكل ما من السلوك غير المقبول اجتماعياً لصالح سلوك مقبول بدرجة أكبر من قبل والديه ومعلميه، فإن من الممكن أيضاً حصول العكس، بمعنى أن يبدو الكره كتكوين عكسي ضد الحب، والتمرد ضد الطاعة إلى نهاية القائمة. والحسم في تحديد الطبيعة

الدقيقة للتكوين العكسي في كل حالة منفردة هو إجابة السؤال التالي " ما الذي يخشاه ألانا كخطر ويتصرف حياله من ثم بإرسال إشارة القلق؟" إذا كان الأنا، لسبب ما، يخاف من نزعة الكره، أو بمعنى أدق النزعات المرتبطة بالكره، فإن العملية الدفاعية للتكوين العكسي سوف تكف هذه النزعات وتبقيها مقيدة عن طريق تقوية اتجاه الحب. أما إذا كان الباعث على الخوف هو الحب، فسيحدث العكس.

على سبيل المثال، قد ينمي الشخص اتجاهاً من الحنو والعاطفة نحو الناس أو الحيوانات كي يبقي النزعات القاسية جداً أو حتى السادية نحوهم مستقرة في اللاشعور، وعلى عكس ذلك، قد يظهر أثناء العلاج التحليلي أن الدافع الأساسي لغضب المريض الشعوري من معالجه هو حاجة الأنا اللاشعورية ليدافع عن نفسه ضد ظهور مشاعر وأوهام الحب نحو المعالج. إحدى نتائج معرفتنا لعمل هذه الحيلة الدفاعية هي أننا إذا لاحظنا اتجاهاً غير واقعي ومبالغ فيه من هذا النوع نتساءل عما إذا كانت المغالاة فيه بهذا الشكل تعود لكونه دفاعاً ضد نقيضه. وهكذا يجب أن نتوقع، أن داعية مخلصاً للسلام، على سبيل المثال، أو معارضاً لتشريح الحيوانات لأغراض علمية، لديه خيالات لا شعورية من البغض والقسوة، وهي تبدو للأنا خطرة بشكل واضح.

وفي اعتقادنا، يحدث التكوين العكسي، كما قلنا سابقاً في حالة الكبت اللاشعوري، وهذا هو الحال فعلاً مع معظم ،إن لم يكن مع كل، الحيل الدفاعية للأنا. وهنا مرة أخري، نلحظ فائدة في التعرف إلى ما يشبه التكوين العكسي في حياتنا العقلية الشعورية. فما يحدث لا شعورياً في حالة التكوين العكسي يشبه ما يجري شعورياً في عقل

المتملق أو المنافق، بل وحتى أحياناً ما يدور في عقل المضيف الكريم. فكل من هؤلاء يقول لنفسه "سوف أدعي أنني أحب هذا الشخص، رغم أن مشاعري الحقيقية نحوه مختلفة وعلى العكس تماماً" غير أنه يجب أن نحذر من الخلط بين التشابه والتطابق. عندما تحدث مثل هذه العملية شعورياً، فإنها تدل على مجرد تكيف مؤقت. على العكس من ذلك، يؤثر التكوين العكسي على الأنا والهو بشكل دائم بنفس الطريقة التي يؤثر بها الكبت.

قبل الانتقال إلى الحيلة الدفاعية التالية لنا ملاحظة أخيرة بهدف توضيح التعقيد والعلاقة المتبادلة لأنشطة الأنا عموماً، وصعوبات أي محاولة لتبسيط مناقشة الحيل الدفاعية للأنا عن طريق عرضها بشكل من التخطيط المبالغ فيه by being too schematic.

لنأخذ حالة الطفل ذي السنتين الذي ولد له شقيق جديد. فنحن نعلم أن أحد النتائج الحتمية لمثل هذه الخبرة بالنسبة للطفل هي رغبته في التخلص من المولود الجديد الذي يعتبر في نظره سبب حرمانه من اهتمام أمه وحبها. ويعبر الطفل عن هذه الرغبة العدائية تجاه المولود الجديد إما بالكلمات أو الأفعال، وقد يصل الأمر حتى إلى درجة الخطر الحقيقي بالنسبة للمولود الجديد. غير أن الطفل يكتشف حالاً أن عداءه لأخيه غير مقبول من أمه، والنتيجة الطبيعية لذلك هي دفاع الطفل عن نفسه ضد هذه النزعات العدائية بسبب خوفه من فقدانه لحب أمه. لكن قد يكون الدفاع الذي يستخدمه الأنا من نوع الكبت، وفي هذه الحالة تُستبعَد نزعاته العدوانية ومشتقاتها من الأنا وتلحق بالهو، ومن ثم تحجز عن الشعور بشحنات انفعالية مضادة.

إضافة إلى اختفاء النزعات العدائية من شعور الطفل تجاه أخيه، ليس من الغريب أن

نلاحظ ظهور درجة من الحب للأخ الجديد، التي قد تختلف في حدتها ولكن يمكن إرجاعها وبكل ثقة إلى نشاطات الأنا الدفاعية وبالذات إلى التكوين العكسي. فيظهر أن الأنا استخدم آليتين للدفاع عن نفسه ضد نزعات الهو العدوانية التي تخيفه، فلم يستخدم الكبت فقط بل استخدم أيضاً التكوين العكسي.

تدلنا الخبرة الإكلينيكية على أن الحيل الدفاعية نادراً ما تستخدم منفردة أو مثنى، بل بالعكس يستخدم الكثير منها معاً، رغم أنه في كل حالة بعينها يشكل واحد أو اثنان منها أهم الآليات.

مع ذلك، فحتى هذا، لم يستوعب جميع التعقيدات في مثالنا البسيط. وما نفهمه هو أن الطفل في كبته لعدوانيته يستجيب كما لو أن أمه قالت له "لن أحبك إذا كرهت المولود الجديد" ولذلك تكون إجابته "أنا لا أكره المولود الجديد، ولذلك لست خائفاً من أنك لن تحبيني" فعبارة "أنا لا أكره المولود الجديد" تعبير لفظي عما حققه الكبت. وتجنباً للبس فإننا لا نقصد الإيحاء بأن مثل هذه المحادثة تحدث بين الطفل وأمه فعلاً، ولكن لنشير بأن التأثير يحدث كما لو أن هذه المحادثة وقعت فعلاً. ورغم أنه لم يتم التلفظ بكلمات، إلا أن الأفكار المعبر عنها بالكلمات تتوافق مع الأشياء التي وقعت فعلاً. لكن الكلمات التي استعملناها حتى الآن تتصل فقط بالكبت، وكما رأينا، يشكل رد الفعل العكسي أيضاً جزءاً من دفاعات الطفل. وعملياً فإن الطفل يقول من خلال رد فعله العكسي" أنا لا أكره المولود الجديد، أنا أحبه. "من أين جاءت عبارة" أنا أحبه ؟". نحن نشعر بالتعاطف، دون شك، لما لهذه العبارة من قيمة دفاعية داخلية، ولكونه أصعب على المرء أن يعترف بكره شخص يكن

له الحب أكثر من اعترافه بكره شخص لا يكن له أي تقدير. وبكل تأكيد، لا تكتفي العديد من الأمهات بتوجيه أطفالهن إلى عدم كراهية المولود الجديد، بل بالقول وبشكل واضح "يجب أن تحب الطفل الجديد". ولذلك فإن حب الطفل الجديد، بالنسبة لأطفالهن يعني منطقياً طمأنة ضد الخوف من فقدان حب الأم. غير أننا تعلمنا من الخبرة التحليلية أنه حينما يحب الطفل ذو السنتين المولود الجديد، فإنه يفعل ذلك بطريقة خاصة جداً. إنه يقوم بذلك كما لو أنه نفسه الأم، فيحاكيها في تصرفاتها واتجاهاتها نحو الطفل بمعنى آخر، يتقمص الطفل لا شعوريا شخصية الأم.

وصلنا، إذن، إلى نتيجة غير متوقعة، وهي أن التقمص قد يكون جزءاً من رد الفعل العكسي، أو ربما مقدمة ضرورية له، مما يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان يوجد نمطان من الحيل الدفاعية، حيل أولية غير قابلة للاختزال، وأخرى يمكن اختزالها فيما نسميه بالآليات الأولية. هذا السؤال مازال يحتاج إجابة حاسمة. لقد أشارت آنا فرويد (1936) في كتابها الكلاسيكي عن الأنا وميكانيزمات الدفاع إلى ما اقترحه بعض الكتاب من أن الكبت هو الحيلة الدفاعية الرئيسية، وأن كل ميكانيزمات الدفاع الأخرى إما أنها تدعم الكبت، أو أنها تستدعى للعمل عند فشل الكبت. لقد طرحت آنا فرويد نفسها، وبشكل ضمني، أهمية دراسة وتصنيف ميكانيزمات الدفاع على أسس وراثية أو ارتقائية، أي عن طريق البدء بأكثر الحيل الدفاعية بدائية، أو حتى البدء بطلائع الحيل الدفاعية والتقدم تدريجياً خطوة خطوة حتى الوصول إلى حيل الدفاع النهائية الأكثر تطوراً. من اللافت أن هذا الطرح، الذي يبدو مثيراً، لم يحظ بالاهتمام الكافي، على الأقل بقدر إطلاعنا على مؤلفات التحليل النفسي.

مع ذلك، إذا عدنا للفكرة القائلة بأن الكبت هو ميكانيزم الدفاع وأن كل الأخريات مكملات له، فيجب أن نعترف بعجزنا عن الوصول إلى قرار نهائي حول الموضوع. وسبب هذه الصعوبة عدم قدرتنا على وصف وتمييز الكبت بعيداً عن نتائجه. ونتيجة الكبت هو أن شيئاً ما قد تم نسيانه، أي منع من دخول الشعور. وهذا ينطبق بالمثل على كل الحيل الدفاعية الأخرى، حيث أن شيئاً ما منع من الدخول إلى الشعور. غير أننا لا نستطيع التأكيد بشكل جازم على أن تفاصيل عملية المنع من دخول الشعور، وتفاصيل النتيجة النهائية أيضاً، تماثل التفاصيل المشابهة للحيلة الدفاعية التي اتفقنا على تسميتها بالكبت.

لنواصل استعراض قائمتنا من الحيل الدفاعية. استخدمت كلمة عزل isolation في مؤلفات علم التحليل النفسي لتدل على وسيلتين دفاعيتين مختلفتين تماماً، رغم كونهما صفات لمرضى بنمط خاص من العرض العصابي نسميه عادة بالوسواس. المعنى الأكثر شيوعاً للكلمة أنها حيلة دفاعية سماها فرويد أصلاً بالعزل الوجداني، ولكن من الأفضل أن نسميها كبت الانفعال أو كبت العاطفة. في مثل هذه الأحوال نجد أن خيالاً ارتبط سابقاً بأمنية أو ذكرى هامة تمكن من الدخول إلى الشعور، غير أن العاطفة أو الانفعال المؤلم عادة والمرتبط به لا يصبح شعورياً. علاوة على ذلك ينجح مثل هؤلاء المرضى عادة في تجنب الشعور بالانفعالات الحادة من أي نوع. فهذه العملية من كبت الانفعال تبدأ كحاجز للانفعالات المخيفة والمؤلمة عن الشعور، أي أنها تعمل بكل وضوح لصالح مبدأ اللذة، ولا تذهب في حالات كثيرة أبعد من هذا. لكنها تنجح نجاحاً عظيماً مع الأفراد سيئي الحظ لدرجة أن

الفرد في النهاية يفقد الشعور بالانفعال من أي نوع، ويبدو في صورة واضحة من رباطة الجأش المثالية التي تحدث عنها الفلاسفة القدماء.

يدل المعنى الآخر للعزل على وسيلة دفاعية أكثر ندرة، ولها علاقة باضطراب الوسواس، ناقشها فرويد في جزء من فصل "مشكلة القلق" (1926). والوسواس عملية لا شعورية يتم بواسطتها عزل فكرة معينة عن الأفكار السابقة عليها واللاحقة لها بفاصل قصير من التبلد العقلي mental blankness. وبهذا الحرمان للفكرة المعزولة من أي صلة أو ارتباط بالعقل يحاول الأنا التقليل من إمكانية عودتها إلى الشعور. وبهذا تعامل الفكرة على أنها محصنة untouchable.

وكما سبق القول، فإن كلا النمطين من العزل يلاحظان بشكل خاص في صلتهما بأعراض الوسواس. الحيلة الأخرى المرتبطة بشكل مميز بمثل هذه الأعراض هي ميكانيزم الإبطال undoing. والإبطال فعل يهدف إلى دحض أو إبطال الضرر الذي يتخيل الفرد لا شعورياً أنه سببه بواسطة رغباته الجنسية أو العدوانية. فعلى سبيل المثال، قد يتصرف الطفل الصغير، الذي تشكل رغباته العدوانية تجاه أخيه ووالديه مصدر قلق له، بالطريقة التالية: يلطم الشيء الباعث لغضبه، ثم بعدها يقبله. فالطفل يبطل بتصرفه الثاني تصرفه الأول. وليس من الصعب اكتشاف سلوك مشابه بين الأطفال الكبار والأشخاص البالغين أيضاً. تحتوي أمثلة كثيرة من السلوك الطقوسي لدى كل من الأطفال الكبار والراشدين على عناصر يمكن تفسيرها على هذا الأساس، أي يقصد من ورائها شعورياً أو لا شعورياً إبطال تأثير نزوة ما للهو يعتبرها الأنا خطيرة. وأحياناً، كما في المثال السابق، يكون معنى السلوك الطقوسي

واضحاً، وقد يكون حتى معلوماً تماما (شعورياً) للمريض نفسه. لكن المعتاد أكثر هو صعوبة الكشف عن حيلة الإبطال لكونها تتخفي وتشوه قبل أن يسمح لها بأن تصبح شعورية. أمر واحد يمكن قوله هو أن فكرة الإبطال من أساسها فكرة سحرية، ترجع أصولها إلى سنوات الطفولة المبكرة حين سيطرة الأفكار السحرية على الحياة العقلية.

الحيلة الدفاعية الهامة الأخرى هي الإنكار. وقد استعملت آنا فرويد (1936) هذه الكلمة للإشارة إلى إنكار جزء مؤلم، أو غير مرغوب فيه، من الواقع الخارجي، وذلك إما عن طريق السلوك أو عن طريق الإشباع الخيالي للرغبة. فعلى سبيل المثال، قد يدعي الطفل الخائف من أبيه أنه أقوى رجل في العالم، وأنه فاز ببطولة العالم للملاكمة في الوزن الثقيل، وقد يدور حول المنزل مرتدياً حزاماً دلالة على البطولة. فما ينكره الطفل في هذا المثال هو حجمه الصغير وضعفه مقارنة بأبيه، وهي حقائق واقعية يتم رفضها، واستبدالها بخيال وسلوك يشبع رغبات الطفل في التفوق الجسماني على أبيه.

استخدم مصطلح الإنكار كما يظهر من قبل مؤلفين آخرين أيضاً في إشارة إلى اتجاه مماثل نحو بيانات الخبرة الداخلية، أي نحو الواقع الداخلي. ففي المثال السابق، قد تدل عبارة الطفل على إنكاره لخوفه هو. غير أن مثل هذا الاستخدام لكلمة إنكار غير مقبول، لأن استخدامها بهذا المعنى يجعلها شبيهة جداً لمفهوم القمع الذي عرفناه سابقاً، أو يجعل منها خطوة على طريق الكبت. فالمعنى الأصلي للإنكار يشير بالأحرى إلى صد انطباعات حسية معينة قادمة من العالم الخارجي. وإذا لم يكن ممكنا منعها كلية من دخول الشعور، فيمكن على الأقل الحد جزئياً من نتائجها المؤلمة بمنحها أقل انتباه ممكن.

الإرباك الآخر في استخدام كلمة إنكار، والذي يظهر أحياناً عند مناقشة مشاكل الدفاع، يعود إلى حقيقة أنه في الدفاعات يحدث إنكار شيء ما، تماماً كما أنه من صلب طبيعة الدفاعات منع الشيء من دخول الوعي. ففي كل عملية دفاعية يقول الهو "نعم"، ويقول "الأنا" لا. غير أن من غير المعقول الاستنتاج من هذا، كما فعل بعض المؤلفين، أن وسيلة الدفاع التي وصفتها آنا فرويد، باعتبارها إنكار بواسطة الخيال، تدخل في عملية كل حيلة دفاعية.

يمكن أن نضيف بأن حيلة الإنكار الدفاعية إما أنها مرتبطة جداً بجوانب معينة من اللعب وأحلام اليقظة، أو أن لها دوراً هاماً في هذين النشاطين مدى الحياة. فمفهوم الأنشطة الترويحية كله كوسيلة هروب من هموم وإحباطات حياتنا اليومية يقارب عملية الإنكار كحيلة دفاعية.

الحيلة الدفاعية التالية التي نود مناقشتها هي ما يدعى بالإسقاط. تؤدي هذه الحيلة الدفاعية إلى أن ينسب الفرد نزواته أو رغبته الخاصة إلى فرد آخر، أو إلى شيء ما آخر في العالم. والمثال المرضي الصارخ على ذلك هو المريض عقليا الذي أسقط نزواته العدوانية، وظن كنتيجة خاطئة لذلك، أنه معرض لخطر الإيذاء الجسماني من الشرطة أو من الشيوعيين أو من جاره. مثل هذا المريض يصنف إكلينيكياً عادة بأنه يعاني من ذهان هذائي.

غير أن من المهم ملاحظة أنه على الرغم من أن الإسقاط يلعب مثل هذا الدور المهم في الأذهنة الهذائية، فإنه يعمل أيضاً في عقول أناس لا يعانون أمراضاً عقلية. فقد أظهرت الخبرة التحليلية أن كثيراً من الناس يعزون إلى الآخرين رغباتهم ونزواتهم غير المقبولة،

محاولين لا شعورياً التخلص منها عن طريق الإسقاط. إنه كما لو أن هؤلاء الأشخاص يقولون وبشكل لا شعوري "إنه ليس أنا من لديه هذه الرغبة السيئة أو الخطرة، إنه هو" أظهر لنا تحليل هؤلاء الأفراد أن العيوب والجرائم التي نعزوها لأعدائنا زمن الحرب، والتحيز الذي نحمله ضد الغرباء والأجانب، أو ضد أولئك الذين يختلفون في لون بشرتهم عنا، وكثير من معتقداتنا الخرافية، هذه كلها أو اغلبها نتيجة إسقاط لا شعوري لرغباتنا ونزواتنا الخاصة.

يمكن أن نفهم من هذه الأمثلة أنه لو استخدم الإسقاط كوسيلة دفاعية بدرجة كبيرة جداً أثناء مرحلة الرشد، فإن إدراك الشخص للواقع الخارجي سيشوه بشكل خطير، أو بمعنى آخر فإن قدرة الأنا لديه على اختبار الواقع سوف تضعف بشكل كبير. لذلك، فالأنا الذي يسمح بالاستخدام المكثف لهذا الدفاع هو من سيتخلى بسهولة عن قدرته على اختبار الواقع بشكل صحيح. وتنطبق هذه الملاحظات، بالمناسبة، وبشكل مماثل على استخدام الإنكار كحيلة دفاعية من قبل الشخص الراشد.

الإسقاط، إذن، حيلة دفاعية تلعب أهم أدوارها عادة في مراحل الحياة المبكرة. فالطفل الصغير يعزو، وبطريقة طبيعية تماماً، إلى الآخرين سواء أكانوا أشخاصاً، أو حيوانات، أو حتى جمادات، المشاعر وردود الأفعال التي يختبرها، حتى ولو لم يكن منشغلاً في معركة دفاعية ضد مشاعره ورغباته الخاصة. هذا الميل لإنكار السلوك أو النزوات غير المرغوبة بعزوها إلى الآخرين يظهر واضحاً في سنوات الحياة المبكرة. فغالباً ما يحدث أن الطفل حينما يتهم بفعل خطأ ما أو يعنف عليه، يقول إنه ليس هو بل طفل آخر، غالباً متخيل، هو من فعل ذلك. ولكوننا أشخاصاً راشدين، ننظر لمثل هذا العذر على أنه خداع مقصود من قبل

الطفل؛ لكن علماء نفس الطفل يؤكدون لنا أن الطفل الصغير يقبل بشكل جاد إسقاطاته كحقيقة، ويتوقع من أبويه أو مربيته أن يفعلوا الشيء نفسه.

ربما يكون من المناسب إعطاء كلمة أخيرة حول الأصل المحتمل لميكانيزم الإسقاط، ففي رأي البعض (Starcke,1920; van Ophuijsen , 1920;Arlow,1949) أن خبرة التغوط المألوفة للطفل في طفولته المبكرة هي نموذج الحيلة النفسية في فصل بعض رغبات وأفكار الشخص عن حياته العقلية الخاصة، وإسقاطها على العالم الخارجي. فنحن نعلم من ملاحظاتنا التحليلية أن الطفل الصغير يعتبر برازه جزءاً من جسده، ويبدو من استخدامه الإسقاط كحيلة دفاعية، أنه يحاول لا شعورياً تخليص نفسه من المحتويات العقلية غير المرغوبة كما لو أنها محتويات معوية.

الحيلة الدفاعية الأخرى تسمى تحول النزوة الغريزية ضد نفسها، أو باختصار الانقلاب على الذات. ويمكننا أن نشير إلى معناها عن طريق مثال من سلوك الطفولة، حيث مرحلة الطفولة، وكما هو الحال في الإسقاط والإنكار، هي الوقت المناسب لملاحظة هذه الحيلة بسهولة من خلال السلوك الظاهري. فالطفل الذي يشعر بالغضب، على سبيل المثال، من شخص آخر لكنه لا يجرؤ على التعبير عن غضبه ضد الهدف الأصلي، قد يتحول بدلاً من ذلك إلى عض أو ضرب أو جرح نفسه. ورغم غرابتها الواضحة، تلعب هذه الحيلة، مثلها مثل الإسقاط، دوراً في الحياة العقلية السوية أكبر مما هو معروف أصلًا. إنها مصحوبة باستمرار بتوحد لاشعوري مع هدف النزوة تجاه الحالة الطارئة التي يدافع الفرد عن نفسه حيالها. ففي المثال السابق، كأن الطفل بضربه لنفسه يقول "أنا هو، وسأضربه هكذا".

يذكر القارئ أننا ناقشنا سابقاً عملية التقمص مطولاً في الفصل الثالث، حيث اعتبرناها أهم عامل في نمو الأنا. ويستعمل التقمص باستمرار لأغراض الدفاع، غير أنه لا يوجد حالياً اتفاق عام حول ما إذا كان يجب تصنيفه كوسيلة دفاع، أو النظر إليه كميل عام للأنا يستخدم بطريقة دفاعية. وبهذه المناسبة، نعيد ما قلناه في بداية مناقشتنا للحيل الدفاعية للأنا، وهو أن الأنا يمكنه بل هو يستخدم فعلا أي شيء متاح له يساعد على تخفيف أو تجنب الخطر الناجم عن مطالب الدافع الغريزي غير المرغوب.

وحينما يستعمل التقمص بواسطة الأنا كوسيلة دفاعية، فإنه غالباً ما يصاغ على غرار نشاط بدني كالأكل والبلع. يعني أن الشخص الذي يستخدم حيلة التقمص يتخيل لا شعورياً أنه مأكول من الشخص الذي يتقمصه أو آكل له. مثل هذا الخيال هو عكس التخيلات المرتبطة بميكانيزم الإسقاط، فكما يذكر القارئ يظهر النموذج اللاشعوري هناك في فعل التغوط.

يظهر مصطلحا الاستدماج introjection والاحتواء incorporation في مؤلفات التحليل النفسي للدلالة على الخيال اللاشعوري في الاتحاد مع الآخر عن طريق الاستيعاب ingestion. حاول بعض المؤلفين التمييز بين هذه المصطلحات العديدة، ولكنها في الاستخدام العام مرادفة لمصطلح التوحد.

نتناول الآن حيلة نفسية أخرى تحتل مكانة هامة بين العمليات الدفاعية للأنا وهي النكوص. فرغم أهميته كوسيلة دفاعية، فإن النكوص، مثله مثل التقمص، له دلالة أوسع من المعنى الضيق للحيل الدفاعية. نحن نزعم أن الميل للنكوص خاصية أساسية في حياتنا الغريزية،

ولهذا ذكرناه في البداية في الفصل الثاني. فأهمية النكوص الغريزي كحيلة دفاعية هي في مواجهة الصراعات الحادة حول رغبات الطور القضيبي من النمو الغريزي. على سبيل المثال، قد يحدث التخلي عن هذه الرغبات كلياً أو جزئياً، وينكص الفرد إلى أهداف ورغبات المراحل الفمية والشرجية المبكرة، وبهذا يتجنب القلق الناجم عن إلحاح الرغبات القضيبية. وفي بعض الحالات يكفي مثل هذا النكوص الغريزي، الذي غالباً ما يكون جزئياً أكثر منه كلياً، في تسوية الصراع بين الأنا والهو لصالح الأنا، وهنا ينشأ توازن نفسي داخلي مستقر نسبياً، على أساس الاستبدال الكامل لرغبات ما قبل المرحلة القضيبية برغبات الطور القضيبي. وفي حالات أخرى يفشل النكوص في تحقيق غرضه الدفاعي، وبدلاً من التوازن المستقر نسبياً يتجدد الصراع هذه المرة على مستوى ما قبل الطور القضيبي. وهذه الحالات التي تحدث فيها درجة عالية من النكوص الغريزي دون نجاح في حل الصراع النفسي الداخلي لصالح الأنا، تحدث عادة بين الحالات الحادة من المرض العقلي.

ويظهر أن نكوصاً من هذا النوع في الحياة الغريزية يكون مصحوباً في حالات كثيرة بدرجة من النكوص في وظائف الأنا أو في نموه. وحينما يصبح مثل هذا النكوص السمة البارزة في حياة الفرد العقلية حتى البلوغ فإنه غالباً ما يكون مرضاً.

بهذا تكتمل قائمة الحيل الدفاعية التي ناقشناها: الكبت، والتكوين العكسي، والأبطال، والإنكار، والإسقاط، والانقلاب على الذات، والتقمص، والاستدماج، والنكوص، وكلها تعمل على حد سواء في حالات النمو و الأداء النفسي السوي، وكذلك في حالات المرض النفسي.

يرتبط ما سماه فرويد (1905b) بالإعلاء مع الحيل الدفاعية السابقة رغم تميزه عنها. وقد اعتبر الإعلاء في البداية النسخة السوية من الحيل الدفاعية، التي اعتبرت وقتها مرتبطة بالاختلال وسوء التوافق النفسي. وفي الوقت الحاضر يعبر مصطلح الإعلاء عن مظاهر معينة من أداء الأنا السوي لوظائفه. سبق وأن كررنا في الفصل الثالث وفي هذا الفصل أن الأنا يقوم بوظائفه عادة بطريقة تضمن الحصول على الدرجة القصوى من إشباع الدافع بشكل ينسجم مع القيود المفروضة من البيئة. لنأخذ من أجل توضيح الإعلاء مثال الرغبة الطفولية في اللعب بالبراز، والتي هي بالطبع مشتق غريزي. فهذه الرغبة تقابل في ثقافتنا بمعارضة قوية من قبل الوالدين، مما يترتب عليه غالباً تخلي الطفل عن اللعب بالبراز، والتحول بدلاً عن ذلك للعب بالطين، الذي قد يستبدل فيما بعد بعمل النماذج الصلصالية، وقد تنتهي بالشخص إلى أن يصبح أحياناً هاوياً أو حتى نحاتاً محترفاً. وتشير الاستقصاءات النفسية التحليلية إلى أن كلاً من هذه الأنشطة البديلة توفر درجة من الإشباع للنزوة الطفولية الأصلية في اللعب بالبراز. غير أنه في كل مثال يتم تحوير النشاط الأصلي المرغوب في اتجاه يحظى بالقبول والاستحسان الاجتماعي. علاوة على ذلك، تصبح النزوة الأصلية لاشعورية في عقل الشخص الممارس للنحت أو عمل النماذج الصلصالية أو الفخارية. وأخيراً، تلعب العمليات الثانوية دوراً هاماً في معظم هذه الأنشطة البديلة أكثر مما تلعبه من دور في النشاط أو الرغبة الطفولية الأصلية. وهذا المثال أقل وضوحاً منه في حالة الشخص الذي أصبح أخصائياً في الديدان المعوية وليس نحاتاً.

وما نسميه إعلاء هو ذلك النشاط البديل الذي ينسجم مع متطلبات البيئة، ويوفر في

نفس الوقت مقياساً للإشباع اللاشعوري للرغبة الطفولية التي كفت في شكلها الأصلي. وتمثل أمثلتنا عن اللعب بالطين، والنحت، وعمل النماذج الصلصالية، ودراسة الديدان المعوية، تمثل كلها إعلاء لرغبة اللعب بالبراز. كما يمكن القول بأنها تمثل المظاهر السوية لنشاط الأنا، عند مستويات عمرية مختلفة، في محاولته التوفيق بين إشباع رغبات الهو ومتطلبات البيئة بشكل تام وناجح قدر الإمكان.

قراءات إضافية

Freud, S., Inhibitions, symptoms and anxiety. Standard edition, vol. 20,pp.77-174,1959. Also published as The problem of anxiety, New York: Norton,1964.

Freud, A., The ego and the mechanisms of defence. The writings of Anna Freud ,Vol., IV. New York: International Universities Press,1966.

الفصل الخامس

الجهاز النفسي (ملخص)

The psychic Apparatus (concluded)

سوف نناقش في هذا الفصل الختامي عن التركيب الافتراضي للجهاز النفسي بعضاً من أوجه علاقة الفرد مع المحيطين به. كما سوف نناقش أيضاً موضوع نمو الأنا الأعلى. وكما هي العادة سوف نبدأ من حالة العلاقة المبكرة متتبعين موضوعنا عبر أطوار نمو الطفل وحتى حياته المتأخرة.

كان فرويد أول من قدم لنا صورة جلية عن أهمية علاقتنا بالآخرين لحياتنا النفسية. وأولى هذه الصلات هي، طبعاً، علاقة الطفل بأبويه، وهي في معظم الحالات علاقة مقصورة على الأم أو بديل الأم، ثم تأتي فيما بعد علاقة الطفل بأشقائه ورفقاء لعبه وأبيه.

أشار فرويد إلى أن الأفراد الذين يتعلق الطفل بهم في باكورة حياته لهم تأثير مميز على حياته العقلية. وهذا يحدث بغض النظر عما إذا كانت علاقة الطفل بهؤلاء علاقة حب أو كره أو الاثنين معاً، رغم أن الأخيرة أكثر شيوعاً. إن أهمية هذه الروابط المبكرة ترجع إلى كون هذه العلاقات المبكرة تؤثر على مسار نمو الطفل بشكل لا يتيسر للعلاقات المتأخرة، وذلك لكونها متأخرة. كما ترجع في جزء منها أيضاً إلى حقيقة أن الطفل في سنواته الأولى يكون إلى حد ما قاصراً لفترة طويلة من الزمن. ونتيجة لفترة العجز الطويلة يصبح الطفل معتمداً على بيئته في الحماية والإشباع لفترة طويلة أكثر من أي كائن آخر. بمعنى آخر، تلعب العوامل البيولوجية دوراً هاماً في تحديد خاصية ودلالة علاقاتنا الاجتماعية لكونها تنشأ عن مرحلة المهد الطويلة التي تميز نمونا كبشر.

يستخدم مصطلح موضوع (object) في كتابات التحليل النفسي للتعبير عن أشخاص أو أشياء من البيئة الخارجية تكون ذات مدلول نفسي في الحياة النفسية للفرد،

سواء أكانت أشياء حية أو جامدة. وبالمثل تشير عبارة العلاقات بالموضوع (object relations) إلى سلوك الفرد واتجاهاته نحو هذه الموضوعات. وهذه المصطلحات سوف تستخدم في مناقشتنا التالية.

كما سبق وأن ذكرنا في الفصل الثالث، ليس للطفل في مراحل حياته المبكرة أي دراية بال "موضوعات" كما هي، وإنما يتعلم تمييز نفسه عن الموضوع تدريجياً خلال الأشهر الأولى من النمو. وكما سبق أن أوضحنا، فإن من بين أهم موضوعات الطفولة الأجزاء المختلفة لجسم الطفل نفسه مثل أصابع يديه، وأصابع قدميه، وفمه... الخ. كل هذه الأجزاء تشكل أهمية قصوى كمصدر للإشباع، وهي لذلك مشحونة بالليبيدو. وبتعبير أدق، فإن الرموز النفسية لهذه الأجزاء من جسم الطفل تكون مشحونة بدرجة قوية، وليس كما اعتقد بعض المحللين السابقين من أن الليبيدو يشبه الهرمون في إمكانية نقله إلى أي جزء من الجسم واستقراره به. لقد سمى فرويد (1914) هذه الحالة من الليبيدو الموجه نحو الذات بالنرجسية على اسم الشاب الإغريقي نرسيس الذي عشق ذاته.

إن المكانة الحالية لمفهوم النرجسية في نظرية التحليل النفسي غير مؤكدة، وهذا راجع إلى أن هذا المصطلح طوره فرويد قبل صياغة النظرية الثنائية في الغرائز. ولذلك، فالغرائز الجنسية وحدها احتلت مكاناً في مفهوم النرجسية الذي لم يتآلف مطلقاً وبشكل صريح مع أي من نظرية الغرائز الثنائية أو نظرية الفرضيات البنائية. هل يجب أن نفترض، على سبيل المثال، أن الطاقة الموجهة نحو الذات والنابعة من الغريزة العدوانية هي أيضاً جزء من النرجسية؟ ما هو الجزء من الجهاز النفسي المشحون بالطاقة الغريزية ذي الطبيعة النرجسية؟

هل هو الأنا، أم أجزاء خاصة من الأنا، أم أجزاء أخرى من الجهاز النفسي لم تكتشف حتى الآن ؟ هذه كلها أسئلة لم تتوفر لها إجابة قاطعة حتى الآن.

على أي حال، يظل مفهوم النرجسية فرضاً ضرورياً ومفيداً في نظرية التحليل النفسي رغم كونه لم يطرح للنقاش بشكل عصري إذا جاز التعبير. وعموماً، يدل استخدام المفهوم مع الأشخاص الراشدين على ثلاثة أشياء متداخلة رغم كونها مختلفة إلى حد ما، وهي: (1) طاقة انفعالية عالية للذات، (2) طاقة انفعالية منخفضة للموضوعات الخارجية، (3) علاقة مرضية وغير ناضجة مع هذه الموضوعات. غير أنه حينما يستخدم هذا المصطلح مع الأطفال، فإنه يشير بشكل عام إلى ما نعتبره سمة أو مرحلة سوية من النمو المبكر. ومن المفيد أن نضيف بأن فرويد اعتبر أن الجزء الأكبر من الليبيدو يظل طوال الحياة نرجسياً، أي موجهاً نحو الذات. وهذا يشار إليه غالباً على أنه نرجسية سوية وصحية. كما افترض فرويد أيضاً أن تلك القوى الليبيدية التي تشحن انفعالياً الرموز النفسية لموضوعات العالم الخارجي تحمل نفس العلاقة لجسم الليبيدو النرجسي مثلما يفعل امتداد الأميبيا الكاذب لجسمها. بمعنى أن الموضوع الليبيدى انفصل عن ليبيدو نرجسي، وقد يعود إليه إذا ما تم التخلي عن الموضوع فيما بعد لأي سبب.

لنعد الآن إلى نقطة نمو العلاقة بالموضوع. إن اتجاه الطفل نحو الموضوعات الأولى التي يدركها هو بطبيعته أناني خالص. فالطفل يكون في البداية مهتماً فقط بما يعرضه الموضوع من إشباع، أي بما يمكن تسميته بالجانب المشبع للحاجة من الموضوع. فمن المفترض أن ارتباط الشحنة الانفعالية بالموضوع يتم أولاً حينما يحس الطفل حاجة ما يمكن

إشباعها عن طريق الموضوع، وإلا فإنها تصبح من الناحية النفسية غير موجودة بالنسبة للطفل. إن نمو العلاقة المتواصلة مع أي موضوع، كما نفترض، تتحقق فقط تدريجياً، ونعني بذلك وجود شحنة موضوع ثابتة حتى مع غياب الإشباع الفوري الذي يوفره هذا الموضوع. ويمكن التعبير عن نفس الفكرة بمصطلحات أكثر ذاتية بالقول أن الطفل يُنمِّي تدريجياً اهتمامات بموضوعات بيئته تستمر وتتواصل حتى ولو لم يكن يبحث عن متعة أو إشباع من هذه الموضوعات. ففي البداية، مثلاً، تصبح الأم مثار اهتمام الطفل حينما يكون فقط جائعاً أو يحتاجها لداع ما، ولكن في مرحلة متأخرة تصبح الأم ذات أهمية نفسية متواصلة وليس فقط أهمية عرضية.

لا تتوفر لنا معرفة جيدة بالطرق المحددة التي تتشكل بها العلاقة المستمرة مع موضوع ما، ولا على المراحل التي تمر عبرها، خاصة المراحل المبكرة جداً. وإحدى الحقائق التي تستحق التنويه هي أن الموضوعات المبكرة تشكل ما نسميه بالموضوعات الجزئية part objects. هذا يعني أنه يجب أن يمر وقت طويل، على سبيل المثال، قبل أن توجد الأم كموضوع مفرد عند الطفل؛ إذ قبل ذلك تشكل زجاجة الرضاعة، أو ثدي الأم، أو وجهها، أو يدها... الخ، موضوعات منفصلة في الحياة العقلية للطفل، وأحياناً قد تصبح حتى المظاهر المختلفة، لما يعتبر من الناحية المادية موضوعاً واحداً، مواضيع متمايزة بالنسبة للطفل أكثر من كونها مواضيع مترابطة وموحدة. على سبيل المثال، قد يكون وجه الأم المبتسم موضوعاً يختلف بالنسبة للطفل عن وجهها العابس، وصوتها الودود موضوعاً يختلف عن صوتها الغاضب... الخ. وقد يمر بعض الوقت قبل أن يدرك الطفل هذين الوجهين أو الصوتين على

أنهما موضوع واحد.

وفي اعتقادنا، تنمو العلاقة المتواصلة بالموضوع خلال الجزء الأخير من السنة الأولى من حياة الطفل. وإحدى الخصائص الهامة لمثل هذه العلاقة المبكرة بالموضوع هي الدرجة المرتفعة لما نسميه التناقض الوجداني. يعني أنه، وحسب الظروف، قد تتعاقب وبنفس الدرجة من الحدة مشاعر الحب ومشاعر البغض. قد نتساءل، حقاً، فيما إذا كان يمكن اعتبار الرغبات والخيالات المدمرة تجاه الموضوع، والتي نفترض وجودها في نهاية السنة الأولى من حياة الطفل، عدائية في مقصدها. إنها وبدون شك سوف تؤدي إلى تدمير الموضوع إذا ما نفذت، غير أن الرغبة الطفولية الصغيرة، أو تخيل ابتلاع الأم أو الثدي هو تعبير بدائي عن الحب والبغض معاً. وعلى العموم، فمع نهاية السنة الثانية يبدأ الطفل في اختبار مشاعر الغضب والمتعة تجاه نفس الموضوع.

يستمر هذا التناقض الوجداني عادة طوال حياة الفرد، إلا أن حدته تنخفض أثناء مرحلة الطفولة المتأخرة مقارنة لما كان عليه الحال خلال السنة الثانية إلى الخامسة، ثم يستمر هذا الانخفاض بشكل كبير في مرحلة المراهقة والبلوغ. لكن تناقص التناقض الوجداني غالباً ما يكون ظاهرياً أكثر منه حقيقي. وغالباً ما تعكس المشاعر الواعية عن الموضوع نصف التناقض الوجداني، بينما يظل النصف الآخر مكبوتاً في اللاشعور، ومع ذلك يمارس تأثيره القوي على حياة الفرد العقلية. وكما هي العادة، غالباً ما ترتبط مثل هذه التناقضات الوجدانية المتواصلة بأعراض وصراعات عصابية حادة.

الخاصية الأخرى للعلاقة المبكرة بالموضوع هي ظاهرة تقمص الموضوع، وقد ناقشناها

في الفصل الثالث عندما أشرنا إلى الأهمية القصوى لذلك الدور الذي يلعبه التقمص في العمليات المعقدة لنمو الأنا. ورغم وجود دوافع كثيرة للتقمص، إلا أن أي علاقة بموضوع تحمل معها ميلاً للتوحد معه، أي أن تصبح مثله، وكلما كانت مرحلة نمو الأنا أكثر بدائية، كان أكثر وضوحاً في ميله للتقمص.

يمكننا أن نتبين، إذن، أن العلاقات بالموضوع، خاصة في المرحلة المبكرة من الحياة، تلعب دوراً هاماً في تطور الأنا، حيث أن جزءاً من الأنا هو إلى حد ما ثمرة هذه العلاقات. إضافة إلى أن العلاقات غير الكافية وغير المرضية مع الموضوعات، أي مع البيئة الخارجية في باكورة الحياة تحول دون تطور وظائف الأنا التي ناقشناها في الفصل الرابع وهي اختبار الواقع والسيطرة على الدوافع (Spitz,1945;Beres and Obers,1950). بهذا الشكل قد تتهيأ الظروف مبكراً لصعوبات نفسية حادة تظهر إما في مرحلة الطفولة المتأخرة أوفي مرحلة البلوغ (Hartmann,1953a).

وكما سبق القول في الفصل الثالث، يستمر معنا الميل للتوحد مع الموضوعات المشحونة شحناً عالياً وبشكل لاشعوري طوال حياتنا، رغم أنه لا يشغل عادة المركز المهيمن في مرحلة الحياة المتأخرة الذي كان يشغله في مرحلة الطفولة المبكرة. وهذه المثابرة اللاشعورية لنزوع التوحد مع الموضوع ليست سوى مثالاً واحداً لسمة عامة لكثير من الخصائص والأشكال المبكرة لأداء العقل لوظائفه، والتي رغم النضج على مستوى الحياة العقلية الواعية، مازالت تعيش معنا رغم عدم درايتنا بوجودها وعملها.

لكن إذا استمر التوحد يلعب دوراً مسيطراً في العلاقة بالموضوعات خلال مرحلة

الرشد، فإننا نعتبر ذلك دليلاً على خلل حاد في نمو الأنا يمكن اعتباره مرضياً. لقد قدمت هيلين دوتش Helene Deutsch (1934،1942) أول الأمثلة الصارخة على مثل هذا النمو المختل أطلقت عليه شخصيات "كما لو أن" .as if" personalities" وهؤلاء هم الأفراد الذين تتبدل شخصياتهم مثل تبدل لون الحرباء بتبدل علاقاتهم بالموضوع. فإذا أحب أحدهم شخصاً مثقفاً، فإن شخصيته واهتماماته سوف تتبدل لتتوافق مع نمط المفكر العقلاني. ولكن إذا تخلى فيما بعد عن هذه العلاقة، وأصبح متعلقاً بأحد المجرمين، فإن شخصيته سوف تتغير لتلائم نمط تلك الحياة. وكما هو متوقع من مناقشتنا السابقة، فقد اكتشفت هيلين دوتش أن علاقات هؤلاء المرضى المبكرة بالموضوع، كعلاقاتهم بأبويهم مثلاً، كانت مختلة إلى حد كبير. ومنذ ذلك الوقت، ورد ذكر حالات مشابهة عن توقف نمو الأنا أو عن نموه الخاطئ، منها مثلاً ما ذكرته آنا فرويد (b1954).

غالباً ما يشار إلى هذه المراحل المبكرة من العلاقات بالموضوع والتي وصفناها سابقاً بعلاقات موضوع المرحلة قبل التناسلية، وأحياناً ،وبشكل أدق، بعلاقات موضوع المرحلة الفمية ،أو الشرجية. وبالمناسبة فالاستعمال الشائع لكلمة ما قبل التناسلية في هذا السياق غير دقيق؛ والمصطلح الدقيق هو ما قبل القضيبية. وعموماً، تسمى علاقات الطفل بالموضوع في مؤلفات التحليل النفسي وفقاً لمنطقة الشبق الجنسي التي تلعب الدور الرئيسي في الحياة الليبيدية للطفل وقتها.

هذه التسمية لها دلالتها التاريخية. فقد درس فرويد مراحل النمو الليبيدي قبل دراسته المظاهر الأخرى للحياة العقلية لهذه الفترات المبكرة التي كان أيضاً أول من وضحها،

لذلك كان طبيعياً أن تستخدم أسماء مراحل النمو الليبيدي فيما بعد لوصف كل مظاهر تلك الفترة من حياة الطفل. على أنه عندما يتعلق الأمر بالعلاقات بالموضوع، فإن استخدام المصطلح الليبيدي يتضمن أكثر من مجرد قيمة تاريخية. إنه يذكرنا بأن الدوافع، وربما الحافز الجنسي بشكل خاص، هي التي تسعى وراء الموضوعات، حيث من خلال الموضوعات فقط يمكن تحقيق التصريف والوصول إلى الإشباع. إن أهمية العلاقة بالموضوعات تتحدد في المقام الأول بوجود المطالب الغريزية، وتحتل علاقة الدافع بالموضوع أهمية خاصة على مدى الحياة. إننا نؤكد على هذه الحقيقة لأنها أحياناً ما تضيع إزاء ما تم اكتشافه حديثاً من روابط بين العلاقة بالموضوع ونمو الأنا.

عندما يصل عمر الطفل من سنتين ونصف إلى ثلاث سنوات ونصف فإنه سيدخل إلى ما سوف يصبح أكثر علاقاته حدة وحسماً بالموضوع في حياته كلها. ومن وجهة نظر الدوافع، كما يذكر القارئ من مناقشتنا في الفصل الثاني، تتغير الحياة النفسية للطفل عند هذه المرحلة من المستوى الشرجي إلى المستوى القضيبي. هذا يعني أن معظم النزوات والرغبات الرئيسة أو الحادة التي يخبرها الطفل تجاه موضوعات حياته الغريزية سوف تكون من الآن فصاعداً قضيبية. هذا لا يعني أن الطفل سوف يتخلى بشكل كلي وسريع عن الرغبات الفمية والإستية التي سيطرت على حياته الغريزية في المراحل المبكرة. على العكس من ذلك، كما سبق أن اشرنا بالفصل الثاني، تستمر رغبات ما قبل المرحلة القضيبية وبشكل واضح إلى المرحلة القضيبية نفسها. غير أن دورها في هذه المرحلة يكون ثانوياً أكثر منه رئيسياً.

تعتبر المرحلة القضيبية مختلفة عن المراحل السابقة وذلك من وجهة نظر كل من الأنا

والدوافع. ففي حالة الأنا، تعود الاختلافات إلى النمو المتصاعد لوظائف الأنا، والتي تميز كل سنوات الطفولة وخصوصاً السنوات المتقدمة، حيث التغيرات في الحياة الغريزية، أي في الهو من فمية إلى إستية إلى قضيبية، تعود أساساً في اعتقادنا إلى ميول بيولوجية موروثة.

فالأنا ذو الثلاث إلى أربع سنوات أكثر خبرة وتطوراً وتكاملاً، ومن ثم فهو مختلف من أوجه عدة عن أنا الطفل الذي عمره من سنة إلى سنتين. هذه الاختلافات واضحة في ذلك المظهر من وظائف الأنا الذي نهتم به الآن، أي تلكم المظاهر المرتبطة بالأنا من علاقات الطفل بالموضوع. في هذه المرحلة العمرية لم يعد للطفل، إذا كان نموه سوياً، علاقات بأجزاء الموضوع. وهكذا، فعلى سبيل المثال، الأجزاء المتعددة لجسم الأم، ومزاجها المتغير، وأدوارها المتباينة من الأم "الطيبة " المشبعة لرغبات الطفل والأم " السيئة " المحبطة لهذه الرغبات – كل ذلك يدركه الطفل في هذا العمر كمكون لموضوع واحد يسمى الأم. علاوة على ذلك، تكون علاقة الطفل بالموضوع قد اكتسبت في هذا الوقت درجة ملحوظة من الثبات أو الاستقرار. إذ تستمر الشحنات الانفعالية الموجهة ناحية موضوع ما رغم الغياب الوقتي للحاجة لذلك الموضوع، حتى أنها لتستمر رغم الغياب الطويل جداً للموضوع نفسه، وهو ما لا يصدق على المراحل المبكرة من نمو الأنا. إضافة إلى ذلك، ففي الوقت الذي تجري فيه المرحلة القضيبية على قدم وساق يكون الطفل قادراً على التمييز بوضوح بين ذاته والموضوع، ويفهم الموضوعات كأفراد مثله تماماً لهم أفكار ومشاعر مشابهة. حقاً، تصل هذه العملية الأخيرة إلى درجة يمكن اعتبارها غير واقعية، وذلك أولاً بسبب الاعتقاد بأن الحيوانات والألعاب تشبه البشر، وثانياً لأن أفكار ونزوات الطفل الخاصة تكون مهيأة

للإسقاط على أشخاص آخرين بطريقة خاطئة، كما لاحظنا ذلك في الفصل الرابع. مع ذلك، فالنقطة الأساسية التي نرغب في توضيحها هنا هي أن نمو الأنا عند الطفل يكون قد وصل بحلول المرحلة القضيبية إلى مستوى تصبح معه العلاقة بالموضوع ممكنة ومساوية لعلاقات مرحلة الطفولة المتأخرة والبلوغ، رغم أنها قد لا تكون مطابقة لهما تماماً في جميع المظاهر. إن طبيعة الوعي الذاتي للطفل ذي الأربع أو الخمس سنوات وطبيعة إدراكه للموضوعات يجعل من الممكن وجود مشاعر الحب أو الكره لموضوع ما، إضافة إلى مشاعر الغيرة، والخوف، والغضب من المنافس التي تتضمن كل الخصائص الجوهرية لمثل هذه المشاعر في مرحلة العمر المتأخرة.

إن أهم العلاقات بالموضوع في المرحلة القضيبية هي تلك المجموعة معاً تحت اسم مركب أوديب. وبالفعل تسمى مرحلة الحياة من سنتين ونصف إلى ست سنوات بالمرحلة الأوديبية، أوالطور الأوديبي، كما تسمى غالباً بالمرحلة القضيبية، أو الطور القضيبي. والعلاقات بالموضوع التي تُكوّن مركب أوديب هي ذات أهمية قصوى لكل من النمو العقلي السوي وغير السوي. لقد اعتبر فرويد أحداث هذه المرحلة من الحياة حرجة (Freud,1924a)، وفي الواقع، رغم أننا نعلم الآن بأنه ما تزال هناك أحداث مبكرة قد تكون حرجة بالنسبة لبعض الأفراد، بحيث أن أحداث المرحلة الأوديبية أقل أهمية في حياتهم من أحداث ما قبل المرحلة الأوديبية أو ما قبل المرحلة القضيبية، إلا أنه مازال يبدو أن أحداث المرحلة الأوديبية ذات دلالة حاسمة عند معظم الأشخاص ،وذات دلالة هامة عند الجميع تقريباً.

تطورت معرفتنا بمركب أوديب بالطريقة التالية. اكتشف فرويد في وقت مبكر وجوداً منتظماً في الحياة العقلية اللاشعورية لمرضاه العصابيين عن تخيلات لغشيان المحارم من الجنس المقابل من الأبوين، ممتزجة بمشاعر الغيرة والغضب ضد الوالد من نفس الجنس. وبسبب الشبه بين هذه التخيلات والأسطورة الإغريقية لأوديب، الذي، بدون معرفته، قتل أباه وتزوج أمه، أطلق فرويد على هذه المجموعة من الأشخاص والصفات مركب أوديب (Freud,1900). وفي غضون العشر أو الخمس عشرة سنة الأولى من القرن الماضي أصبح واضحاً أن مركب أوديب ليس فقط صفة للحياة العقلية اللاشعورية للعصابيين، بل على العكس موجود لدى الأشخاص الأسوياء أيضاً. إن وجود مثل هذه الرغبات في مرحلة الطفولة والصراعات الناجمة عنها هي في الواقع خبرة شائعة لدى كل الجنس البشري. وكما أوضح كثير من الأنثروبولجيين، توجد في الثقافات المختلفة عن الثقافة الغربية اختلافات في الحياة العقلية والصراعات بمرحلة الطفولة، غير أن الدليل المتوفر في الوقت الحاضر يتحدث عن وجود نزوات محارمية وأبوية وعن صراعات حولها في كل حضارة معروفة (Róheim,1950).

وإضافة إلى إدراكنا لعالمية مركب أوديب، فقد ازداد فهمنا للرغبات الأوديبية نفسها خلال العقدين الأولين من القرن العشرين ليشمل ما سمي أولا بالرغبات الأوديبية العكسية، أو السلبية، أي تخيلات غشيان المحارم مع الوالد من نفس الجنس ورغبات قتل الوالد من الجنس المخالف. لقد كان الاعتقاد في البداية أن هذه المجموعة من الانفعالات والتخيلات ظاهرة استثنائية، غير أنها تفهم الآن باعتبارها حالة عامة.

هذا إذن، في خلاصة قصيرة، بيان كامل لما نسميه بعقدة أوديب. إنه اتجاه مزدوج ناحية كلا الأبوين: فمن ناحية هناك رغبة لإزاحة الأب المكروه بسبب الغيرة وأخذ مكانه، ومن الناحية الأخرى رغبة في إزاحة الأم المكروهة بسبب الغيرة وأخذ مكانها.

لنرى إن كان في إمكاننا تقديم معنى أكثر واقعية لهذه الصياغة المكثفة للغاية بمحاولة تتبع التطور النموذجي لعقدة أوديب بطريقة منهجية. لكن قبل أن نبدأ، لابد من كلمة تنبيه. إن أهم حقيقة يجب تذكرها فيما يتعلق بعقدة أوديب هي قوة وصلابة المشاعر المتصلة بها. إنها قصة حب حقيقية. وبالنسبة لكثير من الناس، فهي أكثر العلاقات حدة في حياتهم كلها، ولكنها على أي حال في مستوى شدة أي علاقة يُقَدَّرُ للفرد أن يعيشها في أي وقت. إن الوصف التالي لا يمكنه البدء بنقل ما يجب على القارئ أن يضعه في اعتباره عند قراءته له: حدة عاصفة عاطفة الحب والكره، وحدة زوبعة عاطفة الصبا والغيرة، وحدة زوبعة عاطفة الغضب والخوف التي تحتدم في باطن الطفل. هذا هو ما نتحدث عنه حينما نحاول وصف عقدة أوديب.

عند بداية المرحلة الأوديبية، يمر الطفل عادة، سواء أكان ولداً أم بنتاً، بأقوى علاقاته بالموضوع مع أمه. ونعني بذلك أن الرموز العقلية للأم تكون مشحونة بقوة أكثر من غيرها، ماعدا تلك الخاصة بالطفل نفسه، لا سيما جسمه. وهذا استثناء هام، كما سنرى لاحقا. والخطوة الأولى الواضحة إلى الطور الأوديبي، إذن، هي نفسها بالنسبة لكلا الجنسين، على ما نعلم، وتتكون من امتداد العلاقة الموجودة سابقاً مع الأم لتشمل إشباع الحوافز الإنسالية المتيقظة عند الطفل. في نفس الوقت، تظهر عند الطفل رغبة في أن يكون موضع

إعجاب الأم وحبها الحصري، والذي يرتبط افتراضياً بالرغبة في أن يكبر ويكون "الأب" أو "يفعل ما يفعله الأب" مع الأم. أما ما "يفعله الأب" فمن الطبيعي أن الطفل عند هذا العمر لا يمكن أن يدركه بوضوح. ومع ذلك، ومن ردود فعله البدنيه، وبغض النظر عن أي فرصة لملاحظة أبويه، يربط هذه الرغبات مع الأحاسيس الموجودة بعضوه التناسلي، وفي حالة الولد، مع أحاسيس وظاهرة الانتصاب. وكما اكتشف فرويد مبكراً أثناء عمله مع المرضى العصابيين، فإن الطفل قد يطور واحداً أو عدداً من تخيلات شتى حول النشاط الجنسي لوالديه والتي يرغب في تكرارها مع الأم. فقد يستنتج، على سبيل المثال، أنهما يدخلان الحمام معاً، أو أنهما يتبادلان النظر إلى أعضائهما التناسلية، أو يمسكان بها في السرير معاً. وكما يمكن ملاحظته، فإن هذا الحدس أو الخيال يرتبط عموماً بخبرات الطفل السارة مع البالغين والتي أصبح مع بداية الطور الأوديبي معتاداً عليها وعلى أنشطته الشهوية التلقائية الخاصة. إضافة إلى ذلك، فمما لاشك فيه أنه وبمرور الشهور والسنوات تتطور الخيالات الجنسية للطفل بتطور خبرته ومعرفته. ونضيف إلى ذلك أيضاً أن الرغبة في منح الأم أطفالا، مثلما يفعل الأب، هي واحدة من أهم الرغبات الأوديبية وأن النظريات الجنسية عن هذه المرحلة تنصب أساساً على كيفية حدوث ذلك، مثلما تهتم بكيفية ولادة الأطفال.

إلى جانب الصبابة بالأم والرغبة في أن يكون موضع حبها الوحيد تظهر الرغبات في تدمير وزوال أي منافس، والذي هو عامة الأب والأشقاء[1]. ومنافسة الأشقاء لها أكثر من

[1]. يعلم القارئ المتخصص مدى تهافت هذه الأفكار وضعفها، وانها لم يعد لها مكان في علم النفس العاصر. غير أننا حفاظاً على أمانة النقل نوردها كما هي، ونثق في عقل القارئ وقدرته على النقد والتمييز، وعلى إلمامه ومعرفته بالموضوع ،وما يحيط به من انتقادات واعتراضات حتى في العالم الغربي (المترجم).

سبب، غير أن السبب الأساسي بكل تأكيد هو الرغبة في الملكية الحصرية للأبوين.

تثير رغبات الغيرة والقتل هذه صراعات حادة داخل الطفل لسببين. أولهما، الخوف الواضح من الانتقام، خاصة من الأب، الذي يظهر للطفل عند ذلك العمر قادراً على فعل كل شيء. الثاني، أنها تتعارض مع مشاعر الحب والإعجاب وفي كثير من الأحيان، مع مشاعر الطمع والاعتماد على الوالدين والأشقاء الكبار، إضافة إلى الخوف من استهجان الأبوين للرغبة في تدمير الشقيق الأصغر. بعبارة أخرى، يخشى الطفل من الانتقام ومن فقدان الحب كنتيجة لرغبات الغيرة لديه.

ابتداء من هذه النقطة، سوف يكون من الملائم أن ندرس وبشكل منفصل تطور عقدة أوديب عند كل من البنت والولد. وسوف نبدأ من الأخير.

لقد ظهر لنا من خلال خبرة التحليل لكثير من الكبار والصغار، إضافة إلى الأدلة من الأنثروبولوجيا، والدين، والأساطير الشعبية، والإبداعات الفنية، والمصادر المختلفة الأخرى، أن الانتقام الذي يخشاه الولد الصغير جراء رغباته الأوديبية ناحية أمه هو فقدان قضيبه. وهذا هو المقصود في مؤلفات التحليل النفسي بمصطلح الخصاء. والدليل حول لماذا يشكل ذلك خوفاً للولد، بغض النظر عن البيئة الثقافية أو الفردية لطفولته، قد تمت صياغته ومناقشته بطرق مختلفة من قبل مؤلفين مختلفين، ولسنا في حاجة لأن نشغل أنفسنا بمناقشتهم حول هذه النقطة. ويكفي، فيما يتعلق بغايتنا، أن نعرف أن تلك هي الحقيقة.

إن ملاحظة الطفل لوجود أشخاص حقيقيين ليس لهم قضيب، يعني البنات أو النساء، تقنعه بأن إخصاءه ممكن. فقدان هذا العضو الجنسي، الذي يثمنه عالياً، يفجر

صراعاً حاداً حول رغباته الأوديبية، وهذا الصراع يؤدي في النهاية إلى إنكار هذه الرغبات، جزئياً بهجرها وفي جزء آخر بكبتها. وهذا يعني أنها أُبعِدت إلى أعماق في العقل اللاواعي للطفل يتعذر الوصول إليه.

ويتعقد الموقف من كون الطفل تثيره غيرة حانقة من أمه لرفضها رغبته في تملكه الحصري لمداعباتها ولجسمها، وهذا من شأنه أن يعزز أو يبعث على رغبة الخلاص منها (قتلها)، وأن يكون محبوباً من أبيه بدلا منها. وبما أن هذا أيضاً يؤدي إلى الخوف من الخصاء، ما إن يعلم أنه لكي يكون امرأة يعني أن يصبح بدون قضيب، فإن هذه الرغبات أيضاً يتم كبتها في نهاية الأمر.

وهكذا نرى أن كلا من الرغبات الذكورية والأنثوية للمرحلة الأوديبية تثير قلق الخصاء، وحيث أن الولد الصغير ليس ناضجاً، فسيولوجياً أو جنسياً، ففي إمكانه فقط حل هذه الصراعات التي أثارتها رغباته إما بالتخلي عنها، أو بإخضاعها للمراقبة عن طريق ميكانيزمات الدفاع المختلفة والعمليات الدفاعية الأخرى للأنا.

أما بالنسبة للفتاة الصغيرة فالموقف أكثر تعقيداً. فرغبتها للعب دور الرجل مع أمها لا يقوم على الخوف من الخصاء، حيث أنها قطعاً ليس لها قضيب. ونتيجة لذلك ينتهي بها الأمر إلى الحزن لإدراكها أنها غير مجهزة على هذا النحو، وهو إدراك يجلب معه مشاعر حادة من الخجل، والنقص، والغيرة (حسد القضيب)، والغضب تجاه أمها التي سمحت بولادتها دون قضيب. ومن الطبيعي في حالة غيظها وقنوطها أن تتحول إلى والدها كموضوع حبها الأساسي على أمل أن تأخذ مكان والدتها. وحينما تحبط أيضاً كل هذه الرغبات، كما يقتضيه

مجرى الأحداث الطبيعي، فإن الفتاة الصغيرة قد تعود مرة أخرى إلى تعلقها المبكر بأمها، وتظل ملتزمة، في سلوكها النفسجنسي طوال حياتها، برغبتها في أن تكون رجلاً ولها قضيب. ومع ذلك، فما هو معتاد أكثر أن ترغم الفتاة الصغيرة، بعد صدها من أبيها، على التخلي عن رغباتها الأوديبية وكبتها. وفي حالة الفتاة الصغيرة فالمناظر لقلق الخصاء، الذي هو مُحَدِّد حاسم لمصير الرغبات الأوديبية عند الولد الصغير، هو أولاً، الغيرة والخزي اللذين يشار إليهما بمصطلح ''حسد القضيب'' وثانياً، الخوف من جرح القضيب نتيجة لرغبة الفتاة في التخصيب impregnated من الأب.

سوف يدرك القارئ أن هذا العرض المكثف للغاية للعناصر الأساسية في عقدة أوديب هو عرض تخطيطي إلى حد كبير. والحقيقة، أن الحياة العقلية لأي طفل في هذه المرحلة هي فريدة بالنسبة له، وتتأثر تأثراً عميقاً بخبراته خلال السنتين الأوليين من حياته، التي سبقت المرحلة الأوديبية، وبأحداث الطور الأوديبي نفسه. على سبيل المثال، يستطيع المرء أن يتخيل العواقب الهائلة التي سوف تترتب على مرض، أو غياب، أو موت أي من الأبوين أو الأخوة، أو تترتب على ولادة أخ جديد، أو على مشاهدة الاتصال الجنسي بين الأبوين أو غيرهم من البالغين، أو على الإغواء الجنسي للطفل من قبل شخص بالغ ،أو طفل أكبر سناً، إذا ما حدث أي من هذه خلال المرحلة الأوديبية.

إضافة إلى هذه العوامل البيئية، فإن من الممكن في تصورنا أن يختلف الأطفال في استعداداتهم وقدراتهم الجبلية. لقد ذكر فرويد (1937) الاختلاف في الاستعدادات الفطرية التي قد تحدث، على سبيل المثال، في الميل نحو الثنائية الجنسية، أي في نزوع الولد ناحية

الأنوثة ونزوع البنت ناحية الذكورة. لقد افترض، ويوافقه على ذلك معظم المحللين، أن درجة من الثنائية الجنسية موجودة بشكل طبيعي على الصعيد النفسي لدى كل كائن بشري. وهذا في الواقع نتيجة طبيعية لأن مركب أوديب يحوي عادة تخيلات للاتحاد الجنسي مع كلا الأبوين. غير أن من الواضح أن الاختلافات والتفاوت في القوة النسبية للمكونات الأنثوية والذكرية للحافز الجنسي تؤثر بدرجة كبيرة على القوة النسبية للرغبات الأوديبية المختلفة.

على سبيل المثال، من المتوقع أن ميلا جبلياً قوياً عند الولد، وبشكل غير معتاد، نحو الأنوثة سوف يكون لصالح نمو مجموعة أوديبية an oedipal constellation حيث الرغبة في الإحلال مكان الأم في الاتحاد الجنسي مع الأب تكون أكثر قوة من الرغبة في الإحلال مكان الأب مع الأم. والعكس صحيح في حالة البنت ذات الميل الجبلي القوي بشكل غير معهود نحو الذكورة. وعلى أي حال، فإن إمكان حدوث ذلك فعلاً في أي حالة فردية خاصة يعتمد بالطبع على المدى الذي قُبِلت أو عورضت به الميول الجبلية من قبل العوامل البيئية. علاوة على ذلك، لا نملك في الوقت الحاضر أي وسيلة مقبولة لتقدير الأهمية النسبية لما قد يكون فطرياً وما قد يكون بيئياً. وفي الواقع، فنحن عموماً في عملنا الإكلينيكي نجهل العوامل الجبلية، ولذلك يغيب عن بالنا أهميتها المحتملة بالمقارنة مع العوامل البيئية، التي عادة ما تكون أكثر جلاء، ومن ثم أكثر لفتاً للانتباه.

مازال هنالك ،على الأقل، جانب واحد آخر مهم للطور الأوديبي لم نذكره بعد ولا يمكننا تجاوزه. تلك هي العادة السرية التي تشكل النشاط الجنسي للطفل خلال هذه المرحلة من حياته. فكلاً من نشاط العادة السرية ،والتخيلات المصاحبة، لها تقوم في جزء كبير منها

مقام التعبير المباشر عن النزوات الجنسية والعدوانية التي يشعر بها الطفل نحو والديه. هل هذا الإحلال للتخيلات والتحفيز الشهوي التلقائي بدلاً عن التصرفات الفعلية تجاه أناس حقيقيين يصبح على المدى البعيد أكثر فائدة أو أكثر أذى للطفل – ذلك يعتمد في جزء منه على نوع القيم والمعايير التي يتبناها الفرد، لكن في جميع الأحوال يبدو السؤال عديم الجدوى. فالاستبدال حتمي، لأن الطفل مجبر عليه في النهاية بحكم القصور في نضجه البيولوجي.

بنهاية المرحلة الأوديبية، يتم التخلي عادة عن العادة السرية، أو اختفائها بشكل كبير، إلى أن تعود من جديد في مرحلة البلوغ. وبينما تُكبَت التخيلات الأوديبية الأصلية، تستمر منها نسخ مقنعة في الوعي في شكل أحلام اليقظة المعتادة أثناء الطفولة، وتواصل ممارسة تأثيرها الهام على كل مظهر تقريباً من الحياة العقلية: على أشكال وموضوعات النشاط الجنسي للبالغين؛ وعلى النشاط الإبداعي، والفني، والمهني، وغيرها من أنشطة متسامية؛ وعلى تكوين الشخصية ؛ وعلى أي أعراض عصابية قد تظهر على الفرد (أنظر الفصول الثامن والتاسع).

مع ذلك، فإن هذه ليست الوسيلة الوحيدة التي يؤثر من خلالها مركب أوديب على الحياة المستقبلية للفرد. إن له بالإضافة إلى ذلك نتيجة محددة ذات أهمية بالغة على الحياة العقلية التالية ننوي مناقشتها الآن. هذه النتيجة هي تكون الأنا الأعلى، ثالث مجموعة الوظائف العقلية التي افترضها فرويد فيما سماه بالفرضيات البنائية للجهاز النفسي.

وكما سبق أن قلنا بالفصل الثالث، يدل الأنا الأعلى بشكل عام على ما نسميه

عادة بالضمير. إنه يتضمن الوظائف الأخلاقية للشخصية، والتي تشمل (1) قبول أو رفض الرغبات والتصرفات على أساس من الاستقامة، (2) المراقبة الذاتية الناقدة، (3) العقوبة الذاتية، (4) الأسف على الخطأ (5) و الثناء على الذات كنوع من المكافأة على الأفكار والأفعال الفاضلة أو المرغوبة. ولكن، على العكس من المعنى المألوف لكلمة "ضمير،" فإن وظائف الأنا الأعلى غالباً ما تكون، كلياً أو بشكل كبير، لا شعورية. وهكذا يكون من الصحيح، كما قال فرويد (1933)، أنه بينما أوضح التحليل النفسي أن البشر أقل أخلاقية مما يظنون، بدليل وجود رغبات لا شعورية لدى كل فرد يرفضها وينكرها على مستوى الوعي، فإنه من ناحية أخرى، برهن على وجود ممنوعات ومطالب أخلاقية أكثر صرامة داخل كل واحد منا تتجاوز معرفتنا الواعية عنها.

وبالعودة إلى موضوع جذور الأنا الأعلى، فإن من المتفق عليه في الوقت الحالي أن بداياته المبكرة، أو ربما من الأفضل القول، نذره المبكرة، تعود إلى الطور ما قبل القضيبي أو ما قبل الأوديبي. فالممنوعات والمطالب الأخلاقية للوالدين، أو للحاضنات، أو للمدرسين والمربين الذين قد يتصرفون كبدائل للأبوين، تبدأ تأثيرها على الحياة العقلية للطفل في وقت مبكر جداً، حيث يظهر تأثيرها واضحاً، عند نهاية السنة الأولى. ويمكن القول في عجالة أن المطالب الأخلاقية في هذه المرحلة المبكرة هي إلى حد ما بسيطة، إذا حكمنا عليها من منظور مستويات الكبار. ومن بين أهم هذه المطالب تلك المتعلقة بالتدريب على ضبط الإخراج. لقد أشار فيرنشي Ferenczi إلى هذه النذر المبكرة للأنا الأعلى بوصفها "فضائل العضلة العاصرة " sphincter morality.

مع ذلك، فالطفل في المرحلة قبل الأوديبية يتعامل مع المطالب الأخلاقية الملقاة عليه باعتبارها جزءاً من بيئته. فإذا كانت الأم، أو أي رقيب أخلاقي آخر، حاضراً بشخصه وأراد الطفل أن يسعده، فإنه سيحجم عن الخطأ. أما إذا كان الطفل لوحده، أو كان غاضباً من أمه، فإنه إما أن يثير استياءها أو يفعل ما يحلو له، لا يردعه سوى الخوف من العقاب. تبدأ الأمور تتغير خلال المرحلة الأوديبية نفسها فيما يتصل بهذه النقطة، وحوالي السنة الخامسة، أو السادسة من العمر، تصبح الأخلاق شأناً داخلياً. وهنا فقط، كما أظن، يبدأ الطفل أولاً في الشعور بأن المعايير الأخلاقية، والمطالب بضرورة الاعتذار عن الخطأ وإصلاحه والمعاقبة عليه، تنبع من داخله وليس من شخص آخر تلزمه طاعته. و فوق ذلك، نعتقد بأن هذه العملية من الاستدخال لن تكون مستقرة بشكل دائم حتى عمر تسع أو عشر سنوات، رغم أنها ما تزال عرضة للإضافة والتحوير خلال المراهقة وإلى حد ما أثناء الرشد.

ما الذي أحدث هذا الاستدخال؟. حسب فهمنا، فإنه أثناء كبت وهجر، أو بمعنى آخر التبرؤ من الرغبات العدوانية والمحارمية، التي تشكل عقدة أوديب، تتحول علاقات الطفل بموضوعات هذه الرغبات إلى توحد معها. وبدلاً من حب وبغض والديه، الذين في اعتقاده سوف يناهضان ويعاقبان مثل هذه الرغبات، يصبح الطفل مثل والديه في إنكاره لهذه الرغبات. وهكذا فالنواة الأصلية للمحظورات عند الأنا الأعلى هي المطالبة بتخلي الفرد عن رغباته العدوانية والمحارمية التي تشكل عقدة أوديب لديه. علاوة على ذلك، يستمر هذا المطلب بوصفه جوهر الأنا الأعلى، وبشكل لا شعوري مدى الحياة.

لذلك نرى بأن الأنا الأعلى له علاقة حميمة بمركب أوديب، تكونت كنتيجة للتوحد

مع مظاهر التحريم والتعاليم الأخلاقية للوالدين – هذا التوحد الذي نشأ في عقل الطفل أثناء عملية انحلال أو زوال عقدة أوديب. فالأنا الأعلى، يتكون أساساً من الانطباعات المستدمجة للمظاهر الأخلاقية للوالدين في المرحلة القضيبية أو الأوديبية.

لنفحص الآن مظاهر محددة من عملية التوحد هذه بتفاصيل أكثر. وبينما نقوم بذلك، يجب أن نضع في اعتبارنا أن مهمة الأنا الأساسية وقت حدوث التوحد هي الدفاع ضد المساعي الأوديبية oedipal strivings.

وما نراه أن قلق الخصاء عند الولد في المقام الأول ،ونظيره عند البنت، هو الذي يشكل الخوف المحفِّز لهذا الصراع، وأن هذا الصراع ذاته يحتل قلب أحداث الحياة العقلية للطفل في هذه السن. وكل شيء آخر هو جزء منه، أو نتيجة له، أو خاضع له.

ومن وجهة نظر الأنا فإن وجود التوحد، الذي يكون الأنا الأعلى، يعد داعماً قوياً لدفاعات الأنا ضد نزوات الهو التي يكافح من اجل السيطرة عليها. هذا يعني أن المحظورات الأبوية قد استقرت بشكل دائم داخل عقل الطفل، حيث يمكنها مراقبة الهو بشكل متواصل. إنه كما لو أن الطفل، بتوحده مع الأبوين بهذه الطريقة، يضمن وجودهما الدائم، وبالتالي كلما هددت نزوة للهو بإظهار نفسها، كان الأبوان قريبين، وعلى استعداد لفرض مطلبهم بصدها.

كما لاحظنا إذن فإن توحدات الأنا الأعلى ميزة للأنا من وجهة النظر الدفاعية. بل يمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول بأنها داعم أساسي للأنا من هذه الناحية. ولكن من وجهة نظر استقلال الأنا وحريته في أن ينعم بالإشباع الغريزي، يشكل توحد الأنا الأعلى

عائقاً كبيراً للغاية. فمنذ تكون الأنا الأعلى، يفقد الأنا مقداراً كبيراً من حريته في التصرف، ويبقى من حينها وللأبد خاضعاً لتسلط الأنا الأعلى. فالأنا لم يكسب فقط حليفاً في الأنا الأعلى، بل سيداً. ومن ذلك الحين، تضاف مطالب الأنا الأعلى إلى مطالب الهو والبيئة الخارجية، التي ينبغي أن ينحني لها الأنا وأن يحاول التوسط بينها. في إمكان الأنا المشاركة في سلطة الأبوين بالتوحد معهم، ولكن فقط على حساب بقائه خاضعاً لهم بشكل دائم.

لقد أبدى فرويد (1923) ملاحظتين إضافيتين فيما يخص تكوين هذه التوحدات، وهي ملاحظات مفيدة نذكرها هنا. أولى هاتين الملاحظتين، هي أن الطفل يتلقى جزءاً كبيراً من نواهي الوالدين كأوامر لفظية أو توبيخ. ونتيجة لذلك، يكون الأنا الأعلى على علاقة وثيقة بالذكريات السمعية، وبصفة خاصة بذكريات الكلام الملفوظ. إن بعضاً من الإدراك البديهي لهذه الحقيقة هو المسئول تقريباً عن الصورة الشائعة عن الكلام الذي يشار إليه بـ "صوت الضمير" ففي حالات النكوص النفسي، مثل الأحلام (Isakower,1954) وأنماط معينة من المرض العقلي الحاد (Freud, 1923)، يُدرَك أداء الأنا الأعلى لوظائفه في صورة كلام ملفوظ يختبره الشخص كأنه قادم من مصدر خارج عنه، تماماً كما كانت أوامر والديه حينما كان صغيراً. غير أنه لا يجب الافتراض بأن الأنا الأعلى مرتبط حصرياً بالمدركات والذكريات السمعية. فذكريات المدركات الحسية الأخرى ،مثل البصرية واللمسية، مرتبطة به أيضاً. فأحد المرضى، على سبيل المثال، الذي كان خائفاً جداً من تخيلاته العدوانية الخاصة، شعر في أوج نوبة قلق حادة، بأن وجهه كان يُلطَم كلما فكر في كونه غاضباً. في هذه الحالة، تم استشعار عملية الأنا الأعلى كعقوبة بدنية قادمة من شخص ما خارجه، بنفس الطريقة

تماماً التي اعتاد والداه معاقبته بها في طفولته.

الملاحظة الثانية لفرويد (1923)، أن الصور الأبوية التي استدمجت لتشكيل الأنا الأعلى هي تلك التي للأنا الأعلى للأبوين إلى حد كبير. يعني، أن ما يحدث عموماً هو أن الأبوين، في تنشئتهم لأطفالهم، يميلون إلى تأديبهم بنفس الطريقة تقريباً التي عوملوا بها من آبائهم في طفولتهم. فمطالبهم الأخلاقية الخاصة، التي اكتسبوها مبكراً في حياتهم، يطبقونها على أطفالهم، الذين تعكس أو تشبه أناهم العليا تلك التي لأجدادهم. وكما أشار فرويد (1923)، فإن لهذه الخاصية نتيجة اجتماعية هامة. إنها تؤدي إلى خلود القواعد الأخلاقية للمجتمع، وهي مسئولة عن مقاومة التغير التي يظهرها البناء الاجتماعي.

لننظر الآن في بعض مظاهر تكوين الأنا الأعلى التي هي أكثر اتصالاً بالهو منها بالأنا. وكما أشار فرويد (1923)، فإن توحدات الأنا الأعلى هي إلى حد ما ناجمة عن هجر العلاقات بالموضوع المحارمي المتصل بمركب أوديب. بهذا المعنى فإن هذه التوحدات هي إلى حد ما ناتجة عن فقدان الموضوع. ويذكر القارئ بأن هذه هي إحدى آليات التقمص التي ناقشناها في الفصل الثالث. وحسب رأينا، حينما تُسحب الشحنات الانفعالية الغريزية من موضوعاتها الأصلية، يقودها بحثها المتواصل عن موضوع آخر إلى تكوين توحد مع الموضوع الأصلي داخل الأنا نفسه فتتعلق به الشحنات. فما كان شحنات موضوع يصبح إذن شحنات نرجسية. وفي الحالة التي تهمنا الآن، فإن التوحدات التي تكونت بهذه الطريقة داخل الأنا تشكل ذلك الجزء الخاص من الأنا الذي نسميه الأنا الأعلى.

من وجهة نظر الهو، إذن، فالأنا الأعلى هو الوريث والبديل عن علاقات الموضوع

الأوديبية. لهذا السبب وصفه فرويد بأن جذوره العميقة تمتد داخل الهو. ونحن نرى، علاوة على ذلك، أن تكون الأنا الأعلى ينشأ عنه تحول كمية كبيرة جداً من شحنات الموضوع إلى شحنات نرجسية أو موجهة ذاتياً. وعادة فالشحنات الجنسية الصريحة، والشحنات الأكثر عدوانية أو الأكثر عنفاً، هي التي يتم التخلي عنها بهذه الطريقة، بينما تستمر المشاعر الرقيقة والمشاعر الأقل عدائية وعنفاً في التعلق بالموضوعات الأصلية. أي أن الطفل يستمر في الاحتفاظ بالمشاعر الرقيقة والمشاعر الأقل عنفاً وكراهية أو تمرداً تجاه والديه. وتجنباً لسوء الفهم يجب أن نوضح أنه ليس كل نزوات الطفل المحارمية والإجرامية تجاه والديه يتم التخلي عنها بشكل مطلق. على العكس، فجزء منها على الأقل يتم ببساطة كبته. هذا الجزء يواصل الحياة في الهو، كما تفعل أي رغبات أخرى مكبوتة، موجهاً نحو الموضوعات الأصلية، وممنوعاً من التعبير الصريح، بالتفكير الواعي، أو الخيالي، أو بالفعل، من قبل المعارضة الثابتة للشحنات المضادة الموجهة من الأنا. غير أن هذه الرغبات الأوديبية المكبوتة وشحناتها لا تساهم في تشكيل الأنا الأعلى (Freud,1923). ولهذا السبب استُبعِدت من مناقشتنا الحالية رغم أهميتها الواضحة.

ومما يثير الدهشة، رغم أنها حقيقة يمكن ملاحظتها بسهولة، أن صرامة الأنا الأعلى للفرد لا توازي بالضرورة الصرامة التي اعترض بها الأبوان رغباته الغريزية حينما كان طفلاً. وعلى أساس مناقشتنا حتى الآن يجب أن نتوقع هذه النتيجة. بما أن الأنا الأعلى هو الأب المستدمج، فيجب أن نتوقع أن الطفل ذي الأبوين الصارمين سوف يكون أناه الأعلى صارماً والعكس. وهذا بدون شك صحيح إلى حد ما. ومن المحتمل جداً أن تؤدي التهديدات

بالخصاء للطفل الصغير أثناء الطور الأوديبي، على سبيل المثال، أو التهديدات المماثلة للبنت الصغيرة، إلى تكوين أنا أعلى صارم بشكل غير مرغوب، وبالتالي حظراً صارماً بشكل غير مرغوب للنشاط الجنسي والعدواني في الحياة فيما بعد.

لكن يبدو أن هناك عوامل أخرى غير صرامة الوالدين تلعب دوراً أساسياً في تحديد صرامة الأنا الأعلى. ويتمثل العامل الأساسي في حدة المكون العدواني للرغبات الأوديبية للطفل. وبطريقة أبسط، رغم أنها أقل دقة من الناحية اللغوية، يمكن القول أن شدة نزوات الطفل العدوانية تجاه والديه خلال المرحلة الأوديبية هي التي تشكل العامل الأساسي في تحديد صرامة الأنا الأعلى، وليس درجة عدائية الوالدين أو شدتهم ناحية الطفل.

ويمكن في رأينا فهم ذلك أو شرحه بالطريقة التالية. حينما تُهجَر الموضوعات الأوديبية، أو تستبدل بتوحدات الأنا الأعلى، فإن طاقة الدافع، التي شَحنَت هذه الموضوعات في السابق، تصبح ولو جزئياً على الأقل تحت تصرف الجزء الناشئ حديثاً من الأنا الذي نسميه الأنا الأعلى. وهكذا فالطاقة العدوانية الموضوعة تحت تصرف الأنا الأعلى تنبثق من الطاقة العدوانية لشحنات الموضوعات الأوديبية، والاثنتان على الأقل متناسبتان في الكمية، إن لم يكونا متساويتين. يعني كلما زادت كمية الطاقة العدوانية في شحنات الموضوع الأوديبية، زادت كمية مثل هذه الطاقة التي سوف تصبح لاحقاً تحت تصرف الأنا الأعلى. قد تتحول إذن هذه الطاقة العدوانية فيما بعد ضد نفسها كلما واتت المناسبة كي تفرض الطاعة لمحظورات الأنا الأعلى، أو لتعاقب المرء على انتهاكها. بمعنى آخر، تتحدد صرامة الأنا الأعلى بكمية الطاقة العدوانية في حوزته، وهذه بالمقابل لها علاقة وثيقة بالشحنات

العدوانية لنزوات الطفل الأوديبية تجاه والديه أكثر من علاقتها بصرامة محظورات الأبوين أثناء الطور الأوديبي. فالطفل الصغير الذي كانت خيالاته الأوديبية عنيفة ومدمرة سوف يكون عنده إحساس بالذنب أقوى من الطفل الذي كانت خيالاته أقل تدميراً.

وملاحظتنا الأخيرة حول تكوين الأنا الأعلى من وجهة نظر الهو هي الآتي. إحدى الطرق لصياغة صراعات المرحلة الأوديبية هي القول بأن نزوات الهو المرتبطة بموضوعات تلك المرحلة، يعني بالوالدين، تبدو للطفل سبباً يعرضه للأذى البدني. ففي حال الولد، يتمثل الخوف في فقدانه لقضيبه. أما في حالة البنت، فخوفها يشبه الخوف من تأذي العضو التناسلي، أو شعوراً حاداً بغيضاً بالخزي بسبب فقدان القضيب، أو الاثنين معاً. وفي جميع الأحوال، هناك صراع بين مطالب الشحنات الموضوعية من جانب والشحنات الذاتية أو النرجسية من جانب آخر. ويلاحظ أن حسم المسألة يتم لصالح الشحنات النرجسية. فالشحنات الموضوعية الخطيرة يتم كبتها أو هجرها، أو إخضاعها أو إنكارها بطرق أخرى، بينما يتم المحافظة على الشحنات النرجسية سليمة بشكل أساسي. وهكذا يتم تذكيرنا مرة أخرى بحقيقة أن المكون النرجسي في حياة الطفل الغريزية أقوى من ذلك الجزء المختص بالعلاقات مع الموضوع، حتى ولو كانت هذه أيسر في ملاحظتها ،وبالتالي أكثر جذباً لانتباهنا.

لا يمكن ترك موضوع تكوين الأنا الأعلى دون بعض المناقشة لتناميه وتحويراته التي تحدث في مرحلة الطفولة المتأخرة، والمراهقة، وإلى حد ما في مرحلة الرشد. فكل من هذه الإضافات والتعديلات تنجم عن التوحد مع موضوع من بيئة الطفل أومن بيئة الشخص

البالغ، أو بالأحرى، مع الجانب الأخلاقي لمثل هذا الموضوع. في البداية، تكون هذه موضوعات بشرية بالكامل، يشبه دورها في حياة الطفل دور الأبوين. من أمثلة هؤلاء المعلمون، ورجال الدين، وخدم المنازل. وفيما بعد، قد يستدمج الطفل أشخاصاً ليس له بهم أي صلة،وحتى شخصيات تاريخية وخيالية. مثل هذا التقمص شائع، وخاصة في مرحلة ما قبل البلوغ والمراهقة. إنها تشكل الأنا الأعلى للفرد في اتجاه التطابق مع المثل والمعايير الأخلاقية لجماعته الاجتماعية التي هو أحد أعضائها.

حين نتوقف للتفكير في الاختلافات الهامة الموجودة بين الرموز الأخلاقية للجماعات الاجتماعية المختلفة، ندرك أي جزء مهم من الأنا الأعلى للفرد الراشد كان نتاج هذه التقمصات الأخيرة. قد تحدث التغيرات في الأنا الأعلى حتى أثناء الرشد، وذلك كما يحدث، على سبيل المثال، نتيجة اعتناق الفرد لدين جديد. مع ذلك، تبقي وللأبد النواة الأصلية للأنا الأعلى، التي تشكلت خلال الطور الأوديبي، الجزء الأكثر ثباتاً وتأثيراً. والنتيجة، أن المحظورات المحارمية تشكل معظم أخلاقيات الفرد التي استدخلها، وأقلها انتهاكاً.هناك محظورات أخرى للأنا الأعلى أكثر احتمالاً لأن تنتهك، إذا توفرت الفرصة المناسبة أو الإغراء القوي.

نناقش الآن المظاهر المحددة للدور الذي يلعبه الأنا الأعلى إثر تكوينه في أداء الجهاز النفسي لوظائفه. يمكننا القول عموماً بأنه حال انتهاء الطور الأوديبي، فإن الأنا الأعلى هو من يبادر ويفرض نشاطات الأنا الدفاعية ضد نزوات الهو. ولما كان الطفل في المرحلة الأوديبية يخاف الخصاء من قبل أبيه ويكبت أو ينكر رغباته الأوديبية تجنباً لهذا الخطر،

كذلك يخاف الطفل أو البالغ، في المرحلة ما بعد الأوديبية، وبشكل لاشعوري صور والديه المستدمجة، أي أناه الأعلى، فيضبط نزوات الهو حتى يتفادى خطر استياء الأنا الأعلى.

وهكذا يحدث الاستهجان من الأنا الأعلى كموقف أخير من سلسلة مواقف خطرة يتفاعل الأنا معها بالقلق الذي ناقشناه في الفصل الرابع (Freud,1926).ولكي نعيد ونستكمل قائمة ذلك الفصل، فأول موقف خطر من هذا النوع، وفقاً للتسلسل الزمني، هو فقدان الموضوع، والتالي فقدان حب الموضوع، والثالث الخوف من الخصاء أو من الأذى المشابه للعضو التناسلي، والأخير استهجان الأنا الأعلى. وكما يذكر القارئ، فهذه المواقف الخطرة المتباينة لا تختفي تباعاً بظهور الموقف التالي. بل الأصح أن كلاً منها يقوم بالتناوب بالدور الرئيسي كمصدر للقلق وكمناسبة للأنا كي يستخدم إجراءاته الدفاعية ضد أي نزوات للهو تفجر الموقف الخطر أو تهدد بتفجيره.

استهجان الأنا الأعلى له نتائج، بعضها شعوري ومن ثم مألوف لنا، وبعضها الآخر لاشعوري وينجلي فقط بواسطة التحليل النفسي. على سبيل المثال، كلنا معتادون على الشعور المؤلم بالتوتر الذي ندعوه بالذنب أو الندم، ولا نتردد في ربطه بعملية الأنا الأعلى. ومع ذلك، هناك ظواهر نفسية معتادة بنفس الدرجة غير أن علاقتها بالأنا الأعلى أقل وضوحاً، رغم قربها منه بنفس المستوى. وهكذا، كما أشار فرويد (1923)، فالسبب الأكثر شيوعاً لمشاعر النقص المؤلمة وغير المبررة هو استهجان الأنا الأعلى. وهذه المشاعر من الدونية هي نفس مشاعر الذنب. وهذه نقطة ذات أهمية قصوى من الناحية الإكلينيكية، حيث أنها تخبرنا بأن المريض، الذي لديه هذه المشاعر الضخمة من النقص أو تقدير الذات المنخفض،

يكون على الأرجح متهماً نفسه لاشعورياً بجرم ما، بغض النظر عن السبب الواعي الذي قد يعطيه كي يعلل مشاعر النقص لديه.

وكما أن استهجان الأنا من قبل الأنا الأعلى يؤدي إلى مشاعر الذنب والنقص، كذلك قد تكون مشاعر السعادة والفرح والرضا عن الذات نتيجة استحسان الأنا الأعلى للأنا لما بدر عنه من سلوك أو اتجاه يحبذه الأنا الأعلى بشكل خاص. مثل هذا الشعور الفاضل "virtuous glow" ، كعكسه الإحساس بالذنب، هو ظاهرة مألوفة. فكلا النوعين المتناقضين من المشاعر أو حالتي العقل المتعارضتين يتشابهان مع الحالات العقلية للطفل الصغير، الذي بسبب سلوكه، إما أن يحظى بالحب والثناء، أو يعنف ويعاقب من قبل الوالدين. بمعنى آخر، فالمشاعر الواعية التي تنشأ عن استحسان أو استهجان الأنا الأعلى في مرحلة الحياة المتأخرة تُفهَم بسهولة إذا ما علمنا أن الأنا الأعلى هو الصور الأبوية المستدمجة، وأنه على مدى الحياة تشبه العلاقة بين الأنا والأنا الأعلى العلاقة بين الطفل الصغير ووالديه. هناك مظهران لا شعوريان لعملية الأنا الأعلى أثناء الرشد مرتبطان بشكل واضح بالعمليات العقلية للفترات المبكرة من الطفولة حيث يستمد الأنا الأعلى أصوله. أول هذه المظاهر هو قانون القصاص the talion law، وثانيها القصور في التمييز بين الرغبة والفعل.

يعني مصطلح القصاص lex talionis ببساطة أن يعاقب المجرم على الذنب أو الجريمة بنفس الضرر الذي أوقعه، وهو ما يعبر عنه في الكتاب المقدس بآية " العين بالعين، والسن بالسن." إنه مفهوم بدائي للعدل من ناحيتين. الناحية الأولى، أنه مفهوم للعدل يصلح للبنى الاجتماعية البدائية أو القديمة تاريخياً. وهذه الحقيقة بدون شك على درجة عالية

من الأهمية، غير أنها لا تعنينا في الوقت الحالي. الناحية الثانية، والتي تعنينا فعلاً، هي أن قانون القصاص the talion law هو في الأساس مفهوم الطفل الصغير للعدل. والشيء الملفت وغير المتوقع هو المدى الذي يستمر به هذا المفهوم لا شعورياً إلى حياة البلوغ فيحدد أداء الأنا الأعلى لوظائفه. إن الجزاءات والعقوبات اللاشعورية التي يفرضها الأنا الأعلى مؤسسة على تحليل يتطابق في أمثلة عديدة مع قانون القصاص، رغم أن الفرد يكون قد تجاوز، منذ أمد بعيد، هذا الاتجاه الطفولي في ما يتعلق بحياته العقلية الواعية.

أما فيما يتعلق بالقصور في التمييز بين الرغبة والفعل، فمن الشائع في الدراسة التحليلية أن الأنا الأعلى يهدد بعقوبة أحدهما بنفس الشدة تقريباً التي يهدد بها الآخر. فمن الواضح أن الممنوع من الأنا الأعلى ليس مجرد فعل شيء ما، بل الرغبة أو النزوة نفسها هي المحرمة أو المقصودة بالعقاب. وفي ظننا أن هذا الاتجاه من الأنا الأعلى ناجم عن حقيقة أن الطفل ذي الأربع أو الخمس سنوات، أو أقل، يميز بين خيالاته وتصرفاته بوضوح أقل مما يفعل في مرحلة الحياة المتأخرة.إنه بصورة عامة يهيمن عليه الاعتقاد بأن "الأمنيات تحقق الرغبات" ” wishing makes it so“، وهذا الاتجاه الخرافي تدعمه العمليات اللاشعورية للأنا الأعلى في مرحلة الحياة المتأخرة.

المظهر الآخر للعملية اللاشعورية للأنا الأعلى أنها قد تفضي إلى حاجة لاشعورية للتكفير عن الذنب أو معاقبة الذات. ومثل هذه الحاجة للعقاب، التي هي لاشعورية، يمكن كشفها فقط بواسطة التحليل النفسي. ومع ذلك، حالما يعرف المرء أن مثل هذا الشيء موجود ويبحث عنه، فإنه سوف يلمس الدليل على وجوده بأكثر مما يعتقد. على سبيل

المثال، فإن فرصة تتاح لطبيب نفساني بسجن للاطلاع على السجلات الرسمية التي توضح الكيفية التي يتم بها القبض على الجناة مفيدة جداً فيما يخص هذه النقطة، حيث رغبة المجرم اللاشعورية في العقاب هي في الغالب أهم مساعد للشرطة. فالمجرم غالباً ما يوفر وبشكل لاشعوري المفتاح لحل اللغز الذي يعلم أنه سوف يقود إلى كشفه والقبض عليه. وتحليل المجرم غير ممكن عادة، لكن مجرد الحقائق بالسجلات تكون كافية في بعض الحالات لتوضيح الأمر.

على سبيل المثال، عمل أحد اللصوص وبنجاح لأكثر من سنة بالطريقة التالية. لقد تعود على التردد إلى مناطق بها شقق سكنية تخص الطبقة الوسطى، حيث يمكن بسهولة اقتحام أي شقة عن طريق سلم خلفي أو شرفة خلفية. وبمواصلة المراقبة في الصباح ينتظر حتى مغادرة ربات البيوت شققهن لغرض التسوق، وعندها يقتحم باب الشقة الخالية. إنه لا يترك بصمات ولا يأخذ شيئاً عدا النقود، التي لا يمكن للشرطة تتبعها. كان واضحاً أن هذا اللص يعرف تماماً ما كان يفعله، ولم تتمكن الشرطة، ولأشهر عدة، من التدخل في نشاطاته بأي طريقة، وقد بدا كما لو أن الحظ السيئ فقط يمكنه وضع حد لسرقاته. وفجأة غيَّر عاداته. فبدلاً من أخذ النقود فقط، بدأ يسرق بعض المجوهرات أيضاً ويرهنها مقابل مبلغ بسيط عند محل رهن قريب، فكان أن قبضت عليه الشرطة خلال أيام معدودة، رغم أنه في مناسبات سابقة عدة ترك مجوهرات في نفس قيمة المجوهرات التي سرقها في المرة الأخيرة دون أن يمسها، وذلك لأنه يعرف تماماً أن من المستحيل عليه أن يتصرف في بضائع مسروقة دون أن تقتفي الشرطة أثرها عاجلاً أم آجلاً. يبدو الاستنتاج الذي لا مفر منه أن هذا المجرم رتب

بشكل لاشعوري للقبض عليه وسجنه. وفي ضوء معرفتنا الحالية حول أعمال العقل اللاشعورية، فإن دوافعه لهذا العمل كانت حاجة لاشعورية للعقاب.

طبعاً لا تحتاج الحاجة للعقاب لربطها بالأعمال الشريرة، كما في المثال السابق، فقد تكون أيضاً نتيجة لرغبات أو خيالات، شعورية أو لا شعورية. وبالفعل كما أشار فرويد (c1915)، قد تبدأ الحياة الإجرامية كنتيجة للحاجة إلى العقاب. يعني قد ينجم عن الحاجة اللاشعورية للعقاب، التي تنبثق من الرغبات الأوديبية المكبوتة، ارتكاب جريمة عقوبتها مؤكدة. ومثل هذا الشخص غالباً ما يشار إليه باعتباره مجرماً من جراء الإحساس بالذنب as a criminal from a sense of guilt.

مع ذلك، يجب أن نضيف بأن الحاجة اللاشعورية للعقاب لا تنشأ عنها بالضرورة تصرفات إجرامية تعاقب عليها السلطة القانونية. عوضاً عن ذلك، يمكن ترتيب الأشكال الأخرى من المعاناة والإيذاء للذات لا شعورياً بشكل مسبق، مثل الفشل في الحياة المهنية (المسمى عصاب المصيرfate-neurosis)، والجروح الجسمية العرضية، وما شابهها.

نستطيع أن نفهم وبسهولة أن الأنا الأعلى الذي يصر على أذى الذات وعقاب الذات يصبح ذاته خطراً من وجهة نظر الأنا. لذلك، سوف لن نفاجأ إذا علمنا أن الأنا قد يستخدم ضد الأنا الأعلى الميكانيزمات الدفاعية والعمليات الدفاعية الأخرى المشابهة تماماً لتلك التي يستخدمها بانتظام ضد الهو. وربما يوضح المثال التالي ما نعنيه.

رجل له ميول قوية للبصبصة أثناء مرحلة الطفولة شب ليكون أثناء مرحلة الرشد داعماً قوياً ونشطاً لمجتمع خال من الرذيلة، وكان متشدداً بشكل خاص في اكتشاف

ومقاضاة تجار الصور الخليعة. وبما أن نشاطاته في هذا الخصوص تتضمن بحثاً متواصلاً عن صور نساء ورجال عراة، فإن من السهل ملاحظة أنها تعرض فرصة سانحة للإشباع اللاشعوري للبصبصة. هذه الملاحظة، مع ذلك، هي من وجهة نظر الصراع الدفاعي بين الهو والأنا أكثر منها بين الأنا والأنا الأعلى. فمن وجهة النظر الأخيرة يمكن أن نقول شيئين. ففي المقام الأول، مشاعر الذنب التي كانت شعورية في مرحلة الطفولة نتيجة التطلع للأجسام العارية لم تكن ظاهرة حين النظر إلى الصور العارية أثناء حياة الرشد. لقد نجح الأنا في منع أي شعور بالذنب عن الوعي وأسقطه بدلاً من ذلك على الآخرين. إذن فالناس الآخرون من كانوا مذنبين بسبب التطلع والبصبصة، أو بصورة أكثر دقة، من كانوا أشراراً وينبغي معاقبتهم بسبب رغباتهم وتصرفاتهم التطلعية. فضلاً عن ذلك، فإن أنا الفرد موضوع مثالنا السابق قد أوجدت رد فعل عكسي ضد شعوره بالذنب، ولذلك عوضاً عن أي إحساس واع بالذنب، يشعر الشخص وبشكل واع بالتفوق، وخصوصاً بالعفاف والاستقامة فيما يتعلق باهتمامه المستحوذ عليه في البحث عن صور الأجسام العارية وكشفها.

فالدفاعات من جانب الأنا ضد الأنا الأعلى جزء معتاد وهام من الأداء العقلي السوي. وهي قد تلعب أيضاً دوراً هاماً في حالات عدة من المرض العقلي، لذلك فهي غالباً ذات أهمية عملية جديرة بالاعتبار في العمل الإكلينيكي (Freud,1923;Fenichel,1939).

ثمة رابطة عامة بين الأنا الأعلى وسيكولوجيا الجماعة أشار إليها فرويد (1921) في مقالة عن الموضوع. تتماسك جماعات معينة مع بعضها لأن كل واحد من أعضاء الجماعة قد استدمج أو توحد مع نفس الشخص، الذي هو قائد الجماعة. ونتيجة هذا التوحد أن

صورة القائد تصبح جزءاً من الأنا الأعلى لكل أعضاء الجماعة. بمعنى آخر، يمتلك الأعضاء المختلفون من الجماعة عناصر معينة مشتركة من الأنا الأعلى. وهكذا تصبح إرادة القائد، وأوامره، وقواعده السلوكية القوانين الأخلاقية لأتباعه. ومع أن مقالة فرويد كتبت قبل فترة طويلة من بداية ظهور هتلر، إلا أن تحليله لهذا المظهر من سيكولوجيا الجماعة يفسر بشكل جيد تماماً التغيرات الاستثنائية التي حدثت بفعل تأثير هتلر على المعايير الأخلاقية لملايين الألمان من أتباعه.

آلية مشابهة يمكن استخدامها مع الطوائف والجماعات الدينية. في هذه الأمثلة أيضاً، للأعضاء المختلفين بالجماعة أخلاقيات مشتركة، أي عناصر مشتركة من الأنا الأعلى، مستمدة من التوحد مع نفس الإله أو القائد الروحي. هنا يلعب الإله نفس الدور، بالمعنى النفسي، مثلما يفعل القائد أو البطل في الجماعة غير الدينية. وهذا لا يمثل مفاجأة، طبعاً، في ظل العلاقة الوثيقة التي نعلم وجودها بشكل واع تماماً في عقول الناس بين الآلهة والأبطال، حتى بين الشعوب المتمدنة جداً كالرومان، الذين ألهوا أباطرتهم كشيء طبيعي ومتوقع.

نستطيع تلخيص مناقشتنا للأنا الأعلى بإعادة صياغة النقاط الرئيسية لطبيعته وأصوله. إنه ينشأ كنتيجة لاستدماج محظورات ومواعظ الأبوين في المرحلة الأوديبية، وتبقى ماهيته اللاشعورية مدى الحياة هي حظر الرغبات الجنسية والعدوانية لمركب أوديب، رغم الإضافات والتغيرات العديدة التي يخضع لها في الطفولة المتأخرة، والمراهقة، وحتى في حياة الرشد.

قراءات إضافية

Freud,S., The ego and the id. Standard edition,vol.19,pp.3-66,1961. Also New York: Norton,1961.

Freud,S., The passing of the Oedipus complex. Standard edition,vol.19,pp.172-179,1961.

الفصل السادس

الهفوات والنكات

Para praxes and Wit

في هذا الفصل والفصلين التاليين سوف نطبق على ظواهر محددة من الحياة العقلية الإنسانية معرفتنا عن وظائف العقل التي اكتسبناها من مناقشاتنا حتى الآن. والظواهر التي اخترناها لهذا الغرض هي، أولاً، الهفوات، والأخطاء، والحذف، وزيغ الذاكرة المألوف لنا جميعاً، والتي ضمنها فرويد (1904) معاً تحت عنوان الأمراض النفسية للحياة اليومية. ثانياً، النكات. ثالثاً، الأحلام. ورابعاً وأخيراً، الأعصبة النفسية. وقد تم اختيار هذه المواضيع لأنها من بين ما يمكن أن نطلق عليه الموضوعات الكلاسيكية لنظرية التحليل النفسي. فقد كانت موضوعاً للبحث لعدة سنوات، في البداية عن طريق فرويد، ثم فيما بعد عن طريق علماء آخرين في التحليل النفسي، حيث أثمرت عن زيادة واسعة وموثوق بها في معرفتنا لهذه المواضيع. إضافة إلى ذلك، فإن موضوع الأعصبة النفسية ذو أهمية عملية بالغة، حيث أن هذه الأمراض النفسية تشكل الموضوع الأساسي لنظرية التحليل النفسي.

سوف نبدأ بالأمراض النفسية للحياة اليومية (سيكوباثولوجيا الحياة اليومية). وهذه تشمل فلتات اللسان، وزلات القلم، وزيغ الذاكرة، والعديد من حوادث الحياة المؤسفة التي عادة ما ننسبها إلى الصدفة وأخطاء الاستدعاء. وحتى قبل دراسة فرويد المنظمة لها كان يوجد قدر من التنبه المبهم في عقول العامة أن لهذه الظواهر غرضاً، وأنها ليست مجرد حوادث عرضية. على سبيل المثال، هناك مثل قديم يقول ''تفشي زلة اللسان سر العقل''[1] علاوة على ذلك، لم تكن كل هذه الهفوات تعامل كأحداث عارضة. وحتى قبل فرويد، إذا نسي السيد سميث اسم الآنسة جونز، أو ناداها خطأً باسم الآنسة روبنسون، فإن السيدة جونز

[1].يقابله المثل الشعبي الليبي الذي يقول : اللي في عقلك تخرب وجابك. (المترجم)

ستستجيب لذلك كما لو أنه استخفاف مقصود أو إشارة على اللامبالاة، وسوف لن يحظى السيد سميث بأي استحسان من جانبها. ولتوضيح الأمر أكثر، إذا نسي الشخص قاعدة من آداب السلوك أثناء مخاطبة الملك، فإنه سوف يعاقب رغم دعواه أن النسيان كان غير مقصود. فالسلطات المعنية نسبت القصد إلى فعله، رغم أنه هو نفسه لا دراية له بأي قصد. وبنفس الطريقة تماماً، منذ 300 سنة مضت، حينما نُشِر الكتاب المقدس، وقد طبع خطأً في إحدى الوصايا العشر عبارة ''افعل'' بدلاً من ''لا تفعل''، فقد عوقب عامل المطبعة بقسوة كما لو كان قاصداً وبشكل واع تدنيس المقدسات. ومع ذلك، تُعزَى مثل هذه الظواهر عموماً إما إلى الصدفة، أو إلى الأرواح الخبيثة والشريرة ،لمن يعتقدون في الخرافات، مثل شياطين المطبعة، التي استولت على حروف الطباعة التي وضعها عامل المطبعة بشكل صحيح فتسببت في عذاب الرجل المسكين بخلطها الحروف وإدخالها لجميع الأخطاء المطبعية. كان فرويد هو أول من تبنى بشكل جاد وثابت وجهة النظر القائلة بأن فلتات اللسان والظواهر المماثلة لها ناجمة عن تصرف مقصود للفرد المعني، رغم أن النية غير معروفة للفاعل نفسه أو، بمعنى آخر، لاشعورية.

الأسهل على الفهم من هذه الزلات، أو الهفوات، كما تسمى أحياناً، هو النسيان. مثل هذه الزلات غالباً ما تكون نتيجة مباشرة للكبت، الذي كما يذكر القارئ هو أحد الميكانيزمات الدفاعية للأنا التي ناقشناها في الفصل الرابع. يمكن للمرء أن يلاحظه أحياناً في أبسط وأوضح أشكاله أثناء مسار التحليل النفسي، حينما يحدث أحيانا أن المريض ينسى، من آن لآخر، شيئاً يعتبره هاماً ويريد شعورياً أن يتذكره. في مثل هذه الحالات، يكون الدافع

للنسيان واضحاً. ورغم أن التفاصيل الخاصة بالدافع قد تختلف من حالة إلى أخرى، إلا أنها في الأساس هي نفسها في جميع مثل هذه الحالات، وهي الحيلولة دون إمكانية ظهور القلق أو الذنب، أو كليهما. على سبيل المثال، تم التوضيح لأحد المرضى بأنه، وبمساعدة نظام متقن من التبريرات، منع نفسه ولعدة سنوات من الشعور بالخوف أو الخجل من مظاهر معينة من سلوكه الجنسي. لقد أصبح المريض مدركاً إلى أي مدى كان الخوف والخجل مرتبطين في عقله مع سلوكه الجنسي، رغم أنه لم يخبر هذه الانفعالات بشكل قوي أو تام في أي وقت. لقد تأثر المريض للغاية بهذا الاستبصار غير المألوف، والذي شعر بأنه ذو أهمية قصوى في فهم أعراضه العصابية كما هي فعلاً. وبعد مضي دقيقة أو اثنتين، وبينما كان يتحدث عن مدى قيمة هذا الاستبصار بالنسبة له، إذ به يدرك فجأة أنه لم يعد قادراً على تذكر ما حدث، وأنه نسي كل ما قيل خلال الخمس دقائق الماضية!.

يصور هذا المثال وبشكل مثير القدرة الفائقة للعقل البشري على النسيان، أو بشكل أدق، على الكبت. من الواضح أن نفس القوى داخل عقل المريض ،التي سبق وأن نجحت في الحيلولة دون ظهور الخجل والخوف من سلوكه الجنسي خلال سنوات عديدة ،كانت مسئولة أيضاً عن الكبت الفوري لاستبصاره الجديد من أن سلوكه يثير حقاً خوفه وخجله. نستطيع أن نضيف بأنه في مثل هذه الحالة تتجه شحنات الكبت المضادة عند الأنا نحو الأنا الأعلى أكثر مما تتجه نحو الهو. يعني، أن الأنا كَبَتَت الذكريات والأفكار الحديثة المسموعة التي تخشى أن تؤدي إلى ظهور مشاعر الخجل والخوف من أن يكون المريض شاذاً جنسياً. وطبعاً، تتجه الشحنات المضادة، في حالات أخرى، نحو الهو بشكل

أساسي.

قد يبدو للقارئ أن المثال الذي أوردناه للتو استثناء وليس القاعدة، وأن " الحالات " المعتادة من نسيان المرء لشيء ينوي فعله، أو نسيانه وجهاً أو اسماً مألوفاً أمر مختلف للغاية. من السهل أن نرى لماذا نسي المريض في مثالنا الشيء الذي فعله، لكن لماذا على المرء أن ينسى شيئاً "لا يوجد سبب" لنسيانه ؟

الإجابة هي أن السبب في معظم الحالات لاشعوري. ويمكن الكشف عنه عادة من خلال تقنيات التحليل النفسي فقط، أي من خلال التعاون التام للمريض الذي حدث له النسيان. فإذا أمكن الحصول على تعاونه، وكان قادراً على التعبير بحرية عن كل الأفكار التي خطرت له والمرتبطة بزلة الذاكرة، دون انتقاء أو حذف، عندها سنكون في وضع يمكننا من إعادة تفسير لنيته ودوافعه. خلاف ذلك، علينا أن نعتمد على المصادفة كي تضعنا في مركز نحصل منه على حقائق كافية تسمح لنا بتخمين معنى الزلة، أي الدوافع اللاشعورية من ورائها.

على سبيل المثال، لم يستطع أحد المرضى أن يتذكر اسم أحد المعارف المألوف جداً له حينما التقي الاثنان في إحدى المناسبات الاجتماعية. سوف يكون من المستحيل فهم هذا الجزء المنسي دون تداعيات المريض المرتبطة به. حينما روى ذلك، تبين أن اسم هذا الشخص كان شبيهاً لاسم شخص آخر يعرفه، ويحمل له مشاعر قوية من الضغينة، جعلته يشعر بالذنب حينما تكلم عنه. إضافة إلى ذلك، ذكر أن هذا الشخص المعرفة كان مُقعداً، الأمر الذي ذكَّره برغبته في إيذاء الشخص ،الآخر الذي يحمل نفس الاسم، والذي يكرهه

ويبغضه. بهذه المعلومات من تداعيات المريض، أصبح من الممكن إعادة بناء ما حدث حينما خذلته ذاكرته. فمشهد صديقه المقعد ذكَّره، لا شعورياً، بالرجل الآخر الذي يحمل نفس الاسم والذي يكرهه ويتمنى أن يؤذيه ويقعده. ولكي يتفادى الوعي بخيالاته المدمرة، التي تشعره بالذنب، كبت الاسم الذي يربط بين الاثنين. في مثل هذه الحالة، إذاً، زُجَّ بالكبت للحيلولة دون ولوج الوعي من قبل الخيالات المدمرة ،التي تؤلف جزءاً instituted من الهو، والتي إذا ما أصبحت واعية سوف تؤدي إلى الشعور بالذنب.

في هذه الأمثلة التي ذكرناها فإن زيغ أو اضطراب الذاكرة كان نتيجة عمل الحيلة الدفاعية، أي الكبت. وبما أن الدافع للكبت، إضافة إلى عمله الفعلي، كلاهما لا شعوري، فإن الشخص نفسه كان في حال من التيه لا يمكنه أن يفسر زيغ ذاكرته، ويمكنه فقط عزوها إلى الحظ السيئ، أو التعب، أو أي عذر آخر يفضله. هفوات أخرى قد تكون ناجمة عن ميكانيزمات عقلية مختلفة نوعاً ما، غير أن سببها جميعاً متشابه، نظراً لكونها لا شعورية.

على سبيل المثال، غالباً ما تكون زلة القلم أو فلتة اللسان ناجمة عن فشل في الكبت التام لبعض الأفكار والرغبات اللاشعورية. ففي مثل هذه الحالات، يعبر الكاتب أو المتحدث عما يرغب لاشعورياً في كتابته أو في قوله، رغم محاولة إخفائه. أحياناً يُعبَّر علناً عن هذا المعنى الخفي من خلال الهفوة، مما يعني أنه يكون مفهوماً بوضوح للقارئ أو المستمع. وفي مناسبات أخرى لا تبدو نتيجة الهفوة واضحة ،ويمكن فقط اكتشاف معناها الخفي من مستدعيات associations الشخص الذي صدرت عنه.

يمكن الاستشهاد على الهفوة ذات المعنى الواضح بالمثال التالي عن المحامي الذي كان

يفاخر بثقة زبائنه فيه، فأراد القول بأنهم يخبرونه ''بأخص مشاكلهم الشخصية'' غير أن ما قاله فعلاً هو أنهم يخبرونه ''بأخس مشاكلهم الشخصية'' بهذه الهفوة أفصح المحامي لمستمعيه عن مشاعره الخفية تجاه ما يسر به عملاؤه من قصص مملة عن مشاكلهم الخاصة، وعن رغبته في أن يختصروا الحديث حول أنفسهم ،وأن لا يضيعوا عليه كل هذا الوقت.

قد يستشف القارئ من هذا المثال أنه، إذا كان معنى الهفوة واضحاً، فإن ما تفصح عنه من رغبة أو فكرة لاشعورية ليس مكبوتاً بشدة بل، على العكس، موجود في عقل المتحدث بشكل لاشعوري مؤقت، ويمكنه نقله إلى الشعور بأقل قدر من الاضطراب من مواجهة الخوف أو القلق. الواقع، أن هذا ليس صحيحاً على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، قد يدعو المريض، وعن غير قصد أثناء مقابلته الأولى مع المعالج، زوجته باسم أمه. وقد لا تعني له هذه الزلة شيئاً إذا تمت مواجهته بها. وقد يشير في شرح طويل ومفصل إلى الاختلاف الكبير في الشبه بين أمه وزوجته. ولن يقبل المريض بشكل واع، إلا بعد مضي عدة اشهر من التحليل، أن زوجته تمثل في خياله أمه التي تاق إلى الزواج منها وهو في ذروة عقدة أوديب. في مثل هذه الحالة تفصح زلة اللسان وبوضوح عن مضمون للهو واجهه الأنا ولسنوات طويلة بشحنات وجدانية مضادة قوية جداً.

يجب أن نضيف بأنه ليس مهماً درجة وضوح هفوة اللسان، لأن تفسير المستمع أو القارئ لمعناها اللاشعوري لا يمكن أن يكون أكثر من حدس، طالما بقيت غير مدعومة بمستدعيات الشخص الذي صدرت عنه. ومن دون شك، قد يكون الحدس مدعوماً بدليل قوي ومؤكد لا يدحض، مثل معرفة الظروف التي حدثت فيها الهفوة والإلمام بالموقف

وشخصية المتحدث. ومع ذلك، فلا يمكن من حيث المبدأ تحديد معنى أي هفوة بشكل مؤكد إلا من خلال مستدعيات المتكلم.

هذا الاعتماد على مستدعيات المتحدث ضروري في حال الهفوات المكتوبة أو الملفوظة التي ليست مفهومة بشكل فوري ومباشر. ففي هذه الهفوات تتداخل العملية العقلية اللاشعورية مع ما يود الشخص كتابته أو قوله بطريقة تؤدي إلى الحذف، أو الإقحام، أو التحريف لأحد المقاطع أو الكلمات فتصبح النتيجة خالية من المغزى تماماً. وبالنسبة لأولئك الذين لا يجهلون تماماً تفسيرات فرويد لهذه الظواهر، وفي نفس الوقت ليس لهم دراية كافية بها، فإنهم غالباً ما يعتبرون مثل هذه الهفوات استثناءاً لقاعدته من أن لكل الهفوات معنى. ويطلق مثل هؤلاء الأشخاص على الهفوات المفهومة اسم ''الهفوات الفرويدية'' والهفوات غير المفهومة اسم ''الهفوات غير الفرويدية''. والواقع أن أسلوب التحليل النفسي يكشف عن طبيعة ودلالة العمليات العقلية اللاشعورية الكامنة وراء كل من الهفوات المفهومة وغير المفهومة.

تُعزَى فلتات اللسان وزلات القلم غالباً إلى تشتت الانتباه، أو التعب، أو الانفعال، أو العجلة، أو ما شابه. وقد يتساءل القارئ فيما إذا كان فرويد قد أعطى لهذه العوامل أي دور مسبب للهفوات. والإجابة عن هذا السؤال هي أنه أعطاها دوراً مساعداً أو مكملاً. لقد اعتبر أن مثل هذه العوامل قد تسهل، في ظروف محددة، تداخل العمليات اللاشعورية مع القصد الشعوري لقول أو كتابة كلمة أو جملة معينة، مما يؤدي إلى حدوث الهفوة التي ما كانت لتحدث لو أن الشخص لم يكن مرهقاً، أو مشتت الفكر، أو في عجلة من أمره ...

الخ. غير أنه يرى أن العمليات العقلية اللاشعورية للفرد تلعب الدور الأساسي في إنتاج الهفوة. ولتوضيح هذه النقطة استخدم القياس التالي. إذا تم اعتراض شخص وسلبه بالإكراه في شارع مظلم منزوي، فلا يمكننا القول بأن ظلام الشارع وانزوائه هما من سرقاه. لقد سُلِب ماله من قبل لص، أعانه انزواء الشارع وظلمته على فعلته. في هذا القايس يشبه اللص العمليات العقلية اللاشعورية المسئولة عن الهفوة، بينما يشبه الظلام والانزواء عوامل الإرهاق، وعدم الانتباه... الخ. وإذا ما أردنا استعمال اللغة الاصطلاحية، فيمكننا القول أن العمليات العقلية اللاشعورية المعنية توفر، في جميع الأحوال، الظروف الضرورية لحدوث الهفوة. ففي بعض الحالات قد توفر ظروفاً كافية، بينما في حالات أخرى قد لا تكون كافية بنفسها، وتتطلب مساعدة مثل هذه العوامل العامة التي نناقشها كي تتداخل مع القصد الواعي للشخص بدرجة تكفي لحدوث الهفوة.

لا تعتبر مناقشة فلتات اللسان أو زلات القلم كاملة دون ذكر الدور الذي تلعبه العمليات الأولية في تكوينها. على سبيل المثال، بينما كان أحد المرضى يتحدث عن اهتمامه في مرحلة الشباب بالثقافة البدنية[2]، أخطأ فقال " السفاهة البدنية ". وعندما لُفِت انتباهه للخطأ، خطر له أن نطق ثقافة يقارب نطق سفاهة. من هنا كشفت مستدعياته عن رغبة لاشعورية في أن يكشف جسمه العاري للآخرين، وأن يرى بالمقابل أجسامهم العارية. هذه رغبات مهمة، رغم أنها عامل لاشعوري في اهتمامه بالثقافة البدنية. مع ذلك، فالنقطة التي أرغب في جذب الانتباه إليها هي شكل الهفوة الذي نجم عن تداخل لحظي بين رغبات

[2]مصطلح physical culture كان يستخدم في القرن التاسع عشر، غير ان المتداول الآن هو مصطلح التربية البدنية. (المترجم)

المريض اللاشعورية في التطلع والاستعراض الجنسي والنية المقصودة لنطق كلمة ''ثقافة'' والنتيجة كانت كلمة مهجنة من الكلمتين معاً. فالكلمتان كُثّفتا إلى كلمة واحدة، وذلك على عكس كل القواعد اللغوية التي تحكم عمليات التفكير الثانوي.

يذكر القارئ من مناقشتنا في الفصل الثالث لأساليب التفكير التي أسميناها بالعمليات الأولية والثانوية، أن أحد خصائص التفكير الأولي هو الميل للتكثيف. هذه الخاصية هي التي نعتبرها مسئولة عن توليفة الدمج بين الكلمتين السابقتين.

وفي هفوات أخرى سوف يجد المرء دليلاً من خصائص عملية التفكير الأولي مثل: الإزاحة، وتمثيل الكل بالجزء، والعكس، والتمثيل بالمطابقة، والتمثيل بالتضاد، والرمزية بالمعنى التحليلي. فأي من هذه الخصائص منفردة أو مجتمعة قد يحدد شكل الهفوة.

ينبغي أن نضيف عند هذه النقطة أن عملية التفكير الأولي ليست بأي حال محصورة في فلتات اللسان أو زلات القلم. ورغم كونها أكثر وضوحاً في مثل هذه الحالات، إلا أنها تحدث غالباً وبنفس الدرجة من الأهمية في الهفوات الأخرى. على سبيل المثال، يذكر القارئ بأنه في مثالنا السابق (ص.140) عن الرجل الذي نسي اسم أحد معارفه، أن أحد الأسباب وراء زلة ذاكرته هو أن ذلك الشخص كان معاقاً، الأمر الذي ذكره برغبة لا شعورية آثمة في أن يحدث إعاقة لرجل آخر يحمل نفس الاسم. وحقيقة الأمر أن هذا المعاق كانت ذراعه قصيرة ومشلولة جزئياً بسبب حادث أثناء الولادة. من ناحية أخرى، فإن ما رغب في فعله، لا شعورياً، لمن يحمل اسم هذا الشخص الذي يعرفه هو أن يقطع عضوه الذكري. لذلك، يرمز العضد المشوه في مثل هذه الحالة إلى الخصاء، وهو مثال عن عملية التفكير

الأولي.

لننظر الآن إلى مجموعة الهفوات التي يشار إليها عادة بالحوادث العرضية، سواء حدثت للشخص نفسه أو لشخص آخر نتيجة الإهمال واللامبالاة. و ينبغي أن يكون واضحاً من البداية أن الحوادث الوحيدة التي نهتم بها هنا هي تلك التي تنشأ عن فعل الشخص نفسه، رغم أنه بالتأكيد لم يقصدها بشكل واع. فالحوادث الخارجة عن إرادة الفرد لا تدخل في مجال مناقشتنا الحالية.

من السهل غالباً أن نقرر ما إذا كان الشخص مسئولاً عن الحادثة، غير أن ذلك ليس دائماً بمثل هذه البساطة. فعلى سبيل المثال، إذا علمنا بأن شخصاً ما أصابته صاعقة، فهنا نكون واثقين تماماً أن الحادثة عرضية فعلاً، ولا يمكن أن تكون مقصودة لاشعورياً من قبل الضحية. إذ في النهاية من يمكنه أن يتنبأ بالمكان الذي سوف تضربه الصاعقة! ومع ذلك، إذا علمنا أن الضحية كان يجلس تحت شجرة طويلة منفردة، بالقرب من سلسلة حديد ثقيلة، تدلت من أحد الأفرع حتى مسافة قريبة جداً من الأرض، عندها قد نتساءل ما إذا كان الضحية يعلم أو لا يعلم، قبل الحادثة، عن الخطر المحتمل من أن الشخص في مثل هذا المكان سوف تصيبه صاعقة. وإذا اكتشفنا عندها أن هذا كان معلوماً جيداً للضحية، وإذا أنكر الضحية بأمانة وصدق، بعد تعافيه من الحادث المؤسف، أية نية مقصودة لتعريض نفسه للخطر، فإننا ينبغي عندها أن نستخلص أن هذا الضحية بالذات كان متعمداً، رغم أن ذلك لاشعورياً، جذب الصاعقة إليه. وبنفس الطريقة، قد يعود حادث سيارة إلى خلل ميكانيكي بحت، ولا علاقة له مطلقاً بالقصد اللاشعوري للسائق، أو أنه من ناحية أخرى،

قد يكون نجم بشكل مباشر عن خطأ أو إهمال مقصود لاشعورياً من قبل السائق.

قد يتساءل القارئ فيما إذا كنا نرمي إلى الافتراض بأن كل حادث يحتمل حدوثه بسبب قصد لاشعوري هو في الواقع ناجم عن ذلك القصد اللاشعوري. ألا يوجد مجال للقصور البشري ؟ هل نفترض، على سبيل المثال، أن لا أحد مطلقاً سوف يقع له حادث سير ما لم يكن يقصده لاشعورياً ؟

الإجابة عن هذا السؤال هي، من حيث المبدأ، جلية ولا لبس فيها. فبقدر ما ينجم الحادث المتوقع عن قصور بشري في أداء عمل ما، فإننا نعتبر ذلك مقصوداً بشكل لاشعوري من قبل الفاعل. صحيح أن التعب، والملل، الناجمين عن الرتابة، وغيرها من العوامل المشابهة، قد تزيد من تكرار مثل هذه الحوادث بطريقة ما، إلا أننا هنا نلتزم نفس الموقف الذي اتخذناه فيما يتعلق بزلات القلم وفلتات اللسان. فالشرط الضروري لحادث من هذا النوع، وهو شرط كاف على الأغلب، هو القصد اللاشعوري وراء الحادث. فالإرهاق والملل ... الخ مجرد عوامل ثانوية أو مساعدة.

إذا تساءل القارئ الآن كيف يمكن أن نتأكد من أن الحوادث التي تقع تحت سيطرة الشخص هي في حقيقتها من صنعه لا شعورياً، فإن إجابتنا عن ذلك هو أن هذا الاستنتاج تعميم تم الوصول إليه على أساس من الدراسة المباشرة لحالات مماثلة. وهنا، كما في الهفوات، تعني الدراسة المباشرة استخدام تقنيات التحليل النفسي. إذا كان الشخص متعاوناً، سوف تقود مستدعياته إلى فهم دوافعه اللاشعورية المسببة للحادثة التي بدأت للوهلة الأولى عرضية تماماً. إذ ليس من النادر، أثناء تحليل مثل هذه الحوادث، أن يتذكر الشخص كيف

أنه توقع الحادث قبل وقوعه. ومن الواضح أن في إمكانه معرفة ذلك قبل حدوثه في حالة واحدة فقط وهي عندما ينوي أن ذلك يجب أن يحدث. غير أن هذا الوعي الجزئي بالقصد غالباً ما يتم كبته، أي نسيانه، أثناء أو بعد الحادث مباشرة، ولا يعود إلى الذاكرة الشعورية إلا بعد إجراء تحليل للحادثة. وهكذا، بدون التحليل، فإن الشخص ذاته عادة ما يكون مقتنعاً تماماً بالطبيعة العرضية البحتة للحادث الذي تسبب فيه بشكل مقصود.

من الطبيعي أن تظهر الفرصة أثناء التحليل النفسي لدراسة مثل هذه الحوادث مباشرة، بعكس الاعتماد على مجرد التكهن حول هذه الحوادث استناداً إلى دليل ظرفي خارجي. ومعظم أمثلتنا سوف يتم استخلاصها من هذا المصدر بهذه الطريقة، رغم أن تكرار مثل هذه الحوادث في حياة مرضى التحليل النفسي ليس أكثر منه في حياة الأشخاص الآخرين.

في إحدى المناسبات، وبينما كان المريض يقود سيارته إلى العمل، انعطف يساراً نحو مفرق طرق مزدحم جداً. وبسبب ازدحام المشاة الذين يعبرون الشارع، فقد أبطأ من سرعته إلى حوالي خمسة أميال / الساعة، حينما صدم وبشكل مفاجئ رجلاً عجوزاً برفرف سيارته الأيسر الأمامي وأوقعه على الأرض. وعلى قدر ما يتذكر المريض حينما أخبر عن قصة الحادثة للمرة الأولى، فإنه لم ير الرجل مطلقاً. غير أنه فيما بعد، استطاع أن يتذكر أنه لم يفاجأ حينما أحس بأن السيارة صدمت شيئا ما. بمعنى آخر، أنه كان على علم مبهم بنيته اللاشعورية في صدم الرجل برفرف سيارته ساعة وقوع الحادث المؤسف. وعلى أساس من مستدعياته حول الظروف المختلفة للحادث ،فقد كان ممكناً أن نكتشف أن الدافع

اللاشعوري الأساسي لهذا الحادث كان رغبة المريض في تدمير والده. حقاً، أن والده مات منذ عدة سنوات، غير أن الرغبة التي كانت نشطة خلال الطور الأوديبي للمريض، تم كبتها بقوة في هو المريض منذ ذلك الحين. يمكن أن نفهم بأن هذه الرغبة قد اُستبدِلت وفقاً لطريقة العملية الأولية إلى رجل عجوز مجهول كان في طريق سيارة المريض، وأصبح لذلك ضحية لما بدا حادثاً عرضياً. ومما نستنتجه أيضاً ،أنه رغم أن الضحية لم يتعرض لأية إصابة، وأن المريض كان يملك تأميناً شاملاً، إلا أنه مع ذلك شعر بالخوف والذنب بدرجة لا تتناسب مع طبيعة الحادث التافهة. إن معرفتنا للدوافع اللاشعورية التي أدت لصدم الرجل تجعلنا ندرك أن تلك الدوافع هي أكثر المصادر أهمية لمخاوف المريض التالية ومشاعر ذنبه. بمعنى آخر، إن ردة فعله على الحادث كانت غير مناسبة بشكل واضح. غير أنها في اتساق تام مع رغبته المكبوتة في تدمير والده.

المثال الآخر، التافه جداً لدرجة لا يستحق معها تسميته حادثاً، هو ذلك الذي ذكرناه في الفصل الأول. في تلك الحادثة، بينما كان الشاب يقود سيارته إلى منزل خطيبته صباح يوم الزفاف، إذا به يتوقف عند الإشارة الخضراء غير مدرك لخطأه إلى أن تغيرت إلى اللون الأحمر. أدت مستدعيات السائق في هذه الحالة إلى الكشف عن مشاعر تردده اللاشعورية في المضي قدماً في زواجه ،والتي تعود بشكل أساسي إلى الخوف والإثم المرتبطين بتخيلات جنسية لاشعورية سادية ومحارمية، يعني ذات طبيعة أوديبية.

بالنسبة لأول المثالين اللذين ذكرناهما الآن، كان حادث السير راجعاً إلى كبت ناقص أو غير كاف لنزوة الهو العدائية. وهذه النزوة للهو هربت جزئياً من الكبت، كما يعبر

عنه غالباً في كتابات التحليل النفسي. أما في المثال الثاني، فقد نجمت الهفوة إما عن دفاع ضد نزوات معينة للهو، أو من حظر من الأنا الأعلى موجه ناحية هذه النزوات، أو ربما من الاثنين معاً، حيث في هذا المثال من الصعب التمييز بينهما بشكل مؤكد.

يلعب النشاط اللاشعوري للأنا الأعلى دوراً هاماً في التسبب في هذا النوع من الهفوات. وكثير من الحوادث قصد منها لاشعورياً خسارة أو إيذاء الذات. وتلعب الحاجة اللاشعورية للعقاب، أو للتضحية، أو للتعويض عن تصرف سابق أو رغبة ما سابقة، الدور الأكبر في الدافع وراء مثل هذه الحالات. وكل هذه الدوافع، كما يذكر القارئ، تعود إلى الأنا الأعلى.

وكمثال على هذه الدوافع، يمكن أن نستشهد بالحالة التالية. فالمريض في مثالنا الأول صدم في أحد الأيام بعجلة سيارته الأمامية زاوية أحد أحجار الرصيف ،أثناء محاولة رصف السيارة بقوة، لدرجة تمزق معها الإطار بشكل يتعذر إصلاحه. إن من المستبعد أن يقع لسائق خبير مثل هذا الحادث، وما يثير الدهشة أكثر كونه حصل أمام منزل المريض، حيث سبق وأن رصف سيارته مرات عدة قبل ذلك دون أي حادث. مع ذلك، فقد زودتنا مستدعياته بالتفسير. ففي وقت الحادثة كان المريض عائداً من زيارة لمنزل جده لوالده في صباح اليوم الذي توفي فيه إثر مرض لازمه لعدة أشهر. أحس المريض لا شعورياً بالذنب نتيجة لموت جده ،بسبب ما يكنه من رغبات عدوانية تجاهه، وهي رغبات تشبه إلى حد كبير رغباته اللاشعورية تجاه والده. لقد حطم إطار سيارته ليرضي المطالب اللاشعورية للأنا الأعلى، بأن يعاقب على ما أضمره في خيالاته اللاشعورية من تمني الموت لجده.

أحياناً يجمع مثل هذا الحادث كلاً من الجريمة والعقاب. في ظننا، مثلاً، انه في المثال الذي ضربناه، حقق بعض الخيال المكبوت لتدمير الأب إشباعاً رمزياً من خلال صدم السيارة بالرصيف. في هذا المثال على وجه الخصوص، لم تشر مستدعيات المريض لذلك الاتجاه، لذلك لم يبق أمامنا سوى التخمين أو الحدس. ومع ذلك، ففي حالات أخرى، لا يوجد شك حول حقيقة أن الجريمة والعقاب يشملهما فعل واحد.

على سبيل المثال، بينما كانت إحدى المريضات تقود سيارة زوجها توقفت فجأة في منتصف الطريق لدرجة أن السيارة التي خلفها صدمت الرفرف الخلفي لسيارتها. لقد اظهر تحليل هذا الحادث مجموعة معقدة من الدوافع اللاشعورية. وقد ظهر بجلاء ثلاثة دوافع مختلفة، رغم أنها متصلة ببعضها البعض. الأول، كانت المريضة في حالة غضب لا شعوري عاصف بسبب سوء معاملة زوجها. وكما شرحت المريضة، فقد كان زوجها يحاول دائماً إقصاءها. تدمير سيارة الزوج، إذن، كان تعبيراً لاشعورياً عن غضبها منه، ذلك الغضب الذي لم تكن قادرة على إظهاره علناً وتوجيهه نحوه مباشرة. الثاني، شعور المريضة بالذنب بسبب رغبتها اللاشعورية في النيل من زوجها أثناء غضبها بإتلافها لسيارته كان طريقة ممتازة لجعل الزوج يعاقبها. بمجرد وقوع الحادث عرفت أنها "تورطت فيه." الثالث، كان للمريضة رغبات جنسية عنيفة لم يكن الزوج قادراً على إشباعها وقد كبتتها بقوة. وهذه الرغبات الجنسية اللاشعورية تحقق إشباعها بشكل رمزي بالسماح لرجل بأن "يخبط في ذيلي" حسب تعبيرها.

سوف لن نحاول بيان أو توضيح كل أنماط الهفوات التي يمكن تمييز إحداها عن

الأخرى، طالما أن الأسباب والآلية الكامنة هي نفسها بالنسبة للجميع، أو على الأقل متشابهة جداً. من المثير للاهتمام أنه ليس من السهل رسم خط واضح يميز بين الهفوات وما يسمى بالحوادث النفسية العادية. فعلى سبيل المثال، تختلف زلة اللسان اختلافاً بيناً عن الاستعارة أو المجاز الذي هو مقصود بشكل واع. لكن هناك استعارات، أو أشكال أخرى من الكلام، تظهر أثناء المحادثة دون أن تكون مقصودة شعورياً. إنها تقفز تلقائياً، إذا جاز التعبير، حيث تكون أحياناً مصدر سعادة للمتحدث، وأحياناً أخرى مصدر فزع، وفي بعض المرات دون أية ردة فعل من المتحدث سوى تقبلها بهدوء كجزء "مما أراد قوله." وهكذا نرى أنه رغم أن الاستعارة المنتقاة بعناية وزلات اللسان يمكن الفصل بينهما بسهولة، إلا أن هناك حالات متوسطة. كيف تفصل الاستعارة غير المقبولة التي يحاول المتحدث أن يتراجع عنها قائلاً " آه، لا. ليس هذا ما قصدته،" عن زلة اللسان ؟. بنفس الطريقة، ينبغي أن نصنف هفوة سير الشخص في منعطف خاطئ أثناء نزهة معتادة بعيداً عن وجهته المقصودة. ومع ذلك، قد يغير الشخص مسار نزهة معتادة، دون تخطيط مقصود، بالسير في طريق غير مألوف كي يصل نفس الوجهة. هل ينبغي أن نسمي ذلك هفوة ؟ أو مرة ثانية قد يكتشف الشخص أنه غير طريقه المفضل دون أي تفكير مقصود، وهكذا فما كان مرة طريقاً معتاداً أصبح الآن طريقاً غير معتاد. أين يمكن أن نرسم الحد بين ما هو هفوة وما هو أمر عادي ؟ الواقع أنه لا يوجد تمييز واضح. فالاختلافات في الدرجة وليس في النوع. فالدور الذي تلعبه الدوافع والنزعات اللاشعورية ،النابعة من الهو، ومن الأجزاء اللاشعورية من الأنا والأنا الأعلى، في صنع وتشكيل ما يسمى بالأحداث النفسية السوية لا يقل عن الدور الذي تلعبه

في صنع الهفوات. ففي الحالة السابقة، يكون في مقدور الأنا التوسط بين التأثيرات اللاشعورية المتعددة بحيث يسيطر عليها ويمزجها بطريقة متناغمة مع بعض ومع العوامل النابعة من البيئة الخارجية. ونتيجة لذلك فإن ما يطفو عندها إلى الوعي يظهر كلاً واحداً متكاملاً وليس كما هو عليه حقيقة، أي مركب من نزعات عديدة مختلفة من مصادر مختلفة عدة. أما في حالة الهفوات، من الناحية الأخرى، فإن الأنا لم ينجح بنفس الدرجة في المزج التام للقوى العقلية المختلفة الناشطة لاشعورياً لحظة حدوث الهفوة، ونتيجة لذلك فإن أحد هذه القوى أو بعضها يحرز بشكل مستقل درجة ما من التعبير الحركي. فكلما كان الأنا أقرب إلى النجاح في دمج الأنشطة، كلما اقترب من النتيجة النفسية الطبيعية. وعلى العكس، كلما كان أقل نجاحاً في دمج النشاطات، كلما جاءت الهفوات واضحة.

لو حاولنا الآن تلخيص فهمنا لهفوات الحياة اليومية لقلنا أنها ناجمة عن درجة ما من فشل الأنا في دمج القوى المختلفة، الناشطة داخل العقل في لحظة ما، ضمن كل متناغم. تنبع القوى النفسية اللاشعورية، المقاومة للدمج ،والتي أحرزت في حالة الهفوات درجة ما من التأثير المباشر المستقل على التفكير أو السلوك، تنبع أحياناً من الهو، وأحياناً من الأنا، وأحياناً من الأنا الأعلى، وأحياناً من الاثنين أو من الجميع معاً. يمكن لأي ملاحظ أن يقوم أحياناً بتخمين دقيق للطبيعة الخاصة لهذه القوى اللاشعورية على أساس من الدليل الخارجي وحده. ومع ذلك، ففي معظم الحالات يكون التعاون النشط للشخص في تطبيق أسلوب التحليل النفسي ضرورياً كي يمكن اكتشاف أي القوى اللاشعورية في حالة عمل. علاوة على ذلك، فإنه حتى في الحالات التي يمكن فيها القيام بتخمين مقنع، فإنه من خلال استخدام أسلوب

التحليل النفسي وحده يمكن للمرء أن يتأكد مما إذا كانت تخميناته صحيحة وتامة أم لا.

والآن نتحول إلى مناقشة النكات. والنكات مثلها مثل الهفوات ظاهرة مألوفة في الحياة اليومية، التفت إليها فرويد مبكراً جداً خلال أبحاثه في التحليل النفسي (Freud,1905a). لقد نجح في توضيح طبيعة وأهمية العمليات العقلية اللاشعورية التي تشكل جزءاً من تكوين وإمتاع النكتة، وطور نظرية تشرح مصدر الطاقة النفسية التي يتم تفريغها في ضحكة حينما تكون النكتة جيدة.

أوضح فرويد أن عملية التفكير الأولي تلعب دوراً أساسياً في كل نكتة، وقد فعل ذلك باستخدام تقنية غاية في البراعة. لقد أعاد صياغة النكتة بلغة العملية الثانوية دون تغيير لمحتواها، ومن ثم اختفت النكتة كلياً. وما تبقى بعد إعادة الصياغة قد يكون مثيراً للاهتمام، أو حكيماً، أو ساخراً، أو غير لائق، غير أنه لم يعد مضحكاً.

لنأخذ على سبيل المثال، العبارة السياسية الساخرة المأثورة التي تقول أن ''الليبرالي شخص مغروس بقدميه بقوة في الهواء.'' قد لا يكون واضحاً من الوهلة الأولى أن عملية التفكير الأولي قد استخدمت في هذه الجملة. لكن دعونا نرى ما الذي يحدث لو أعدنا الصياغة بلغة العملية الثانوية. إذا فعلنا ذلك، فإن العبارة المأثورة سوف تصبح شيئاً ما يشبه هذا ''يحاول الليبرالي أن يكون حازماً وعملياً، لكنه في الواقع لا هذا ولا ذاك.'' هذه ملاحظة ناقدة، لكنها لم تعد مضحكة.

الآن، وقد أعدنا صياغة العبارة المأثورة بلغة تعود حصرياً إلى أسلوب العملية الثانوية، نلاحظ على الفور أن جدية المعنى في الشكل الأصلي لهذه العبارة تم التعبير عنه بصيغة العملية

الأولية وليس العملية الثانوية. يعني، أن الشكل الأصلي ينقل إلى القارئ صراحة، عبر عملية التفكير الثانوي، صورة عن إنسان، يوصف ''بالليبرالي'' يقف ثابتاً في الهواء! من خلال القياس يفهم القارئ أو المستمع أن '' إنساناً مغروساً بقدميه بقوة '' تعني ''إنساناً حازماً أو صارماً '' وأن ''إنساناً واقفاً في الهواء'' تعني ''إنساناً متردداً وغير عملي.'' إضافة إلى ذلك، يفتقر الشكل الأصلي للعبارة المأثورة كلية إلى الكلمات الرابطة والمفسرة التي تظهر في إعادة الصياغة، أعني، ''يحاول أن يكون ''و '' لكنه في الواقع.'' وكما يذكر القارئ من الفصل الثالث، فإن التمثيل بالقياس، والميل نحو التبسيط المغالي فيه في تركيب الجمل، كلها خصائص لعملية التفكير الأولي.

تمثل نوادر ونكات أخرى خصائص أخرى مشتركة من عملية التفكير الأولي، مثل الاستبدال، و التكثيف، و التعبير عن الكل بالجزء، أو العكس، و تكافؤ الأضداد، والرمزية بالمعنى التحليلي للكلمة. إضافة إلى ذلك، وحيث أن النكتة في الأساس ظاهرة لفظية، يمكن للمرء أن يلاحظ من خلال تحليلها الطرق التي يمكن أن تستخدم فيها الكلمات في عملية التفكير الأولي. على سبيل المثال، قد تضم أجزاء من كلمتين مختلفتين ليكونا كلمة جديدة تحمل معنى الكلمتين الأصليتين معاً، وهذه قد نعتبرها عملية تكثيف للكلمات. كما قد يستخدم جزء من الكلمة ليدل على الكل، أو قد يستبدل معنى كلمة بكلمة أخرى يدل معناها عادة على شيء مختلف تماماً عن الكلمة الأولى، إلا أنها تشبهها في الصوت والهيئة. كل هذه خصائص للعملية الأولية تندرج تحت ما نسميه ''اللعب بالكلمات'' أفضل ما هو معروف عن مثل هذا اللعب بالكلمات لغرض التسلية هو الجناس، والذي يوصف بأنه أدنى

أشكال النكتة. لكن، في الواقع، ورغم هذا القدح في قيمته، إلا أن الجناس موجود في العديد من النكات الرائعة.

من وجهة النظر النمائية، نعيد التذكير بأن العملية الأولية هي نمط التفكير السائد في مرحلة الطفولة، وأنها تستبدل تدريجياً بالنمط الثانوي مع تقدم الفرد في العمر. ويمكن أن نقول من وجهة النظر هذه أن أي نشاط مثل النكتة يتضمن بالنسبة لكل من المؤلف والمستمع إعادة جزئية ومؤقتة للعملية الأولية إلى سابق عهدها كنمط مسيطر من التفكير، أو بمعنى آخر، نكوص جزئي ومؤقت للأنا. وفي حالة النكتة فالأنا نفسه هو الذي يبدأ النكوص، أو على الأقل يشجعه. لقد أشار كريس (Kris,1952) لهذا النكوص باعتباره نكوصاً في خدمة الأنا ونكوصاً موجهاً، حتى يمكن تمييزه عن الأنماط المختلفة من النكوص المرضي ،الذي يمكن حدوثه في صورة خارجة عن السيطرة تضر كثيراً بكفاءة الأنا في أداء وظائفه، بل وحتى بسلامته.

يمكننا القول، تلخيصاً لما عرضناه حتى الآن، أن مؤلف النكتة يعبر، بواسطة النكوص الجزئي، عن الفكرة وفقاً للعملية الأولية. ثم يوضع المفهوم أو الصورة الناتجة في لغة العملية الثانوية، أي، يتم التعبير عنها بالكلمات. وبالعكس، يفهم المستمع النكتة من خلال النكوص الوقتي إلى عملية التفكير الأولي. ويتوجب على القارئ أن يفهم أن هذا النكوص يحدث تلقائياً وبدون جذب لانتباه المؤلف أو المستمع.

على سبيل المثال، في حال المثال الذي ذكرناه سابقاً، يريد مؤلف العبارة الساخرة، أياً كان، أن يعبر بأسلوب فكاهي عن فكرة أن الليبرالي يحاول أن يكون عملياً وحازماً، بينما

هو في الواقع ليس كذلك. هذه الفكرة تم التعبير عنها، من خلال النكوص الجزئي إلى عملية التفكير الأولي، بفكرة رجل واقف في الهواء ورجلاه مغروستان بقوة. هذه الفكرة، معبر عنها بالكلمات، تشكل النكتة. والعكس صحيح، إذ يفهم القارئ أو المستمع معنى المؤلف من خلال العملية الأولية، بسبب نكوص جزئي من تلقاء نفسه.

وفيما يتعلق بالخصائص الشكلية للنكتة، فهي تمثل، كما أوضح فرويد من خلال الأمثلة العديدة، شرطاً ضرورياً للنكتة، طالما أنها لو أزيلت، تختفي خاصية النكتة أيضاً. مع ذلك، وكما بين فرويد أيضاً، فإن هذه الخصائص الشكلية نادراً ما تكفي وحدها، رغم بعض الاستثناءات، في خلق الانطباع بنكتة جيدة. على سبيل المثال، قد يرى الكثير من الناس في الجناس المتعدد والمركب نكتة، ببساطة بسبب تميزه الشكلي والتقني. إنه ليس ''مجرد جناس،'' إنه جناس بارع جداً بسبب شكله ومن ثم يستحق وصف النكتة. ويوضح مقطع الشعر التالي هذه النقطة.

There was a young man named Hall
Who died in the spring in the fall
it would have been a sad thing
If he'd died in the spring
But he didn't , he died in the fall.

كان هناك شاب اسمه هول[3]

---

[3]. للأسف لم أتمكن من ترجمة النص بما يحافظ على فكرة الجناس الموجودة في الكلمات. والجناس ، بمعنى تشابه الألفاظ في الحروف واختلافها في المعني، معروف في اللغة العربية، ومثاله:

أقول لظبي مر بي وهو هائم   أأنت أخو ليلى فقال يقال
فقلت أفي ظل الأراكة والغضا   يقال ويستظل فقال يقال

قضى غرقاً في نبع الماء
سوف يكون أمراً سيئاً
إن هو مات في الربيع
لكنه لم يفعل، بل مات في الخريف

من الناحية الأخرى، قد يخلق تعليق ما انطباع نكتة بارعة لكون المستمعين مستعدين للإنصات تماماً. وكما يعرف كل كوميدي، حينما يشرع المستمعون في الضحك بحماس، فإن كل شيء تقريباً سوف يكفي لإنتاج مزيد من الضحك، حتى ولو كان شيئاً لن يثير ضحك هؤلاء المستمعين لو كانوا في مزاج مختلف. وبنفس الطريقة، يؤدي تناول المستمعين للكحول إلى زيادة فكاهة المتحدث. والعكس، بالنسبة لشخص ليس في مزاج طيب، إذ بالنسبة له لا شيء يثير الضحك.

مع ذلك، فهذه الاستثناءات، إذا وافق القارئ على أنها كذلك، ذات دلالة ثانوية. وعلى العموم، فالخصائص الشكلية التي وصفناها ضرورية، لكنها ليست وحدها كافية للنكتة؛ فالمحتوى أيضاً مهم، كما أشار فرويد. ويتكون المحتوى، على وجه خاص، من أفكار جنسية أو عدوانية يواجهها الأنا بدفاع حازم لحظة إطلاق النكتة أو سماعها. مع العلم بأن

فقلت يقال المستجير بارضكم إذا ما جنى ذنباً فقال يقال

فيقال الأولى من القول، والثانية من القيلولة، والثالثة بمعنى العفو والصفح

وفي المثال الذي أورده المؤلف، تعني كلمة (spring) في الشطر الثاني نبع ،وكلمة (fall) في الشطر الثالث بمعني يقع. بينما تعني كلمة (spring) في الشطر الأخير فصل الربيع، وكلمة (fall) فصل الخريف.

(المترجم)

كلمة ''جنس'' تستخدم بمعناها التحليلي، وهذا يعني أنها تشمل المكون الفمي والشرجي، إضافة إلى القضيبي والتناسلي. يعمل فن النكتة عموماً على تفعيل تصريف الميول اللاشعورية التي سوف لن يسمح بالتعبير عنها بطريقة أخرى، أو على الأقل التعبير الكامل عنها.

لتوضيح ذلك نعرض التعليق الفكاهي التالي، الذي كان متداولا خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، والمنسوب لكوميدي معروف وقتها : ''لن أفاجأ مطلقاً لو أن كل البنات في حفل لجامعة ييـل طُرِحنَ أرضاً جنباً إلى جنب'' إن مضمون هذه النكتة هو'' لن أفاجأ لو أن كل البنات في حفل جامعة ''ييل '' مارسن الجنس بينما كن هناك'' التعبير المباشر عن هذا المضمون في تجمع اجتماعي سوف يثير درجة من إدانة الأنا الأعلى لدى المستمعين. وقد يعتبرون المؤلف والتعليق بذيئين، ولن يجدوا متعة مصدرها أي رغبات أو خيالات جنسية قد يكون أثارها في عقولهم ما سمعوه. من ناحية أخرى، حينما يُنقل نفس المضمون بطريقة فكاهية، فإن شجب وإدانة الأنا لأعلى يمكن تجنبها، وتصاحب الإثارة الجنسية المتعة أكثر مما يصاحبها الضيق. بمعنى آخر، يسمح أسلوب النكتة بدرجة معينة من الإشباع الجنسي الذي يكون عادة غير ممكن في هذه الظروف.

بنفس الطريقة، فإننا لو عدنا إلى العبارة السابقة حول الليبرالي، للاحظنا أن المؤلف، ومن خلال استخدامه للنكتة، استطاع أن يعبر عن أقوى مشاعر الازدراء والاحتقار لليبراليين أكثر مما كان يمكنه فعله بشكل مباشر، وبموافقة تامة من مستمعيه. حقاً، فمن خلال مساعدة العملية الأولية يظهر المؤلف، وحتى آخر كلمة في الجملة، وكأنه يمدح الليبرالي أكثر مما يسبه أو يشتمه. وهنا مرة أخرى، من وجهة نظر المستمعين، تستطيع النزعات الممنوعة أن

تحصل على درجة من الإشباع ،أو التصريف الممتع ،الذي لا يمكن الحصول عليه في ظروف أخرى. والنزعات المقصودة في هذه الحالة، طبعاً، نزعات عدائية.

إن المتعة المستمدة من هذه النزعات الممنوعة، سواء أكانت عدائية، أو جنسية، أو الاثنين معاً، هي التي تساهم بالنصيب الأوفر في إمتاع النكتة. فلكي تكون النكتة جيدة حقاً، ينبغي أن تكون أكثر من ذكية، أي يجب أن تتضمن فكرة. فباستثناء ربما الشخص الخبير بالنكتة، فإن التفوق الشكلي ليس بديلاً مقبولاً عن المحتوى أو المعنى. بمعنى آخر، نادراً ما تكون المتعة المستمدة من الجزء الشكلي للنكتة في مثل أهمية الجزء الناشئ عن هروب نزعة ممنوعة من ضغط دفاعات الأنا.

من ناحية أخرى، ينبغي أن نعترف بأنه، رغم التفاوت في الكمية، فإن متعة النكتة تنبع من مصدرين مستقلين. أولهما الاستبدال النكوصي للعمليات الأولية بعمليات التفكير الثانوية التي كما لاحظنا تعتبر شرطاً ضرورياً للنكتة. ويمكننا أن نفترض أن المتعة النابعة من هذا النكوص هي حالة خاصة من المتعة الناشئة عموماً من الارتداد إلى السلوك الطفولي والتخلص من قيود حياة الكبار. أما المصدر الثاني للمتعة فهو، كما سبق أن قلنا، نتيجة لتحرير أو هروب النزوات التي لولا ذلك لكانت مراقبة أو ممنوعة. ومن بين الاثنين، يعتبر الأخير مصدر المتعة الأكبر، بينما يعتبر السابق ضرورياً للحصول على التأثير الذي نسميه نكتة.

سوف يتبين للقارئ أن المناقشة النظرية التي حوتها الفقرات القليلة السابقة قد صيغت بمصطلحات ذاتية، أي بلغة خبرة المتعة. لقد حاول فرويد، في مقالته عن النكتة، أن

يخطو خطوة أبعد ويفسر الضحك والمتعة المصاحبين للنكتة على أساس من تصريف الطاقة النفسية.

وصياغة فرويد هي كالتالي. يؤدي استبدال العملية الأولية بالعملية الثانوية في ذاته إلى توفير معين في الطاقة النفسية التي تصبح عندها متوفرة للتصريف الفوري في شكل ضحك. ومع ذلك، فإن توفير كميات أكبر من الطاقة النفسية يصبح ميسوراً عن طريق الإبطال المؤقت لدفاعات الأنا، ونتيجة لذلك يتم إطلاق وتحرير النزعات الممنوعة في أحوال أخرى بشكل مؤقت. لقد افترض فرويد أن الطاقة التي يستهلكها الأنا عادة في شكل شحنة انفعالية مضادة لتلك النزعات هي التي تحررت فجأة وبشكل مؤقت في النكتة ،وأصبحت لذلك متاحة للتصريف من خلال الضحك.

يمكن أن نلخص هذا الفصل بمقارنة ما تعلمناه عن النكتة بما تعلمناه عن الهفوات، فالتشابه بين الظاهرتين واضح. ففي الحالتين هناك انبثاق وقتي لميول لاشعورية إلى حد كبير، وفي الحالتين تلعب عملية التفكير الأولي على نحو خاص دوراً هاماً وضرورياً. غير أنه، في حالة الهفوات يعود انبثاق الميل اللاشعوري إلى قصور مؤقت لدى الأنا في التحكم في هذا الميل أو في دمجه بطريقة سوية مع الميول النفسية الأخرى الناشطة داخل العقل في تلك اللحظة. فالهفوة تحدث رغماً عن الأنا. أما في حال النكتة، من الناحية أخرى، فإن الأنا إما أن ينتج أو يسمح بشكل مقصود بالنكوص الجزئي والمؤقت إلى عملية التفكير الأولي، وبهذا يشجع الإبطال المؤقت لنشاطاته الدفاعية التي تسمح للنزوات اللاشعورية بالظهور. فالأنا ينتج النكتة أو يرحب بها. الاختلاف الآخر يظهر في أن النزوة اللاشعورية التي تنبثق مؤقتاً

في الهفوات قد تنبع من الهو أو الأنا أو ألأنا الأعلى، بينما في النكتة تنبثق النزوة اللاشعورية عادة من الهو.

قراءات إضافية

Freud, S., The psychopathology of everyday life. Standard edition, vol.,6,1960. Also, New York: Norton,1965.

Freud, S., Jokes and their relation to the unconscious. Standard edition, vol., 8, 1960.

الفصل السابع

الأحلام

Dreams

تحتل دراسة الأحلام مكاناً خاصاً في التحليل النفسي. فكتاب تحليل الأحلام (Freud,1900) كان مساهمة ثورية و هامة في علم النفس كما كان كتاب أصل الأنواع في علوم الحياة منذ نصف قرن قبل ذلك. ففي عام 1931 كتب فرويد، في تقديمه للطبعة الثالثة من ترجمة بريل Brill لكتاب تفسير الأحلام، ''إنه يحوي، حتى وفقاً لتقديري الحاضر، أكثر الاكتشافات التي مكنني حسن الحظ من إنجازها قيمة. إن مثل هذا الحدس لا يحدث في حياة المرء سوى مرة واحدة'' فضلاً عن ذلك، قدم له نجاحه في فهم الأحلام مساعدة كبيرة خلال السنوات الأولى حينما كان يواصل عمله المهني بسبب الحاجة وشظف العيش بعيداً تماماً عن زملائه الأطباء. في تلك الأيام الصعبة كان يناضل من أجل أن يفهم كيف يعالج بنجاح الأعصبة التي يعاني منها مرضاه. وكما نعلم من رسائله (Freud,1954)، فقد كان في الغالب محبطاً ،وحتى يائساً أحياناً. لكن مهما كان شعوره بالإحباط، فقد كان يستمد الشجاعة من اكتشافاته التي أنجزها في مجال الأحلام. هناك، كان يعلم أنه يقف على أرضية صلبة، وقد منحته هذه المعرفة الثقة التي يحتاجها كي يواصل تقدمه (Freud,1933).

لقد كان فرويد محقاً في تقييمه العالي لمؤلفه عن الأحلام، إذ لا توجد ظواهر أخرى من الحياة العقلية النفسية السوية تجلت فيها بكل وضوح العمليات العقلية اللاشعورية ،وأصبحت متاحة للدراسة ،بمثل ما هي عليه في ظاهرة الأحلام؛ فالأحلام هي حقاً الطريق الملكي للمراكز اللاشعورية للعقل. لكن حتى هذا لا يتضمن كل مبررات أهميتها وقيمتها للمحلل النفسي. فالحقيقة أن دراسة الأحلام لا تؤدي فقط إلى فهم المحتويات والعمليات العقلية اللاشعورية بشكل عام؛ إنها تقود بشكل خاص إلى تلك المحتويات العقلية المكبوتة،

أو تلك المستبعدة من الشعور والتفريغ بواسطة الأنشطة الدفاعية للأنا. وبما أن جزء الهو الذي استبعد من الشعور هو المتورط في العمليات المرضية التي ينشأ عنها العصاب، وربما أيضاً الذهان، فإن القارئ يستطيع أن يدرك وبسهولة أن هذه الخاصية من خصائص الأحلام ما تزال تشكل سبباً مهماً للمكانة الخاصة التي تشغلها دراسة الأحلام في التحليل النفسي.

يمكن صياغة نظرية التحليل النفسي في الأحلام كما يلي. تمثل الخبرة الذاتية الشعورية أثناء النوم، والتي يدعوها النائم بعد استيقاظه باسم الحلم، النتيجة النهائية للنشاط العقلي اللاشعوري أثناء النوم والذي، بسبب طبيعته أو بسبب حدته، يهدد بالتداخل مع النوم نفسه. لكن النائم يحلم بدل أن يستيقظ. نطلق على الخبرة الشعورية أثناء النوم، والتي قد يستدعيها النائم أو لا يستدعيها بعد الاستيقاظ، الحلم الظاهري، ونطلق على عناصره المختلفة المحتوى الظاهري للحلم. بينما نطلق مصطلح المحتوى الكامن للحلم على الرغبات والأفكار اللاشعورية التي تهدد بإيقاظ النائم. أما العمليات العقلية اللاشعورية التي يتم بواسطتها تحويل المحتوى الكامن للحلم إلى حلم ظاهر فنسميها إخراج الحلم.

إن من المهم للغاية أن نتذكر هذا التمييز بشكل واضح، لأن الفشل في ذلك يشكل أهم مصادر الخلط وسوء الفهم المتكرر الذي يحيط بنظرية التحليل النفسي للأحلام. بعبارة أدق، فإن كلمة ''حلم''(وفقا لمصطلحات التحليل النفسي) ينبغي أن تستخدم فقط للدلالة على مجمل الظاهرة التي تتكون من محتوى الحلم، وإخراج الحلم، وظاهر الحلم. أما في الممارسة وفي كتابات التحليل النفسي، فإن كلمة ''حلم'' تستخدم غالباً للدلالة على المعنى

الظاهر للحلم. في هذه الحالة، فإن ذلك لا يؤدي عادة إلى أي خلط طالما كان القارئ على إلمام سابق جيد بنظرية التحليل النفسي في الأحلام. على سبيل المثال، فإن عبارة ''حدث للمريض الحلم التالي،'' حينما تتبع بالنص اللفظي لظاهر الحلم، لا تترك شكاً في ذهن القارئ المطلع أن كلمة ''حلم'' تعني ''الحلم الظاهر.'' مع ذلك، فإن على القارئ غير الملم بنظرية الأحلام أن يسأل نفسه عما يقصده المؤلف باستخدام كلمة حلم دون تقييد كلما قرأها في مؤلفات التحليل النفسي. هناك مصطلح آخر يبرز في الممارسة وفي النقاش والأدبيات ومن المناسب تحديد معناه هنا. ذاك هو عبارة ''معنى الحلم'' ففي معناها الدقيق، تدل عبارة معنى الحلم على المحتوى الكامن للحلم فقط. وسوف نحاول في مناقشنا الحالية المحافظة على المعنى الدقيق للمصطلحات كي نتجنب احتمالات سوء الفهم.

بعد أن عرفنا الأجزاء الثلاثة للحلم، دعونا نتقدم لمناقشة ذلك الجزء الذي نعتقد أنه الممهد لعملية الحلم، ونعني بذلك المحتوى الكامن للحلم. يقسم هذا المحتوى إلى ثلاث فئات رئيسية. الفئة الأولى واضحة، وتتكون من الانطباعات الحسية الليلية. مثل هذه الانطباعات تصدم بشكل متواصل الأعضاء الحسية للنائم، ويساهم بعضها من حين لآخر في إيجاد الحلم، وفي هذه الحالة تشكل جزءاً من المحتوى الكامن لذلك الحلم. والأمثلة على تلك الأحاسيس معتادة لنا جميعاً. صوت ساعة التنبيه، الجوع، العطش، الحاجة للتبول أو التبرز، الألم الناجم عن الجرح أو المرض، أو عن الوضع الخاطئ للجسم، أو الضيق الناجم عن الحرارة أو البرودة، كل هذه يمكن أن تكون جزءاً من المحتوى الكامن للحلم. وفي هذا الخصوص يجب الانتباه إلى حقيقتين الأولى، أن معظم المنبهات الحسية الليلية لا تقلق نومنا،

حتى ولو وصلت إلى درجة المشاركة في تكوين الحلم. على العكس، إن معظم المنبهات الواردة من أجهزتنا الحسية ليس لها تأثير ملحوظ على عقولنا أثناء النوم. وهذا صحيح حتى بالنسبة للأحاسيس التي نعتبرها في حالة يقظتنا قوية أو حادة. فهناك بعض الأشخاص الذين يمكنهم النوم أثناء العواصف الرعدية العنيفة دون أن يحلموا أو يستيقظوا، رغم ما يتمتعون به من حاسة سمع قوية. الحقيقة الثانية، أن الانطباع الحسي المقلق أثناء النوم يمكنه، على الأقل حسب معرفتنا، أن يؤدي إلى استيقاظ النائم مباشرة دون أن يحلم. هذا على الأقل واضح في تلك المواقف التي نكون فيها نائمين و''عيوننا نصف مفتوحة'' أو ''آذاننا نصف مُوَترة،'' كما يحدث على سبيل المثال مع الأبوين حينما يوجد طفل مريض في الأسرة. في مثل هذه الحالة سوف تستيقظ الأم فوراً لدى سماعها أي صوت صادر عن الطفل، مهما كان ذلك الصوت ضعيفاً.

الفئة الثانية من المحتوى الكامن للحلم تتكون من الأفكار المتصلة بمشاغل وأنشطة الحالم الحاضرة أثناء اليقظة ،والتي تظل لا شعوريا نشطة في عقل النائم أثناء نومه، وبسبب هذا النشاط الدائم فإنها تؤدي إلى إيقاظ النائم، بنفس الطريقة التي تعمل بها المنبهات الحسية أثناء النوم. أما إذا أخذ النائم يحلم بدلاً من أن يستيقظ، فإن هذه الأفكار تتصرف كما لو كانت جزءاً من المحتوى الكامن للحلم. والأمثلة على ذلك لا تحصى. فهي تشمل كل الذكريات والاهتمامات المتنوعة المتاحة للأنا عادة، بغض النظر عن المشاعر المرتبطة بها، سواء أكانت مشاعر أمل أو خوف، فخر أو خزي، اهتمام أو نفور. كما قد تكون أفكاراً عن حفلة في ليلة سابقة، أو قلق حول مهام مُعلَّقة، أو توقع لحادث سعيد في المستقبل، أو

أي شيء آخر يمكن تصوره ويدخل في الاهتمامات الحالية للنائم.

الفئة الثالثة تتكون من نزعة أو عدة نزعات للهو استبعدت، على الأقل في شكلها الطفولي الأصلي، من الشعور بواسطة دفاعات الأنا، أومن الإشباع المباشر في حال اليقظة. هذا هو الجزء من الهو الذي يسميه فرويد بالمكبوت في مقاله حول الفرضيات البنائية للجهاز النفسي (Freud,1923)، رغم أنه فضل فيما بعد الرأي، المقبول الآن عموماً من المحللين النفسانيين، وهو أن الكبت ليس الدفاع الوحيد الذي يستخدمه الأنا ضد نزعات الهو غير المقبولة من الأنا. مع ذلك، فالمصطلح الأصلي، "الكبت،" استمر استخدامه ليعبر عن هذا الجزء من الهو. بهذا نستطيع القول، إذن، أن الفئة الثالثة من المحتوى الكامن للحلم في أي حلم بعينه هي نزعة أو نزعات من الجزء المكبوت للهو. وبما أن دفاعات الأنا الأكثر أهمية والأبعد أثراً ضد الهو هي تلك التي أُسِست أثناء الطور الأوديبي أو ما قبل الأوديبي من حياة الطفل، فإنه يلزم منطقياً أن نزعات الهو في تلك السنوات المبكرة تشكل المحتوى الأساسي للمكبوتات. وهكذا، فإن ذلك الجزء من المحتوى الكامن للحلم الذي ينبثق من المكبوت هو في العموم طفولي، أي أنه يتكون من رغبة ملائمة لمرحلة الطفولة المبكرة ونابعة منها.

وكما نلاحظ، فإن هذا يتناقض مع الفئتين الأوليين من محتوى الحلم الكامن، واللذين يكونان على التوالي الأحاسيس الحاضرة والمشاغل الحالية. ومن الطبيعي أنه قد يتزامن في مرحلة الطفولة الحاضر مع الطفولي. ومع ذلك، عندما يتعلق الأمر بأحلام الرشد والطفولة المتأخرة، يكون للمحتوى الكامن مصدران، واحد في الحاضر والآخر في الماضي.

من الطبيعي أن نرغب في معرفة الأهمية النسبية للأجزاء الثلاثة للمحتوى الكامن،

وما إذا كانت كلها توجد في المحتوى الكامن لكل حلم. لقد أوضح فرويد (Freud,1933) فيما يتعلق بالسؤال الأول، وبشكل لا لبس فيه، أن الجزء الهام من المحتوى الكامن هو ذاك القادم من المكبوت. وفي رأيه فإن هذا الجزء هو الذي يساهم بالنصيب الأوفر في الطاقة النفسية اللازمة للحلم وبدون مساهمته لا يمكن للحلم أن يحدث. وكما عبر عن ذلك فرويد، فإن المنبه الحسي الليلي، مهما كانت حدته، ينبغي أن يستعين بواحد أو أكثر من الرغبات المكبوتة قبل أن يكون قادراً على إحداث الحلم. ونفس الشيء ينطبق على مشاغل حياة اليقظة، مهما كانت مسيطرة على انتباه النائم واهتمامه.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني، فإنه مشتق من إجابتنا عن السؤال الأول من أن رغبة واحدة، أو حافزاً واحداً أو أكثر، من المكبوت هو جزء ضروري من المحتوى الكامن لكل حلم. كما يبدو أيضاً أن بعض مشاغل حياة اليقظة الحاضرة تكون جزءاً من كل محتوى حلم كامن. من الناحية الأخرى، لا تظهر الإحساسات الليلية في المحتوى الكامن لكل حلم، رغم أنها تلعب دوراً واضحاً في بعض الأحلام.

نذهب الآن إلى دراسة العلاقة بين المحتوى الكامن للحلم والحلم الظاهر، أو بمعنى أدق، عناصر أو محتوى الحلم الظاهر. اعتماداً على الحلم فإن هذه العلاقة قد تكون بسيطة جداً أو معقدة جداً، غير أن هناك عنصراً واحداً ثابتاً وهو أن المحتوى الظاهر شعوري، بينما المحتوى الكامن لاشعوري. لذلك، فأبسط علاقة ممكنة بين الاثنين هي أن المحتوى الكامن يصبح شعورياً.

قد يحدث هذا أحياناً في حالة المنبهات الحسية أثناء النوم. على سبيل المثال، قد نخبر

شخصاً ما، بعد أن يستيقظ صباحاً، أن سيارة إطفاء مرت بجوار المنزل ليلاً بينما كان نائماً، وقد يتذكر عندها أنه سمع صوت بوق الإطفاء أثناء نومه. مع ذلك، قد ننظر بحذر إلى مثل هذه الخبرة باعتبارها خبرة حدية أو انتقالية، بين الإدراك المعتاد أثناء اليقظة وبين الحلم النمطي ،أكثر من تصنيفها كحلم حقيقي. وقد نشك حتى في أن النائم قد استيقظ للحظة عند سماعه صوت صفارة الإطفاء، رغم أنه ليس أكثر من مجرد افتراض من جانبنا.

مهما يكن، ينبغي من أجل هدفنا الحالي أن نبذل جهدنا بدراسة الظواهر التي لاشك في أنها أحلام. من هذه الظواهر أحلام الطفولة المبكرة، التي غالباً ما تقدم لنا أمثلة عن أكثر العلاقات بساطة بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن. فأولاً، لا نحتاج في مثل هذه الأحلام أن نميز بين المشاغل الطفولية والحالية، فكلاهما نفس الشيء. وثانياً، لا يوجد حتى الآن أي تمييز واضح بين المكبوت وباقي الهو، بما أن أنا الطفل الصغير لم تتطور بعد إلى نقطة بناء دفاعات دائمة ضد أي من نزعات الهو.

لنأخذ كمثال حلم طفل عمره سنتان عادت أمه للتو من المستشفى صحبة مولود جديد. في صباح اليوم التالي من عودة أمه روى الطفل حلماً بالمحتوى الظاهر التالي: ''رأيت المولود يهرب'' ما هو المحتوى الكامن لهذا الحلم؟ عادة هذا الشيء يمكننا تحديده فقط من خلال مستدعيات الشخص الحالم، يعني باستخدام أسلوب التحليل النفسي. وطبيعي أن الطفل ذي السنتين لا يمكنه أن يفهم أو يتعاون بشكل واع في مثل هذا المشروع. مع ذلك، يمكن أن نأخذ في هذه الحالة سلوك واتجاهات الطفل المعروفة، العدائية والرافضة، نحو المولود الجديد كمرادف للروابط مع المحتوى الظاهر للحلم. إذا فعلنا ذلك، يمكننا أن نستنتج أن

المحتوى الكامن للحلم كان نزوة عدائية تجاه المولود الجديد ،ورغبة في تدميره أو التخلص منه. والآن ما هي العلاقة بين المحتوى الكامن والظاهر للحلم في مثالنا؟ تبدو الإجابة في أن المحتوى الظاهر يختلف عن المحتوى الكامن في المظاهر التالية: أولاً، وكما سبق القول، فإن المحتوى الظاهر شعوري، والكامن لاشعوري. ثانياً، المحتوى الظاهر صورة بصرية، بينما المحتوى الكامن شيء يشبه الرغبة أو النزعة. أخيراً، المحتوى الظاهر خيال يمثل النزعة أو الرغبة الكامنة حال إشباعها، يعني، خيال يتكون أساساً من إشباع النزعة أو الرغبة الكامنة. نستطيع القول إذن أنه في الحالة التي اخترناها كمثال، فإن العلاقة بين المحتوى الظاهر للحلم والمحتوى الكامن هي أن المحتوى الظاهر تخيل واع للرغبة الكامنة وقد أشبعت أو هي في حال إشباع، عُبِّر عن ذلك في هيئة خبرة أو صورة بصرية. والنتيجة أن اخراج الحلم في هذا المثال تكون من تشكيل أو انتقاء خيال مشبع للرغبة ورموزه في هيئة مرئية.

وحسب معرفتنا، فإن هذه هي العلاقة السائدة بين محتوى الحلم الظاهر والكامن في كل أحلام الطفولة المبكرة. علاوة على ذلك، فهذا هو النمط الأساسي لهذه العلاقة المتبع أيضاً في أحلام الرشد والطفولة المتأخرة، رغم أنه في هذه الأحلام الأكثر تعقيداً يكون النمط مفصلاً ومعقداً بعوامل سوف نناقشها بعد قليل.

مع ذلك، نلاحظ، أولاً، أن عملية الحلم في الأساس عملية إشباع لنزعات الهو بطريقة خيالية. نستطيع أن نفهم الآن بشكل أفضل كيف أن الحلم يجعل من الممكن للنائم مواصلة النوم بدلاً من إيقاظه بواسطة نشاط عقلي لاشعوري مزعج. ذلك لأن النزعة أو الرغبة المزعجة من الهو، والتي تشكل في العادة جزءاً من المحتوى الكامن للحلم، قد أُشبِعت

في الخيال، وبهذه الطريقة فقدت على الأقل بعض إلحاحها ومن ثم بعض قوتها في إيقاظ النائم.

وعلى النقيض، نعلم أن كون ظاهر الحلم هو عادة إشباع لرغبة يعود إلى طبيعة المحتوى الكامن، الذي هو في النهاية السبب المؤدي للحلم، ومصدره الأساسي أيضاً من الطاقة النفسية. فعنصر الهو الذي يلعب هذا الدور في المحتوى الكامن ليس أمامه سوى الضغط المتواصل من أجل الإشباع، حيث هذه هي الطبيعة الخالصة للدوافع الغريزية التي هو جزء منها. وما يحدث أثناء الحلم هو حصول إشباع جزئي عن طريق الخيال، حيث يكون الإشباع الكامل بواسطة السلوك المناسب مستحيلاً بسبب حالة النوم. وبما أن الحركة مجمدة، يستخدم الخيال بديلاً. وإذا عبرنا عن نفس الفكرة بمصطلحات الطاقة النفسية، نقول أن الشحنة الانفعالية لعنصر الهو في المحتوى الكامن تحث الجهاز النفسي على تنفيذ خطة إخراج الحلم ،والحصول على تصريف جزئي عن طريق الصورة الخيالية المشبعة للرغبة التي تشكل ظاهر الحلم.

عند هذه النقطة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا الحقيقة الواضحة وهي أن المحتوى الظاهر لمعظم أحلام الطفولة المتأخرة والرشد لا يمكن مطلقاً التعرف عليه من النظرة الأولى، أو حتى الثانية، باعتباره تحقيقاً لرغبة. فبعض الأحلام، فعلاً، ينطوي محتواها الظاهر على صور حزينة وحتى مخيفة، وهذه الحقيقة يُستدَل بها باستمرار خلال السنوات الماضية كحجة تدحض زعم فرويد من أن كل حلم ظاهر هو تحقيق متخيل لرغبة. كيف يمكن أن نفهم هذا التناقض الظاهر بين نظريتنا والحقائق الواضحة؟.

إجابة هذا السؤال بسيطة للغاية! فكما سبق أن قلنا، في حالة أحلام الطفولة المبكرة يؤدي المحتوى الكامن للحلم، عن طريق إخراج الحلم، إلى المحتوى الظاهر الذي هو تخيل لإشباع رغبة تمثل المحتوى الكامن. هذا الخيال يختبره الحالم في هيئة انطباعات حسية. ونفس العلاقة الواضحة بين المحتوى الكامن للحلم والمحتوى الظاهر توجد أحياناً في أحلام الراشدين، حيث تشبه هذه الأحلام إلى حد بعيد الأحلام البسيطة للطفولة المبكرة. غير أن الغالب أن محتوى الحلم الظاهر في الحياة بعد ذلك نسخة مُقنَّعة ومحرفة من خيال مشبع للرغبة، يتم اختباره ومعايشته في الغالب كصورة أو مجموعة صور مرئية. هذا التحريف والإخفاء غالباً ما يكون شاملاً على نطاق واسع لدرجة أن مظهر إشباع الرغبة في الحلم الظاهر يصبح غير واضح تماماً. وكما نعلم جميعاً، فالحلم الظاهر في الواقع يكون أحياناً مجرد خليط من أجزاء متنافرة ليس لها أي معنى على الإطلاق، فما بالك في أن تمثل إشباعاً لرغبة. في أوقات أخرى يكون التحريف والإخفاء موجوداً بدرجة عالية جداً، لدرجة أن الحلم الظاهر يتم اختباره ومعايشته فعلاً كباعث على الخوف وغير مرغوب، بدل احتفاظه بالصفة السارة التي نتوقعها من الإشباع الخيالي للرغبة.

إن إخراج الحلم هو المسؤول عن إحداث الإخفاء والتحريف اللذين هما مظاهر واضحة للحلم الظاهر في حياة الرشد والطفولة المتأخرة، ونحن مهتمون بمعرفة ما هي العمليات الداخلة في إخراج الحلم وما هي مساهمة كل منها في إخفاء المحتوى الكامن حتى يصبح من غير الممكن التعرف عليه في الحلم الظاهر.

لقد استطاع فرويد أن يظهر وجود عاملين رئيسيين، كل منهما مكمل للآخر، يجب

أخذهما في الاعتبار فيما يتعلق بإخراج الحلم. العامل الرئيسي الأول، والجوهري في إخراج الحلم، هو ترجمة تلك الأجزاء من المحتوى الكامن، والتي لم يعبر عنها مسبقاً بهذه اللغة، إلى لغة العملية الأولية متبوعاً بتكثيف كل عناصر المحتوى الكامن إلى خيال مشبع للرغبة. العامل الرئيسي الثاني، ويتكون من العمليات الدفاعية للأنا، التي تمارس تأثيراً عميقاً على عملية الترجمة وتشكيل الخيال، يشبهه فرويد بمراقب نشرة الأخبار الذي له سلطات واسعة في منع الفقرات غير المرغوب فيها. الثالث، العامل المكمل وهو ما يسميه فرويد بالتنقيح الثانوي secondary revision.

دعونا ندرس كل واحد من هذه العوامل. في المقام الأول، وكما سبق أن قلنا، يتكون إخراج الحلم من ترجمة ذلك الجزء من المحتوى الكامن للحلم، الذي تم التعبير عنه أصلاً وفقاً للعملية الثانوية، إلى عملية التفكير الأولي. وهذا يتضمن عادة المشاغل والاهتمامات الحياتية الحالية. فضلاً عن ذلك، تتم هذه الترجمة، وكما أشار فرويد، بطريقة خاصة، إذ وفقاً لفرويد، ينصب الاهتمام على إمكانية تجسيد نتيجة الترجمة في هيئة صورة بصرية مرنة. وهذا الاهتمام بالقدرة التصويرية المرنة، يتوافق طبعاً مع كون المحتوى الظاهري للحلم يتكون أساساً من مثل هذه الصور. إن اهتماماً مشابهاً بالقدرة التصويرية المرنة يمارس بطريقة واعية في بعض الأنشطة السوية أثناء اليقظة كما في الرسوم الكاريكاتورية، والتمثيل التحزيري charade[1].

الاعتبار الآخر الذي لاشك يؤثر على عملية الترجمة في إخراج الحلم هو طبيعة

---

[1] عبارة عن لعبة من مشهد تمثيلي يصور مقاطع كلمات معينة ويطلب من المشاهد تخمين معناها. (المترجم).

عناصر الحلم الكامن الموجودة أصلًا في لغة العملية الأولية، أي الذكريات، والصور، والخيالات المرتبطة برغبة أو نزوة المكبوت. بمعنى آخر، يميل إخراج الحلم إلى ترجمة المشاغل الحالية لحياة اليقظة إلى التعابير والصور التي تشترك بعلاقة وثيقة قدر الإمكان مع المواد المرتبطة بالرغبة أو النزعة من المكبوت. في نفس الوقت، يختار إخراج الحلم، من بين العديد من خيالات الإشباع المرتبطة بالنزعة المكبوتة، تلك التي يمكن ربطها بسهولة مع المشاغل الحالية لحياة اليقظة. كل هذا بالضرورة طريقة خرقاء للقول بأن إخراج الحلم يحدث قدر الإمكان تقريباً بين العناصر المتعددة للحلم الكامن أثناء ترجمة تلك الأجزاء ،التي تحتاج ترجمة من المحتوى الكامن إلى لغة العملية الأولية، بينما في نفس الوقت يحدث أو ينتقي صورة خيالية تمثل إشباع النزوة المكبوتة التي هي أيضاً جزء من المحتوى الكامن. وكما قلنا في الفقرة السابقة، كل هذا يتم مع الأخذ في الاعتبار القابلية للتصوير المرئي visual representability. علاوة على ذلك، تجعل عملية التقريب، التي وصفناها الآن، من الممكن لصورة مفردة أن تمثل عدة عناصر كامنة من الحلم في آن واحد. هذا يؤدي إلى درجة عالية مما يسميه فرويد بـ"التكثيف،" الذي يعني أن الحلم الظاهر يكون، في معظم الحالات، نسخة مكثفة جداً من الأفكار، والمشاعر، والرغبات التي تؤلف محتوى الحلم الكامن.

قبل أن نواصل مناقشة الجزء الذي تلعبه دفاعات الأنا في إخراج الحلم، نتوقف لنسأل ما إذا كان ذلك الجزء من إخراج الحلم الذي سبق وأن ناقشناه مسئولاً عن أي جزء من التحريف والإخفاء اللذين كما قلنا يميزان معظم الأحلام الظاهرة، وإذا كان الأمر

كذلك، فيا له من دور عظيم يلعبه في هذا الأمر.

من المعلوم أن التعبير عن مشاغل حياة اليقظة بلغة العملية الأولية يؤدي إلى درجة كبيرة من التحريف لمعناها ومحتواها. قد يسأل القارئ لماذا يؤدي تأثير هذه العملية النفسية إلى جعل نتيجتها النهائية غير مفهومة للحالم. مع أن الشخص الذي يؤلف الحزورة أو الرسوم الكاريكاتورية يستطيع فهم معنى رموزها، رغم كون المعنى تم التعبير عنه بلغة العملية الأولية. الحقيقة، أن أناساً عديدين غير المؤلف نفسه يفهمون معنى هذه الأشياء. علاوة على ذلك، فالأفكار التي يتم التعبير عنها بلغة العملية الأولية تكون مفهومة لنا في مواقف أخرى كما في النكتة مثلاً، مثلما لاحظنا في الفصل السادس. لماذا ينبغي أن يكون الحلم الظاهر إذن غير مفهوم، لمجرد كونه يتضمن أفكاراً تم التعبير عنها بواسطة العملية الأولية؟

يتجلى جزء من إجابة هذا السؤال في الآتي: كل من النكتة ،والرسوم المتحركة، وحتى الحزورة معد وفقاً لمطلب خاص، أعني أن تكون مفهومة. فلكي تكون جيدة، ينبغي أن تنقل معنى للمستمعين الحقيقيين أو المحتملين. على الجانب الآخر، ليس الحلم الظاهر رهناً لمثل هذا القيد. إنه مجرد الناتج النهائي لعملية تهدف إلى الإشباع الخيالي للرغبة، أو بتعبير آخر، تصريف ما يكفي من الطاقة النفسية المرتبطة بالمحتوى الكامن للحلم لمنع هذا المحتوى من إيقاظ النائم. لذلك، ليس مستغرباً أن الحلم الظاهر عموماً ليس مفهوما بشكل فوري حتى للنائم نفسه.

مع ذلك، يلعب العامل الأساسي الثاني، الذي ذكرناه كمساهم في إخراج الحلم، الدور الأكثر أهمية في إخفاء المحتوى الكامن للحلم وجعل المحتوى الظاهر غير مفهوم. وهذا

العامل الثاني، كما يذكر القارئ، هو عمل دفاعات الأنا. ويمكن أن نلاحظ بالمناسبة أن أول وصف قدمه فرويد لهذا العامل سبق بوقت طويل صياغته للفرضيات البنائية المتعلقة بالجهاز النفسي ،والتي تكون مصطلحات ''الأنا ''و ''الدفاعات'' أحد أجزائها. لهذا السبب كان على فرويد أن يخترع لهذا العامل اسماً، والاسم الذي اختاره كان ،كما قلنا، ''رقيب الحلم''، وهو مصطلح مناسب ومثير إلى حد بعيد.

حتى نفهم بوضوح كيف تعمل دفاعات الأنا في عملية تشكيل الحلم الظاهر، يجب أولاً أن ندرك أنها تؤثر بدرجات متفاوتة على الأجزاء المختلفة لمحتوى الحلم الكامن. في العادة لا يكون جزء المحتوى الكامن، المكون من الإحساسات الليلية، عرضة لعمليات دفاعية من الأنا، إلا إذا اعتبرنا أن محاولات الأنا لإنكار مثل هذه الأحاسيس ناجم عن رغبته في النوم. غير أننا لسنا متأكدين حقاً فيما إذا كان هذا الاتجاه من النائم نحو الإحساسات الليلية هو دفاع للأنا بالمعنى المعتاد للمصطلح، وقد يكون من الأسلم أن نسقطه من الاعتبار في مناقشتنا الحالية.

وفي تناقض واضح مع الإحساسات الليلية، يُواجَه جزء المحتوى الكامن من الحلم ،الذي يتكون من نزعات أو رغبات من المكبوت، بمقاومة مباشرة من دفاعات الأنا. ونحن نعرف أن هذه المقاومة مستمرة ودائمة ،ووجودها هو سبب حديثنا عن ''المكبوت'' لذا ليس لدينا أي صعوبة في فهم ميل دفاعات الأنا لمقاومة ظهور هذا الجزء من المحتوى الكامن للحلم في الحلم الظاهر، طالما أنها تعارض دائماً ظهوره في الوعي في حياة اليقظة أيضاً. إن مقاومة دفاعات الأنا لهذا الجزء من المحتوى الكامن للحلم هي المسؤولة في المقام الأول عن

حقيقة أن الحلم الظاهر لا يُفهم في الغالب ولا يُدرك تماماً كصورة خيالية مشبعة لرغبة.

يحتل الجزء الباقي من المحتوى الكامن للحلم، أي المشاغل الحالية في حال اليقظة، مركزاً متوسطاً فيما يتعلق بدفاعات الأنا بين الجزأين اللذين ناقشناهما للتو. إن الكثير من مشاغل حياة اليقظة لا اعتراض عليها من قبل الأنا ما عدا، ربما، كمسببات محتملة لاضطراب النوم. بل إن بعضها يعتبر من قبل الأنا ممتعاً ومرغوباً. ومع ذلك، توجد مشاغل حالية أخرى ليست مصدر سرور للأنا لكونها مصادر للقلق أو الذنب. لذلك، تحاول المكيانيزمات الدفاعية للأنا أثناء النوم أن تحول بين الشعور وهذه المصادر المنفرة. يذكر القارئ من مناقشتنا في الفصل الرابع أن الكدر، أو احتمال الكدر، هو من يستدعي دفاعات الأنا عموماً. وفي حالة مثل هذه العناصر من الحلم الكامن كالتي نناقشها الآن، نعتقد أن قوة مقاومة الأنا اللاشعورية لهذه المصادر الباعثة على الكدر تتناسب وحدة القلق أو الذنب، أي مع حدة الكدر، المرتبط بها.

نرى إذن أن دفاعات الأنا تعارض بقوة ولوج جزء المحتوى الكامن للحلم المشتق من المكبوت إلى الوعي. كما تعارض بدرجات متفاوتة الشدة، وفقاً لما يقتضيه الحال، مختلف مشاغل حياة اليقظة التي هي أيضاً جزء من المحتوى الكامن. ومع ذلك، فالأفكار والأحاسيس اللاشعورية التي نسميها المحتوى الكامن للحلم تنجح فعلاً في شق طريقها إلى الوعي، حيث تبرز كحلم ظاهر، ولا يستطيع الأنا منع ذلك. غير أنه يستطيع التأثير على إخراج الحلم بتحريف ظاهره بشكل يحول دون التعرف عليه، وبالتالي يصبح غير مفهوم. وهكذا فالإبهام المرتبط بمعظم الأحلام الظاهرة لا يعود إلى كونها مُعبَّراً عنها بلغة العملية

الأولية ،دون اعتبار لوضوحها وجلائها، بل إن السبب الأساسي في إبهامها يعود إلى دفاعات الأنا التي جعلتها هكذا.

أطلق فرويد (1933) على الحلم الظاهر مصطلح (التكوين التوفيقي) "compromise formation"، ويقصد به أن عناصره المختلفة يمكن اعتبارها حلاً وسطاً بين القوى المتعارضة للمحتوى الكامن للحلم، من جهة، ودفاعات الأنا من جهة أخرى. وكما سوف نرى في الفصل الثامن، فإن العرض العصابي هو أيضاً تكوين توفيقي بين عنصري المكبوت ودفاعات الأنا.

قد يكون من المفيد عند هذه النقطة أن نقدم المثال البسيط التالي. دعونا نفترض أن الحالم امرأة وأن جزء المحتوى الكامن من الحلم النابع من المكبوت هو رغبة، نشأت أثناء الطور الأوديبي للحالم، في علاقة جنسية مع الأب[1]. هذا قد يتم ترميزه في الحلم الظاهر، وفقاً لخيال مناسب من تلك المرحلة العمرية، في صورة للمرأة وأبيها يتعاركان معاً مع شعور بالانفعال الجنسي. غير أنه، إذا كانت دفاعات الأنا تعارض مثل هذا التعبير الصريح عن هذه الرغبة الأوديبية، فإن هذا الانفعال الجنسي قد يمنع من الوصول إلى الشعور. والنتيجة أن عنصر الحلم الظاهر يصبح مجرد صورة لشجار مع الأب، دون أي انفعال جنسي مصاحب. وإذا كان هذا ما يزال قريباً جداً للخيال الأصلي بشكل لا يمكن للأنا تحمله دون شعور بالقلق أو الذنب، فإن صورة الأب قد لا تظهر؛ وبدلاً عنها قد تظهر صورة للمرأة الحالم تتشاجر مع شخص آخر، كابنها مثلاً. وإذا استمرت صورة المشاجرة قريبة جداً من

[1] مرة أخرى نثق في عقل القارئ وقدرته على ملاحظة أن هذه مجرد امثلة افتراضية وضعت لتلائم النظرية (المترجم)

الخيال الأصلي، فقد تستبدل بنشاط بدني آخر، كالرقص مثلاً، بحيث يصبح عنصر الحلم الظاهر للمرأة ترقص مع ابنها. وحتى هذا قد يكون غير مقبول من الأنا، وعندها قد تظهر في الحلم، بدلاً من عنصر الحلم الظاهر السابق، صورة امرأة غريبة مع شاب هو ابنها، في غرفة ذات أرضية لامعة.

ينبغي حقيقة أن ننهي هذه القائمة من الأمثلة بكلمة وهلم جراً !، لأن الاحتمالات الممكنة لإخفاء الطبيعة الحقيقية لأي عنصر من المحتوى الكامن للحلم لا يمكن حصرها. والواقع، أن التوازن بين قوة الدفاعات وبين عنصر الحلم الكامن هي التي تحدد مدى قرب أو بعد الحلم الظاهر عن الكامن، بمعنى كم من التخفي يتم فرضه على عنصر المحتوى الكامن أثناء إخراج الحلم. وبالمناسبة، على القارئ أن يدرك بأن أياً من صور الحلم الظاهر، التي تم وصفها في المثال بالفقرة السابقة، يشكل احتمالاً منفصلاً قد يظهر في حلم بعينه في الظروف المناسبة. ليس المقصود من المثال أن نوحي بأنه، في حلم معين، نعطى محاولة أولى للمحتوى الكامن " أ "، ثم إذا لم يتحمل الأنا " أ "، نستبدله بالمحاولة "ب"، وإذا لم يكن "ب"، فليكن إذن "ج"، وهكذا. ليس الأمر هكذا، بل اعتماداً على توازن القوى بين الدفاعات والمحتوى الكامن للحلم، فإن أياً من " أ " أو " ب " أو "ج " سوف يظهر في الحلم الظاهر.

وكما هو متوقع، لا يستوعب مثالنا، أو حتى يقترح، "تكوينات الحل الوسط" المتعددة والممكنة بين الدفاع والمحتوى الكامن. فإنشاء قائمة كاملة لمثل هذه الاحتمالات سوف يكون خارج نطاق الفصل الحالي تماماً، لكن هناك بعض الاحتمالات الهامة أو

النمطية التي ينبغي ذكرها. فأولاً، الأشياء التي تنتمي معاً في الحلم الكامن قد تظهر مجزأة في المحتوى الظاهر. وهكذا، فالمرأة التي سبق ذكرها في المثال السابق قد ترى نفسها تتشاجر مع شخص ما في أحد أجزاء الحلم الظاهر، بينما يظهر والدها في جزء آخر مختلف تماماً. إن مثل هذه الفوضى في العلاقات نتيجة مألوفة في إخراج الحلم.

الظاهرة الأخرى المعتادة في ''الحل الوسط'' هي أن جزءاً من الحلم الظاهر، وأحياناً كل الحلم الظاهر، يكون غامضاً جداً. وهذا يشير ،كما بين فرويد، إلى أن معارضة الدفاعات للعنصر أو للعناصر المناظرة من المحتوى الكامن قوية جداً. صحيح أن الدفاعات ليست قوية بما فيه الكفاية حتى تمنع الجزء المقصود من الحلم الظاهر من الظهور في الوعي تماماً، إلا أنها قوية بشكل كاف حتى تبقيه في حالة من نصف الشعور أو الشعور الغامض.

الانفعالات والعواطف التي تعود إلى المحتوى الكامن هي أيضاً عرضة لتغيرات مختلفة من جانب إخراج الحلم. سبق أن أوضحنا احتمال أن مثل هذا الانفعال، وهو في مثالنا انفعال جنسي، قد لا يظهر مطلقاً في الحلم الظاهر. الاحتمال الآخر، هو أن الانفعال قد يظهر محرفاً نوعاً ما أو في صورة أقل حدة. وهكذا، فما كان في المحتوى الكامن غضباً، على سبيل المثال، قد يظهر في المحتوى الظاهر بغضاً أو انزعاجاً خفيفاً، أو حتى قد يظهر في حالة غياب للشعور بالضيق. والأمر المتصل بدرجة وثيقة بآخر هذه البدائل هو احتمال أن الانفعال المتعلق بالمحتوى الكامن للحلم قد يُصوَر بنقيضه في الحلم الظاهر. ولذلك قد يظهر الشغف الكامن اشمئزازاً ظاهراً، أو العكس، أو قد يظهر الكره حباً، أو الحزن سعادة، وهكذا. مثل هذه التغيرات تمثل ''تسوية'' بالمعنى الفرويدي للكلمة، بين الأنا والمحتوى

الكامن، وتدخل عنصراً هائلاً من الإخفاء إلى الحلم الظاهر.

لن تكون مناقشة الانفعالات في الحلم كاملة ما لم تتضمن انفعال القلق. وكما ذكرنا سابقاً في هذا الفصل، فقد حاول بعض نقاد فرويد دحض فرضيته القائلة بأن كل حلم ظاهر هو إشباع لرغبة على أساس وجود مجموعة كاملة من الأحلام يكون فيها القلق مظهراً جلياً في الحلم الظاهر. في كتابات التحليل النفسي تسمى هذه الأحلام عادة بأحلام الحصر. وفي المؤلفات غير التحليلية تسمى الحالات الحادة منها بالكوابيس، وأكثر دراسات التحليل النفسي استفاضة عن الكوابيس هي تلك التي قام بها جونز (Jones,1931). عموماً، يمكن القول عن أحلام الحصر بأنها إشارة على فشل العمليات الدفاعية للأنا. والذي حدث هو أن عنصراً من المحتوى الكامن للحلم نجح، رغم الجهود الدفاعية للأنا، في الوصول إلى الشعور، أي إلى المحتوى الظاهر للحلم، بشكل مباشر وواضح للغاية لا يطيقه الأنا، فتكون نتيجة ردة فعل الأنا القلق. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نفهم، كما أشار جونز، أن الخيالات الأوديبية تظهر بدرجة أقل تخفياً في المحتوى الظاهر للكابوس المعتاد، كما أن الإشباع الجنسي والفزع ليس من النادر وجودهما معاً في الشعور، أو في الجزء الظاهر في مثل هذه الأحلام.

هناك فئة أخرى من الأحلام قريبة جداً من أحلام الحصر وهي التي يشار إليها غالباً بأحلام العقاب. في هذه الأحلام، كما في الكثير غيرها، يتوقع الأنا الذنب، أي إدانة الأنا الأعلى، إذا ما حاز جزء المحتوى الكامن النابع من المكبوت تعبيراً مباشراً أكثر مما يجب في الحلم الظاهر. والنتيجة أن دفاعات الأنا تعارض ظهور هذا الجزء من المحتوى الكامن، الأمر الذي لا يختلف عما يحدث في معظم الأحلام الأخرى. ومع ذلك، فالنتيجة فيما يسمى

بأحلام العقوبة هي أن الحلم الظاهر، بدلاً من تعبيره عن تخيل مُقنَّع لإشباع الرغبة المكبوتة، يعبر عن خيال مقنع من العقوبة عن الرغبة المقصودة، وهذا بالتأكيد تسوية استثنائية بين الأنا والهو والأنا الأعلى.

عند هذه النقطة نضع سؤالاً قد يكون سبق وأن خطر على ذهن القارئ. قلنا بأنه في الأحلام تطفو إلى الشعور رغبة أو نزوة لاشعورية من المكبوت، رغم أنها مُقَنَّعَة بشكل ما، في صورة خيالية مشبعة للرغبة تتمثل في الحلم الظاهر. الآن، وحسب التعريف، فإن هذا بالضبط ما لا تستطيعه النزعة المنسوبة للمكبوت. بمعنى آخر، لقد عرّفنا ''المكبوت '' على أنه يتكون من نزوات الهو، وما يرتبط بها مباشرة من خيالات وذكريات الخ، التي تمنعها دفاعات الأنا وباستمرار من الوصول مباشرة إلى الشعور. كيف إذن يمكن للمكبوت أن يظهر في الشعور أثناء الحلم ؟

تكمن إجابة هذا السؤال في سيكولوجية النوم (Freud,1916b). أثناء النوم، وربما لأن الطريق إلى الحركة مسدود فعلياً، تضعف قوة دفاعات الأنا بشكل ملحوظ، وكأن الأنا يقول ''ليس على أن انزعج من هذه النزعات الممنوعة. إنها لا تستطيع فعل أي شيء طالما أنا نائم وموجود في السرير.'' من الناحية الأخرى، افترض فرويد أن شحنات الدافع الانفعالية الموضوعة تحت تصرف المكبوت، أي القوة التي يضغط بها كي تصبح شعورية، لا تضعف بشكل كبير أثناء النوم. وهكذا يفضي النوم إلى إضعاف نسبي للدفاعات في مواجهة المكبوت، والنتيجة أن المكبوت تكون له فرصة أفضل كي يصبح شعورياً أثناء النوم منه أثناء اليقظة.

ينبغي أن ندرك بأن هذا الفرق بين النوم و اليقظة هو فرق في الدرجة وليس في النوع. صحيح أنه أثناء النوم يكون لعنصر المكبوت فرصة أفضل كي يصبح شعورياً أكثر منه أثناء حياة اليقظة، غير أنه وكما رأينا، تفرض دفاعات الأنا في كثير من الأحلام درجة عالية من التحريف والتخفي أثناء إخراج الحلم لدرجة أن حرية وصول المكبوت إلى الوعي نادراً ما يحدث في هذه الحالات بشكل مباشر. وبالعكس، قد تنال عناصر من المكبوت، تحت ظروف معينة، فرصاً مباشرة في الوصول إلى الوعي أثناء اليقظة. في الفصل السادس، على سبيل المثال، تصور حالة المريض الذي صدم بسيارته "دون قصد"رجلاً مسناً عند تقاطع أحد الطرق كيف أن النزوة الأوديبية من المكبوت قد تتحكم في السلوك لحظة قصيرة ،وهكذا تحقق تعبيراً مباشراً نوعاً ما حتى أثناء حياة اليقظة. وبما أن الظواهر الأخرى التي تصور نفس النقطة ليست بأي حال نادرة، فإننا لا نستطيع في هذا النقطة المغايرة بين النوم وحياة اليقظة. ومع ذلك، فالحقيقة أن المكبوت عموماً سوف يظهر في الحلم الظاهر بشكل مباشر أكثر منه في التفكير أو السلوك الشعوري لحياة اليقظة.

ما تزال هناك ،كما قلنا، عملية أخرى أقل أهمية من الاثنتين اللذين ناقشناهما حتى الآن، تساهم في الشكل النهائي للحلم الظاهر، وقد تضيف إلى ما يفتقر إليه من وضوح. ويمكن اعتبار هذه العملية الطور الأخير في اخراج الحلم، رغم أن فرويد (1933) يفضل الفصل بين الاثنين. يسمي فرويد هذه العملية الأخيرة التنقيح الثانوي، ويقصد بذلك محاولة الأنا إفراغ المحتوى الظاهر للحلم في قالب من المنطق والتماسك المظهري. فالأنا يحاول، إذا جاز التعبير، أن يجعل الحلم الظاهر "معقولًا"بنفس الطريقة التي يحاول بها أن "يجعل

معقولاً'' أي انطباعات تقع في نطاقه.

نريد أن نقول الآن بضع كلمات حول خاصية أشرنا إليها مرات عديدة فيما سبق وتشكل، على المستوى الوصفي المحض، أكثر مظاهر الحلم الظاهر نمطية. هذه الحقيقة هي أن الحلم الظاهر يتكون تقريباً وبشكل رئيسي من انطباعات بصرية. وليس من غير المعتاد أن يتكون وبشكل حصري من مثل هذه الانطباعات، علماً بأن الإحساسات الأخرى قد تدرك أيضاً كجزء من الحلم الظاهر[1]. تأتي الخبرات السمعية في المرتبة الثانية بعد الخبرات الحسية البصرية من حيث تكرارها في الحلم الظاهر، وقد تظهر أحياناً أي من الإحساسات الأخرى في الحلم الظاهر. كما أنه ليس مستغرباً على الإطلاق ظهور أفكار، أو شذرات من أفكار، كجزء من الحلم الظاهر كما يحدث، على سبيل المثال، حينما يقول الحالم ''إنني رأيت رجلاً ملتحياً وعرفت أنه ذاهب لزيارة احد أصدقائي.'' غير أنه حينما تظهر مثل هذه الأفكار في الحلم الظاهر، فإنها تقريباً تشغل على الدوام مركزاً ثانوياً بعد الانطباعات الحسية. وكما نعلم جميعاً من واقع خبرتنا الخاصة، فإن الانطباعات الحسية للحلم الظاهر تمتلك زمام السيطرة أثناء النوم. إنها تشبه في واقعيتها الانطباعات الحسية أثناء يقظتنا. بهذا المعنى تقارن عناصر الحلم الظاهر بالهلاوس التي توجد غالباً كأعراض في حالات المرض العقلي الحاد. وبالفعل، فقد أشار فرويد (b1916) إلى الأحلام باعتبارها ذهاناً عابراً، رغم أن الأحلام بدون شك ليست في ذاتها ظواهر مرضية. المشكلة إذن تنشأ من تفسير حقيقة أن النتيجة

[1]. يلاحظ القارئ هنا بأننا نشير إلى الخبرات الحسية التي يدركها الحالم بشكل واع على أنها جزء من الحلم الظاهر، وليس لأي إحساسات ليلية قد تكون جزءاً من المحتوى الكامن للحلم (المؤلف)

النهائية لعمل الحلم، أي الحلم الظاهر، هي في الأساس هلوسة، رغم أنها هلوسة نوم سوية. شرح فرويد (1900)، في صياغته الأولى لسيكولوجيا الأحلام، هذه الخاصية لعمل الحلم بمصطلحات مرت بنا في الفصل الثالث تدعى النظرية الطبوغرافية للجهاز النفسي. وفقاً لتلك النظرية يبدأ المسار السوي للتصريف النفسي من النهاية الإدراكية للجهاز إلى النهاية الحركية، حيث يتم تصريف الطاقة النفسية في شكل فعل. ترتكز هذه الصياغة بدون شك على نموذج قوس الانعكاس، حيث مسار النبض العصبي يبدأ من العضو الحسي، مروراً بالخلايا العصبية المركزية، إلى أن ينتهي إلى الخارج عبر الممر الحركي. لقد افترض فرويد أنه، بما أن التصريف الحركي يُعَاق في النوم، فإن الممر الذي تسلكه الطاقة النفسية للحلم من خلال الجهاز النفسي يتحرك بالضرورة في اتجاه معاكس، والنتيجة أن النهاية الإدراكية للجهاز يتم تنشيطها في عملية التصريف النفسي ومن ثم تظهر الصور الحسية في الوعي، تماماً كما هي الحال حينما يُنشط الجهاز الإدراكي بمثير خارجي. إنه لهذا السبب، وفقاً لتفسير فرويد الأصلي، أن الصورة الحسية في الحلم الظاهر تبدو كأنها حقيقية بالنسبة للحالم.

يجب من زاوية نظرية التحليل النفسي المعاصرة حول الجهاز النفسي، المسماة بالفرضيات البنائية، أن نصوغ تفسيرنا لحقيقة أن الحلم الظاهر هو في الأساس هلوسة كما يلي: أثناء النوم تُعطل تقريباً كثير من وظائف الأنا. وقد سبق أن ذكرنا كأمثلة على ذلك، التناقص في دفاعات الأنا أثناء النوم ،والتوقف شبه الكلي للنشاط الحركي الطوعي. والأهم في نقاشنا الحالي، أنه يوجد أثناء النوم خلل ملحوظ في وظيفة الأنا لاختبار الواقع، أي في قدرته على التمييز بين المثيرات ذات الأصول الداخلية والأصول الخارجية. إضافة إلى هذا،

يحدث في النوم أيضاً نكوص حاد في أداء الأنا لوظائفه إلى مستوى يتناسب والمراحل المبكرة من الحياة. على سبيل المثال، يأخذ التفكير شكل العملية الأولية وليس الثانوية، ويكون أساساً في الشكل ما قبل اللفظي، أي أنه يتكون إلى حد بعيد من الصور الحسية التي هي في الأساس بصرية. وقد يكون أيضاً فقدان القدرة على اختبار الواقع مجرد نتيجة لنكوص الأنا الذي يحدث أثناء النوم. وعلى أي حال، ففي أثناء النوم يوجد ميل للتفكير نحو الاتجاه ما قبل اللفظي، بشكل كبير نحو الصور المرئية، وقصور من جانب الأنا في التعرف على أن هذه الصور تنشأ من مثيرات داخلية وليس خارجية. إنه نتيجة لهذه العوامل نعتقد أن الحلم الظاهر هلوسة بصرية في الأساس.

إحدى الحقائق التي يمكن ملاحظتها بسهولة والتي تدعم التفسير القائم على الفرضيات البنائية ضد التفسير الأبسط القائم على الفرضيات الطبوغرافية هي الآتي. في العديد من الأحلام لا نفتقد القدرة على اختبار الواقع كلية. فالحالم على دراية إلى حد ما، حتى وهو يحلم، بأن ما يختبره ليس حقيقياً، أو أنه "فقط حلم." يصعب التوفيق بين مثل هذا الاحتفاظ بوظيفة اختبار الواقع والتفسير القائم على الفرضيات الطبوغرافية. غير أنه يتوافق تماماً مع ذلك التفسير القائم على الفرضيات البنائية.

نلخص هنا ما أردنا قوله حول نظرية التحليل النفسي عن طبيعة الأحلام. لقد ناقشنا الأجزاء الثلاثة للحلم، أي المحتوى الكامن، والمحتوى الظاهر، وإخراج الحلم، وحاولنا الإشارة إلى كيفية عمل إخراج الحلم وما هي العوامل المؤثرة فيه. وطبعاً، عندما يحاول الشخص، أثناء الممارسة، دراسة حلم مفرد، فإنه يواجه بالمحتوى الظاهر، وعليه عندها مهمة

اكتشاف ما قد يكون عليه المحتوى الكامن. وعندما تكتمل المهمة بنجاح ونكون قادرين على اكتشاف المحتوى الكامن للحلم، نقول أننا فسرنا الحلم أو اكتشفنا معناه.

إن مهمة تفسير الأحلام تقتصر إلى حد بعيد على العلاج بالتحليل النفسي، لأنها تتطلب استخدام تقنيات التحليل النفسي. وسوف لن نناقش تفسير الأحلام هنا لأنه أسلوب فني، وجزء من ممارسة التحليل النفسي ،وليس من نظرية التحليل النفسي.

قراءات إضافية

Freud, S., The interpretation of dreams. Standard edition,vol.,4 and 5,1953. Also, New York: Basic books,1955.
Freud, S., Fragment of an analysis of a case of hysteria. Standard edition,vol.,7. The analysis and synthesis of the first dream,pp.64-93,1953.
Freud, S., New introductory lectures on psychoanalysis. Standard edition,vol.22. Chapter,1 ,lecture XXIX,1964.Also in complete introductory lectures on psychoanalysis.NY,Norton,1966.
Arlow,J.A., & Brenner. G., Psychoanalytic concepts and the structural theory. New York: International Universities Press,1964,chapter,9.

الفصل الثامن

المرض النفسي

Psychopathology

تطورت وتغيرت نظريات التحليل النفسي المتعلقة بالاضطرابات العقلية خلال السنوات الماضية تماماً ،مثلما تغيرت نظريات الدوافع والجهاز النفسي. وسوف نقدم في هذا الفصل صورة لهذا التطور من جذوره إلى الوقت الحاضر، ونناقش بشكل عام أصول نظرية التحليل النفسي للاضطرابات العقلية كما هي في الوقت الحالي.

حينما بدأ فرويد لأول مرة في علاج المرض العقلي، كان الطب النفسي بالكاد قد تجاوز طفولته. كان مصطلح الفصام قد أدخل تواً إلى أدبيات الطب النفسي؛ أما الوهن النفسي فقد كان الاسم المفضل لمعظم الحالات التي نسميها اليوم بالعصاب النفسي. نجح شاركو في توضيح كيف أن الأعراض الهستيرية يمكن إحداثها أو إزالتها بواسطة التنويم بالإيحاء hypnosis ؛ كما كان هناك اعتقاد بأن الاستعداد للمرض العصابي، مضافاً إليه التوترات غير الطبيعية الناجمة عن التغير السريع في الحياة الصناعية الحضرية، هو السبب الأول لكل الأمراض النفسية.

يتذكر القارئ من الفصل الأول أن الهستيريا كانت أول ما اهتم به فرويد (Breuer and Freud,1895). عالج فرويد، بناء على نصيحة من بروير، عدة حالات من الهستيريا باستخدام طريقة محورة عن علاج التنويم بالإيحاء سماها أسلوب التطهير. وبناء على خبرتهما المشتركة، فقد استنتج فرويد أن الأعراض الهستيرية سببها ذكريات لاشعورية عن أحداث صاحبتها انفعالات حادة تعذر التعبير عنها، لسبب أو لآخر، أو تصريفها بشكل مناسب وقت حدوثها. وطالما يوجد مانع من التعبير السوي عن الانفعالات، فإن الأعراض الهستيرية سوف تستمر.

بمعنى، كانت نظرية فرويد المبدئية عن الهستيريا هي أن الأعراض ناجمة عن صدمة نفسية حدثت لأفراد، ممن يحتمل معاناتهم مرضاً عصابياً وراثياً أو خِلقياً. وكما أشار هو نفسه (Freud,1906)، كانت هذه نظرية نفسية بحتة حول الأسباب. من الناحية الأخرى، ونتيجة لخبرته المبكرة مع مجموعة أخرى من المرضى النفسانيين، الذين شخصهم كحالات وهن نفسي، طور نظرية مختلفة تماماً حول أسباب هذه الحالة، التي اعتبرها نتيجة للممارسات الجنسية غير الصحية (1895).

هذه الممارسات كانت على نوعين، وكل نوع وفقاً لفرويد، أدى إلى جملة أو مجموعة مختلفة من الأعراض. فالإفراط في العادة السرية والاحتلام تشكلان المجموعة الأولى من الاختلالات الجنسية المرضية، وتؤدي إلى أعراض التعب، وفتور الهمة، والانتفاخ flatulence، والإمساك، والصداع، واضطراب الهضم dyspepsia. وقد اقترح فرويد أن يقتصر استخدام مصطلح الإجهاد النفسي على هذه المجموعة من المرضى فقط. النمط الثاني من الجنس الهدام يتضمن أي نشاط جنسي يؤدي إلى إثارة أو انفعال جنسي دون التصريف أو التنفيس المناسب، كما هو الحال مثلاً في الاتصال الجنسي الموتور، أو الجماع دون إشباع جنسي. تؤدي مثل هذه الأنشطة إلى حالات من القلق، غالباً في شكل نوبات من القلق، وقد اقترح فرويد أن تشخص حالات مثل هؤلاء المرضى على أنها عصاب قلق. لقد أوضح بجلاء، وحتى عام 1906، أنه يعتبر أعراض الوهن النفسي وعصاب القلق ناجمين عن التأثير الجسمي لاضطرابات التمثيل الحيوي الجنسي، وأنه يعتقد أن الحالات نفسها اضطرابات كيميائية حيوية مناظرة لقصور الغدة الدرقية والكظرية. وحتى يؤكد على خاصيتها المميزة،

فقد اقترح فرويد أن يجمع كلاً من الوهن النفسي وعصاب القلق معاً تحت اسم الأعصبة الفعلية، في مقابل القلق والوسواس القهري اللذين اقترح تسميتهما بالأعصبة النفسية.

سوف يلاحظ القارئ أن التصنيف الذي اقترحه فرويد كان يعتمد بشكل أساسي على دراسة الأسباب وليس على دراسة الأعراض فحسب. والواقع أن فرويد ذكر بشكل محدد (Freud,1898) أنه ينبغي تشخيص الحالة وهناً نفسياً في حالة فقط ما إذا كانت الأعراض النفسية النمطية مصحوبة بتاريخ من الإفراط في الاحتلام أو العادة السرية، لأنه بدون مثل هذا التاريخ يجب إرجاعها إلى سبب مختلف، كالهستيريا أو الشلل العام (التهاب السحايا الزهري syphilitic meningo - encephalitis). من المهم التأكيد على هذه الحقيقة لأنه ،وحتى اليوم، يعتمد التصنيف المعتاد من قبل الطب النفسي للاضطرابات النفسية، التي ليست ناشئة عن مرض أو جرح بالجهاز العصبي المركزي، على أساس من دراسة الأعراض، وهذا هو ما يعرف بالتصنيف الوصفي. وفي الطب النفسي، كما في أي فرع طبي آخر، فإن أهمية التصنيف الوصفي للأمراض أو الاضطرابات قليلة، لأن العلاج المناسب في معظم الحالات يعتمد على معرفة سبب الأعراض وليس على طبيعتها، فنفس الأعراض لدى مريضين مختلفين قد تكون أسبابها مختلفة تماماً. لذلك فإن مما يثير الاهتمام أن فرويد حاول، ومنذ السنوات المبكرة من عمله مع المضطربين عقلياً، أن يتخطى التصنيف الوصفي المحض، وأن يحدث فئات من الاضطرابات العقلية التي يشبه بعضها الآخر في السبب المشترك، أو على الأقل في الآلية العقلية المشتركة. هذا إلى أن الاهتمام بأسباب الأمراض النفسية، وليس مجرد الاهتمام بالأعراض الوصفية، ظل يميز نظرية التحليل النفسي

حول الأمراض النفسية حتى الوقت الحاضر.

ومنذ حوالي ما بعد العام 1900، كان الاهتمام الإكلينيكي الأساسي لفرويد هو تلك الاضطرابات العقلية التي سماها بالأعصبة النفسية، بينما توقف عملياً اهتمامه البحثي فيما سمي بالأعصبة الفعلية. مع ذلك، فإنه أعاد في مقاله عن القلق (Freud,1926) التأكيد على موقفه من أن تصنيفه لعصاب القلق كان صحيحاً (لم يذكر الوهن النفسي)، وأنه ناجم عن انفعال جنسي لم يصحبه إشباع مناسب، لكنه لم يعد متمسكاً بفكرة أن عصاب القلق في جوهره اضطراب في المركبات الكيميائية الحيوية بالغدد الصماء. وعوضاً عن ذلك، عزا فرويد ظهور القلق، الذي يشكل العرض الأساسي للعصاب والذي منحه اسمه، إلى آلية نفسية محضة. لقد افترض أن طاقات الدافع التي كان ينبغي تصريفها في هزة الجماع، غير أنها لم تصرف بهذه الطريقة، تخلق حالة من التوتر النفسي تصبح في النهاية على درجة من الضخامة لا يمكن للأنا السيطرة عليها، وينشأ عن ذلك ظهور القلق تلقائياً، كما سبق وأن بينا في الفصل الرابع.

إن من الصعب إلى حد ما القول ما هو عليه إجماع المحللين النفسانيين اليوم فيما يخص الوهن النفسي وعصاب القلق كما وصفهما فرويد، إنها تناقش كمكونات أصيلة في الكتب المتداولة حول التحليل النفسي الإكلينيكي (Fenichel,1945)، غير أنها نادراً ما تذكر في الدوريات العلمية للتحليل النفسي، ولا توجد تقارير عن حالات منذ وصفها فرويد لأول مرة. ومن الإنصاف القول أنه في الممارسة العملية، لم تعد فئة العصاب الفعلي جزءاً هاماً في قائمة التحليل النفسي للأمراض.

أما فيما يتعلق بفئة العصاب النفسي فالحالة تختلف تماماً. فقد خضعت النظريات المبكرة لفرويد حول هذه الاضطرابات لمراجعة وتعديل مستمرين عبر فترة استمرت حوالي ثلاثين عاماً. وهذه التغييرات في الصياغة النظرية كانت دائماً نتيجة لمعلومات جديدة تتعلق بالمرض النفسي ،استخلصت من العلاج التحليلي للمرضى، وهو أسلوب علاجي، يعتبر في ذلك الوقت، أفضل أسلوب تم ابتكاره حتى ذلك الحين لغرض ملاحظة أداء العقل لوظائفه. جاءت هذه التغييرات والإضافات كثيفة وسريعة خلال السنوات المبكرة. أولها كان الاعتراف بأهمية الصراع النفسي في إيجاد الأعراض النفسية العصابية. وكما يذكر القارئ فإن ما استنتجه فرويد من عمله مع بروير هو أن الأعراض الهستيرية، ويمكن أن نضيف وأعراض الوسواس أيضاً، سببها حدث ماض منسي لم يتم أبدا تصريف الانفعالات المصاحبة له بشكل كاف. أضاف فرويد، مباشرة بعد ذلك، وبعد مزيد من التأمل والتفكير، الصياغة التي تقول أنه، لكي يوصف أي حدث أو خبرة نفسية على أنه مرض، ينبغي أن يكون مكروهاً لأنا الفرد لدرجة أن الأنا يحاول دفعه وصده (Freud,1894 and 1896). يجب أن يدرك القارئ أنه ،رغم أن كلمات ''أنا ''و ''دفاع'' هي نفس الكلمات التي استخدمها فرويد بعد ثلاثين سنة فيما بعد في صياغته للفرضيات البنائية للجهاز النفسي، إلا أن مدلولها كان مختلفاً تماماً في هذه الصياغة المبكرة. في ذلك الوقت استخدم ''الأنا'' ليدل على معنى الذات، وبالذات على المعايير الأخلاقية للذات الواعية، بينما دلت كلمة ''دفاع'' على معنى الإنكار الشعوري conscious repudiation أكثر من الدلالة الخاصة التي أعطيت لها في النظرية الأخيرة التي ناقشناها في الفصل الرابع.

اعتبر فرويد هذه الصياغة مناسبة لحالات الهستيريا، والوساوس، والعديد من أنواع الرهاب، ولذلك اقترح تجميع هذه الحالات معاً باعتبارها "أذهنة عصابية دفاعية" نستطيع أن نرى هنا مثالاً آخر على جهد فرويد المتواصل من أجل أن يؤسس نظاماً تصنيفياً يقوم على الأسباب ،وليس فقط على مجرد الوصف للأعراض العقلية المرضية. هذا الميل واضح في الحالة الحاضرة خصوصاً، حيث اعتقد فرويد أن بعض أنواع الرهاب، كرهاب الساحة مثلا، وبعض الوساوس، كهوس الاستنكاح doubting mania، هي أعراض لعصاب القلق الخالص. وهي لذلك تعود إلى التصريف غير الكافي للرغبة الجنسية، مع ما ينجم عن ذلك من اضطراب في التمثيل الحيوي الجنسي للجسم، وليس لأي ميكانيزم نفسي مثل الدفاع ضد الخبرة البغيضة repugnant.

الإضافة التالية لصياغات فرويد فيما يتعلق بالأسباب المرضية النفسية للأعصبة النفسية نجمت عن خبرته من أن تعقب الحدث المرضي المنسي يقود دائماً إلى حدث في طفولة المريض له علاقة بحياته الجنسية (Freud,1896,1898). لذلك افترض أن الأمراض العقلية نتيجة نفسية لإغواء جنسي في أثناء الطفولة من قبل شخص راشد أو طفل كبير. وعلى أساس من خبرته فقد افترض أيضاً أنه إذا كان المريض قد قام بدور نشط في خبرة الطفولة الجنسية الصادمة، فإن أعراضه العصابية النفسية فيما بعد تكون في شكل وساوس. أما إذا كان دوره في الخبرة الصادمة سلبياً، فإن أعراضه تكون فيما بعد هستيرية. إن هذه النظرية، بافتراضها حدثاً معيناً صادماً في مرحلة الطفولة كسبب مألوف للأعراض العصابية النفسية فيما بعد، كانت أثيرة جداً لدى كتاب هوليوود، وبرادواي، وقوائم الكتب "الأفضل

مبيعاً." وليس من شك، بأنه في مثل هذه النسخ الخيالية يتم عادة تجاهل المطلب النظري من أن الخبرة الصادمة تكون ذات طبيعة جنسية، وذلك مراعاة للأخلاق العامة.

لم يتخل فرويد مطلقاً عن فكرة أن جذور أي عصاب نفسي في مرحلة الحياة المتأخرة يكمن في اضطراب الحياة الجنسية للطفولة، وهذا المفهوم ظل، ولوقتنا الحاضر، حجر الأساس في نظرية التحليل النفسي. مع ذلك، فقد أُرغم فرويد على الاعتراف بأنه، وخلال مرات عديدة، اتضح أن القصص التي رواها مرضاه عن تعرضهم لإغواء جنسي في طفولتهم كانت في الواقع خيالات أكثر منها ذكريات حقيقية، حتى ولو كان المرضى أنفسهم يعتقدون أنها صحيحة. كان هذا الاكتشاف في البداية ضربة قاصمة لفرويد، الذي انتقد نفسه بقسوة لكونه كان على نفس سذاجة المرضى العصابيين، وأثناء يأسه وخجله كان على وشك التخلي عن بحوثه في التحليل النفسي والعودة إلى الحظيرة المحترمة للجمعية الطبية المحلية التي انتزعته هذه البحوث منها. إن أحد الانتصارات العظيمة في حياته هو أن هذا اليأس كان قصير الأمد، وأنه استطاع أن يعيد فحص بياناته في ضوء معرفته الجديدة. وبدلاً من التخلي عن التحليل النفسي قام بخطوة هامة إلى الأمام باعترافه أنه، وبعيداً عن كونها مقصورة على مرحلة الطفولة في حوادث استثنائية صادمة كالإغواء، فإن الأنشطة والاهتمامات الجنسية تشكل جزءاً سوياً من الحياة النفسية البشرية منذ الطفولة المبكرة (Freud,1905b). باختصار، لقد صاغ نظرية الجنسية الطفلية infantile sexuality التي ناقشناها في الفصل الثاني.

نتيجة لهذا الكشف تلاشت إلى حد ما أهمية الخبرات الصادمة العرضية وراء أسباب

الأعصبة النفسية ،وزادت الأهمية النسبية للوراثة والتكوين الجنسي للمريض كعوامل مسببة. لقد افترض فرويد، في الواقع، أن كلا من عوامل التكوين والخبرة يساهمان في أسباب الأعصبة النفسية، وأن أحدهما يسيطر في بعض الحالات، ويسيطر الآخر في بعض الحالات الأخرى (Freud,1906). ظل ذلك هو وجهة نظره طوال حياته، وهو الرأي المقبول عموماً اليوم من المحللين النفسانيين. ينبغي، مع ذلك، أن نضيف بأنه رغم أن ملاحظات التحليل النفسي منذ عام 1906 أضافت كثيراً لمعرفتنا بهذه العوامل المسببة المتصلة بالخبرة، فإن الطبيعة الخاصة لتلك الملاحظات حالت دون الإضافات الجوهرية لمعرفتنا بالعوامل التكوينية. لقد هدفت دراسات نمو الطفل (Fries,1953) إلى توضيح طبيعة هذه العوامل التكوينية، غير أنها حتى الآن لم تتجاوز المرحلة الاستكشافية.

أدى اكتشاف أن الجنسية الطفلية ظاهرة سوية إلى مفاهيم أخرى جديدة ومثيرة للاهتمام. فمن ناحية، أدى إلى تضييق الهوة بين السواء والعصاب النفسي. ومن ناحية أخرى، أعطى الفرصة لظهور صياغة تتعلق بجذور الانحرافات الجنسية وعلاقتها بكل من السواء والعصاب النفسي.

وفقاً لصياغة فرويد فإنه ،في أثناء نمو الفرد السوي ،تُكبت بعض مكونات الجنسية الطفلية التي ناقشناها في الفصل الثاني، بينما يُدمج الباقي عند البلوغ في السلوك الجنسي للبالغين. بهذه الكيفية تلعب دوراً مميزاً في الانفعال والإشباع الجنسي، لكنه دور ثانوي بالنسبة لدور الأعضاء التناسلية نفسها. والأمثلة الشائعة على ذلك هي التقبيل، و النظر، والشم. بالنسبة لنمو هؤلاء الأفراد الذين يصبحون فيما بعد عصابيين، تنجح عملية الكبت

نجاحاً هائلاً. يخلق الكبت الشديد موقفاً مضطرباً إلى درجة أنه فيما بعد، وبسبب موقف مفجر ما، يفشل الكبت وتهرب منه النزوات الطفلية الجنسية غير المرغوبة مسببة الأعراض النفسية العصابية. أخيراً، في طور نمو هؤلاء الأفراد الذين يصبحون منحرفين جنسياً، يلاحظ استمرار شاذ لبعض مكونات الجنسية الطفلية حتى حياة الرشد، كما في الاستعراء والشبق الشرجي على سبيل المثال. ونتيجة لذلك يسيطر على الحياة الجنسية للمنحرف ذلك الجزء الخاص من الجنسية الطفلية بدلاً من الرغبات التناسلية السوية (Freud,1905b and 1906).

سوف يلاحظ القارئ نقطتين في هذه الصياغات. الأولى أنها تعبر عن فكرة أن الكبت سمة لكل من النمو العقلي السوي والشاذ على السواء. وهذه فكرة أشرنا إليها مراراً في الفصل الرابع، ليس فقط فيما يتعلق بالكبت، ولكن أيضاً فيما يتعلق بالميكانيزمات الدفاعية الأخرى للأنا. النقطة الثانية هي أن مفهوم النزعة المكبوتة الهاربة من الكبت كي تحدث عرضاً عصابياً نفسياً تشبه كثيراً المفهوم الذي ناقشناه في الفصل السابع عن النزوة المكبوتة أثناء النوم الهاربة من دفاعات الأنا لكي تحدث الحلم الظاهر.

كان فرويد ،طبعاً، على دراية تامة بهذا التشابه ووفقاً له اقترح الصياغة القائلة بأن العرض النفسي العصابي، مثل الحلم الظاهر، تكوين توفيقي بين واحدة أو أكثر من النزعات المكبوتة وبين قوى الشخصية المعترضة على دخول هذه النزعات إلى السلوك والتفكير الواعي. والفرق الوحيد هو أن الرغبة الغريزية الكامنة في الحلم يمكن أن تكون أو لا تكون جنسية، بينما النزعات المكبوتة المحدثة للعرض العصابي تكون دائماً جنسية.

كان فرويد أيضاً قادراً على بيان أن الأعراض النفسية العصابية، مثل عناصر الحلم

الظاهر، لها معنى، يعني محتوى كامن أو لاشعوري. ويمكن الإشارة إلى هذه الأعراض على أنها تعبيرات مقَنَّعة ومحرفة للخيالات الجنسية اللاشعورية. هذا يقود إلى القول بأن جزءاً من أو كل الحياة الجنسية للمريض العصابي تتجسد في أعراضه.

تتبعنا حتى الآن تطور أفكار فرويد المتعلقة بالاضطرابات النفسية حتى عام 1906. تلك كانت عبقرية الرجل وخصوبة أسلوب التحليل النفسي، الذي ابتكره واستخدمه كأسلوب للبحث، إلى حد أن نظرياته كانت قد استوعبت في وقتها كل العناصر الأساسية لصياغاتنا الحاضرة، سواء منها المكتمل أو الذي في طور النضج. وكما رأينا، فقد بدأ فرويد دراساته بالمفاهيم التي كانت شائعة في الفكر الطبي النفسي في ذلك الوقت، والتي تعتبر الاضطرابات العقلية أمراضاً في العقل لا علاقة لها بالأداء العقلي السوي، تُصنف على أساس عرضي وصفي، وأسبابها إما أنها مجهولة صراحة، أو تُنسب إلى عوامل غامضة عامة كتوتر الحياة المعاصرة، والإجهاد العقلي، والتكوين المرضي العصابي. وفي عام 1906 كان قد نجح في فهم العمليات النفسية وراء العديد من الاضطرابات العقلية إلى درجة كافية سمحت له بتصنيفها على أساس نفسي، أو إن شئت، على أساس من المرض النفسي، وليس على أساس من تصنيف الأعراض. علاوة على ذلك، أدرك فرويد أنه لا توجد مسافة كبيرة بين السواء والعصاب النفسي، بل على العكس، فالاختلافات النفسية بينهما اختلافات في الدرجة وليس في النوع. أخيراً، وضع فرويد بدايات التوجه نحو الفهم النفسي لاضطرابات الشخصية، كما في الانحرافات الجنسية، وأدرك أن هذه الاضطرابات النفسية لها علاقة بالسواء، أكثر من كونها متميزة من حيث النوع.

أدت الدراسات التي قام بها فرويد بعد عام 1906، وكذلك الدراسات التي قام بها الآخرون فيما بعد، إلى الإضافة والتعديل في كثير من التفاصيل الهامة في نظرياته المتعلقة بعلم الأمراض العقلية في ذلك الوقت. غير أنها لم تؤد إلى تغيرات في المبدأ والتوجه الأساسي. فالمحللون لا يزالون إلى اليوم يوجهون انتباههم إلى الأسباب النفسية للعرض وليس إلى العرض نفسه، وما زالوا يفكرون في هذه الأسباب بمصطلحات الصراع النفسي بين القوي الغريزية وضد الغريزية، وما زالوا ينظرون إلى ظواهر السلوك والأداء العقلي الإنساني كامتداد من السوي إلى المرضي، بنفس الطريقة التي يمتد بها طيف الجسم الصلب المتوهج من أحمر إلى بنفسجي، دون أي خط واضح يفصل اللون عن الذي يليه. حقاً، نحن نعلم اليوم أن بعضاً، على الأقل، مما سماه فرويد بالأعراض والصراعات النفسية العصابية موجود في كل ما يطلق عليه الفرد السوي. فالسواء النفسي يمكن فقط تعريفه عشوائياً بمصطلحات كمية ونسبية. أخيراً، مازال المحللون ينظرون، وبشكل خاص، إلى مرحلة الطفولة كمصدر للحوادث والخبرات التي هي إما مسؤولة بشكل مباشر عن الاضطرابات العقلية في الحياة فيما بعد، أو كان لها على الأقل دور في نشأتها.

وفقاً لمصطلحات نظرية التحليل النفسي المعاصرة، فإن ما ندعوه إكلينيكياً بالاضطرابات العقلية يمكن فهمها وصياغتها بشكل أفضل باعتبارها دلائل على خلل في أداء الجهاز النفسي بطرق شتى ومستويات متعددة، وكما هي العادة، يمكننا أن نوجه أنفسنا بشكل أفضل إذا ما تبنينا منهجاً وراثياً أو نمائياً.

يتضح مما سبق أن قلناه في الفصلين الثاني والخامس وجود احتمالات متعددة

للمتاعب أثناء السنوات المبكرة من الطفولة، حينما تكون الأجزاء أو الوظائف المتعددة للجهاز النفسي في عملية نمو. على سبيل المثال، إذا حرم المولود من الاستثارة البدنية الطبيعية من قبل الأم أثناء السنة الأولى من الحياة، فإن الكثير من وظائف الأنا سوف تفشل في النمو بشكل طبيعي، وقد تختل قدرته على الانتماء إلى البيئة الخارجية والتعامل معها إلى درجة تجعله يشبه المتخلف عقلياً (Spitz,1945). وحتى بعد السنة الأولى من العمر قد يتشوه نمو الوظائف الضرورية للأنا بسبب الفشل في نمو التوحدات الضرورية، إما بسبب الإحباط الشديد أو التدليل المفرط، ونتيجة لذلك يكون الأنا غير قادر على أداء مهمته الأساسية في التوسط بين البيئة والهو، مع كل ما يقتضيه ذلك من تحييد للدوافع والتحكم فيها من ناحية، والاستغلال التام لفرص الاستمتاع التي تعرضها البيئة، من ناحية أخرى.

لو نظرنا إلى نفس الصعوبات من وجهة نظر الدوافع، لأدركنا بسهولة أنه ينبغي السيطرة عليها بشكل ملائم ،لكن دون إفراط. إن السيطرة الضعيفة جداً على الدوافع سوف تنتج إنساناً غير ملائم وغير قادر على أن يكون عضواً في المجتمع الذي ينتمي إليه. من الناحية الأخرى، يؤدي الكبت المفرط للدوافع إلى نتائج غير مرغوبة. فإذا تم كبت الدافع الجنسي في وقت مبكر وبشكل قوى، فإن النتيجة المحتملة أن نرى إنساناً ضعفت قدرته على الاستمتاع بشكل خطير جداً. أما إذا كان دافع العدوان هو الذي خضع للسيطرة المفرطة، فإن الفرد سيكون عاجزاً عندها على الاحتفاظ بدافع العدوان في مواقف التنافس الطبيعية مع أقرانه. إضافة إلى أن العدوان الذي لا يمكن التعبير عنه تجاه الآخرين غالباً ما يرتد إلى الذات، وقد يدمرها.

من الممكن أيضاً لعمليات تكوين الأنا الأعلى أن تفضي إلى الانحراف، هذا يعني أن الثورة النفسية المعقدة التي تنهي المرحلة الأوديبية قد تُجهض بطريقة ما، ونتيجة لذلك قد يكون الأنا الأعلى قاسياً أو متساهلاً أكثر مما ينبغي، أو خليطاً متنافراً من الاثنين.

كل هذه الاحتمالات ،في الواقع ،حقيقية وتحدث فعلاً. ومن الطبيعي أن نعرضها بشكل عام للغاية. على سبيل المثال، إذا كانت السيطرة على الدوافع ضعيفة للغاية، فهذا معناه طبيعياً وجود قصور مناظر في وظائف الأنا والأنا الأعلى. ومن الناحية الأخرى، إذا كانت السيطرة على الدوافع صارمة للغاية، فالاحتمال عندها أن الأنا خائف جداً، والأنا الأعلى قاس أكثر من اللازم.

وكما ذكرنا في الفصل الثالث، فإن كثيراً من اهتمامات الأنا، أي كثيراً من أنشطته التي يختارها كمتنفس لطاقة الدافع ومصادر للاستمتاع، يتم انتقاؤها على أسس من التوحد. غير أنه يوجد عامل آخر ربما يكون أحياناً أكثر أهمية من التوحد في انتقاء نشاط بعينه من هذا النوع. والاختيار في مثل هذه الحالات يحدده الصراع الغريزي بشكل أساسي. وهكذا، على سبيل المثال، قد يتحدد اهتمام الطفل بالرسم بواسطة صراع ملح على وجه خاص حول الرغبة في التلطخ بالبراز أكثر من الحاجة أو الرغبة في تقمص فنان. وبطريقة مشابهة، قد ينجم حب الاستطلاع العلمي عن حب استطلاع جنسي قوي في الطفولة المبكرة، وهكذا.

إننا نعتبر المثالين السابقين اللذين أعطيناهما داعمين لنمو الفرد. إنهما مثالان عن حصيلة الصراع الغريزي الذي ناقشناه في الفصل الرابع تحت عنوان الإعلاء. غير أنه قد

يحدث أن الصراع الغريزي يُحل، أو على الأقل يُجمَّد، عن طريق تقييد أو كبح نشاط الأنا ،وليس عن طريق تضخيمه كما يحدث في الإعلاء. والمثال البسيط على ذلك يتمثل في عجز الطفل الذكي عن تعلم الرياضيات، لأن ذلك يجعله في منافسة مع شقيقه الأكبر الموهوب في هذا المجال بشكل خاص. وهذا المنع المفروض ذاتياً على نشاطه العقلي يحميه من بعض المشاعر المؤلمة الناشئة عن تنافسه الغيور مع أخيه.

مثل هذه القيود على اهتمامات ونشاطات الأنا قد تكون نتائجها بسيطة على حياة الفرد، أو قد تكون من ناحية أخرى، مؤذية للغاية. فليس من النادر، مثلاً، أن يجتنب الفرد لا شعورياً النجاح في حياته العملية بنفس ما أبداه الطفل في مثالنا من تصميم على تجنب تعلم الرياضيات لنفس السبب تقريباً، أي أن يضع نهاية للصراع الغريزي مرة واحدة وللأبد، وإلا سوف يشتد بطريقة مؤلمة. إضافة إلى ذلك، تقوم غالباً قيود الأنا الشديدة بإشباع مطلب الأنا الأعلى للتكفير أو العقاب. فضلاً عن ذلك، ومما يعقد الأمور أكثر، ليس كل قيود الأنا النابعة من الصراعات الغريزية تجعل الطفل في متاعب مع بيئته، كما في حالة العجز عن تعلم الرياضيات. على سبيل المثال، قد يكون السلوك المثالي للطفل الصغير محاولة يائسة مفروضة ذاتياً للفوز بحب المحيطين به أكثر من كونها استمراراً في معاناة تعاسة صراعه العنيف معهم. هل هذا جيد أم سيئ بالنسبة للطفل وكيف يختلف عن السلوك السوي الحسن ؟

نفس أنواع الأسئلة تظهر في العلاقة مع النكوص والتثبيت ،التي قد تحدث إما في منطقة الأنا أو منطقة الهو أو في كليهما. على سبيل المثال، قد يتم حل العقدة الأوديبية

لدى فرد معين على حساب النكوص الجزئي في حياته الغريزية إلى مستوى الشرج، والنتيجة أنه يظل إلى بقية حياته مهتماً بشكل غير طبيعي بإنتاجه وعملياته الشرجية الخاصة، بالإضافة إلى ميله نحو تجميع وكنز أي شيء يمكنه أن يضع يديه عليه. وكما قلنا في الفصل الثاني، فإن مثل هذا النكوص الغريزي يعود عادة إلى نقطة تثبيت سابقة، ونعتقد أن التثبيت يسهل النكوص. ففي مثالنا، افترضنا أن شرجية الشخص كانت نكوصاً. وفي حالة أخرى قد تعود بدلاً من ذلك إلى التثبيت، مع حصول نفس النتيجة النهائية. وكمثال آخر، هذه المرة في منطقة الأنا، قد يكون هناك نكوص جزئي في علاقات الأنا بالموضوعات، نتيجة للصراعات الأوديبية، لذلك تكون موضوعات بيئة الأنا هامة له بقدر ما تشبع فقط رغباته، والنتيجة أنه لا يوجد موضوع تكون شحنته الانفعالية ثابتة ودائمة. في هذا المثال كما في المثال الأول، فإن نفس النتيجة قد تكون ناجمة عن التثبيت أكثر منها عن النكوص.

مثل هذه القيود من الأنا، بالإضافة إلى مثل هذا النكوص والتثبيت لكل من الأنا والهو كما وصفناهما الآن، تنتج سمات شخصية نسميها سوية إذا لم تتداخل بشكل غير ملائم مع قدرة الفرد على الاستمتاع وتجنب الصراعات الشديدة مع بيئته، بينما نسميها شاذة إذا تداخلت مع الاستمتاع إلى حد كبير وأدت بالفرد إلى صراع حاد مع بيئته. وهنا مرة أخرى يجب أن نؤكد على أنه لا يوجد خط فاصل وواضح بين السوي والشاذ، فالتمييز بينهما عملي محض، واختيار مكان رسمه قرار عشوائي في الأساس. على سبيل المثال، نحن نعتبر أن تكوين الأنا الأعلى نتيجة طبيعية للصراعات الغريزية الشديدة في الطور الأوديبي، لكن من الصواب وصف أحد مظاهر تكوين الأنا الأعلى باعتبارها فرضاً مستديماً لقيود أو

محظورات معينة على كل من الأنا والهو من أجل وضع نهاية للموقف الخطر الناجم عن الصراعات الأوديبية.

من الناحية النظرية البحتة يمكننا تجنب الاتهام بالعشوائية بمجرد مراعاة كل الاحتمالات التي ناقشناها في الفقرات المتعددة السابقة باعتبارها طرقاً مختلفة ينمو من خلالها الجهاز النفسي ويقوم بوظائفه، دون محاولة تصنيف أي منها باعتباره سوياً أو شاذاً. ومع ذلك، فإن على الممارس، الذي يستشار من قبل أشخاص في حالة من الضيق أو الصراع الشديد مع بيئتهم، أن يخاطر بأن يُوصَم بالعشوائية وأن يميز بين ما يمكن اعتباره سوياً ،ولا يدعو إلى الاهتمام أو العلاج ،وبين ما يمكن اعتباره مرضياً ويستحق الاهتمام والعلاج. وكما سبق لنا القول، يتوقف التمييز بين ما هو سوي وما هو مرضي، بين أنماط نمو وأداء الجهاز النفسي التي ناقشناها في الصفحات القليلة الماضية، على أسس من كمية التقييد لقدرة الفرد على الاستمتاع وعلى المدى الذي ضعفت فيه قدرته على التكيف مع بيئته. أما من حيث المصطلحات، فعندما يعتبر نمط الأداء النفسي من النوع الذي ناقشناه شاذاً فإنه يسمى عادة باضطراب الشخصية أو انعصاب الشخصية في اللغة الإكلينيكية. يشير مثل هذا المسمى في العادة إلى نمط من الأداء الوظيفي للجهاز النفسي في غير صالح الفرد، يمكن تسميته مرضياً، لكنه يمثل، رغم ذلك، توازناً ثابتاً ومستقراً إلى حد ما داخل النفس التي تتطور، مثلما ينبغي على أي توازن ضمن النفس intrapsychic أن يفعل، من تفاعل بين القوى المختلفة داخل النفس وتلك المؤثرة عليها من الخارج أثناء مرحلة النمو.

تتفاوت اضطرابات الشخصية المتعددة، أو أعصبة الشخصية، تفاوتاً كبيراً في

استجابتها للعلاج. وعلى العموم، كلما كان المريض صغيراً ،وكانت معاناته من الضيق من تلك السمة المعينة من الشخصية كبيرة، كلما كان العلاج فعالاً. ومع ذلك، يجب أن نعترف، بأنه ليست لدينا حتى الآن معايير ثابتة ودقيقة حول مآل المرض في مثل هذه الحالات.

نأتي الآن إلى نمط اضطراب وظائف الجهاز النفسي الذي أصبح مألوفاً لفرويد نتيجة دراساته المبكرة عن الهستيريا و"الأذهنة العصابية الدفاعية" الأخرى. في مثل هذه الاضطرابات يحدث التتابع التالي للحوادث. أولاً يأتي الصراع بين الأنا والهو أثناء الطفولة المبكرة، وعلى الأخص أثناء الطور الأوديبي أو ما قبل الأوديبي. هذا الصراع يُحل عن طريق الأنا، بمعنى أن الأنا يكون قادراً على إنشاء أسلوب ما مستقر وفعال لفحص ما نحن بصدده من مشتقات الدافع drive derivatives الخطرة. والأسلوب عادة معقد ويحوى كلا من دفاعات وتبدلات alterations الأنا مثل التوحدات، والقيود، والإعلاء، وربما النكوص. ومهما يكن الأسلوب، فإنه يعمل بصورة مرضية لفترات زمنية طويلة أو قصيرة حتى يدمر حدث أو سلسلة إحداث تالية التوازن ،ويجعل جهاز الأنا غير قادر على التحكم الفعال في الدوافع أكثر من ذلك. وسواء أكانت الظروف المفجرة تمارس فعلها بواسطة تعزيز وتقوية الدوافع ،أو بواسطة إضعاف الأنا، فليس لذلك أهمية. المهم هو الإضعاف النسبي للأنا إلى مستوى يكفي لأضعاف قدرته على السيطرة على الدوافع. عندما يحدث هذا، تهدد الدوافع أو بمعنى أدق مشتقاتها its derives باقتحام الشعور والتحول إلى سلوك ظاهر رغم جهود الأنا لاحتوائها. وهكذا يظهر الصراع الحاد بين الأنا والهو، والحال أن الأنا في وضع غير

موات، فينجم عن ذلك تشكل لحل وسط من النوع الذي عرفناه في الفصل السابع. يسمى هذا الحل الوسط بالعرض النفسي العصابي. كما يدعى أيضاً بالعرض العصابي، حتى من قبل فرويد في كتاباته الأخيرة، رغم أنه لا علاقة له بمفهومه عن العصاب الفعلي، بل يشبه بدلاً من ذلك ما يسميه بالعصاب النفسي.

في نمط القصور النفسي الذي وصفناه الآن، إذن، هناك فشل في دفاعات الأنا، بغض النظر عن الأسباب المفجرة، نتيجتها أن الأنا أصبح غير قادر على السيطرة بكفاءة على نزوات الهو التي سبق وأن سيطر عليها بفاعلية. ينشأ عن ذلك تكوين توفيقي يعبر لاشعورياً عن كل من مشتقات الدافع وتفاعل الأنا، بالدفاع والخوف أو الذنب، مع الخطر الذي يمثله الاختراق الجزئي للدوافع. يسمى مثل هذا التكوين التوفيقي بالعصاب، أو العرض العصابي النفسي، وهو يشبه كثيراً عنصر الحلم أو الحلم الظاهر، كما أشار لذلك فرويد منذ سنوات عديدة مضت.

ربما تساعد بعض الأمثلة في توضيح ما نعنيه. ولنأخذ أولاً حالة القيء لدى امرأة شابة. اتضح عند التحليل أن المرأة لديها رغبة لاشعورية في أن تخصب impregnated من أبيها[1]، لقد بدأت الرغبة والشحنة الانفعالية المضادة لها أثناء المرحلة الأوديبية من حياة المريضة. الحل المستقر نسبياً والذي كان في مقدورها الوصول إليه، فيما يتصل بهذه وغيرها من الصراعات الأوديبية في الطفولة، أدى وظيفته بطريقة مقبولة حتى طلاق أبويها وزواج

[1] أملت أمانة الترجمة المحافظة على النص كما هو، ولا يعني ذلك أننا نتفق مع المؤلف، كما لا يفعل ذلك غالبية علماء النفس. وللأسف فمثل هذه التأويلات كثيرة بين أتباع مدرسة التحليل النفسي الكلاسيكية. (المترجم).

والدها مرة أخرى حينما كانت في العشرين من عمرها. أعادت هذه الحوادث تنشيط صراعاتها الأوديبية وأخلت بالتوازن النفسي الداخلي intrapsychic الذي استقر منذ سنوات بعيدة ،والنتيجة أن قوى الأنا لديها لم تعد قادرة على السيطرة على رغباتها الأوديبية بشكل فعال. في هذه الحالة، فإن أحد تكوينات الحلول التوفيقية الناتجة كان عرض القيء. يرمز العرض بطريقة لاشعورية إلى الرغبة الأوديبية المكبوتة في التخصيب impregnated من قبل الأب، كما لو أن المريضة تبرهن من خلال القيء قائلة: "أنظر، أنا حامل وعندي غثيان" في نفس الوقت فإن المعاناة الناجمة عن القيء والقلق المصاحب له كانا تعبيراً عن الذنب والخوف اللاشعوري للأنا، المرتبط بهذه الرغبة. إضافة إلى ذلك كان الأنا قادراً على المحافظة على درجة كافية من النكوص كي لا يصبح المحتوى الطفولي من الرغبة شعورياً. فالمريضة لم تكن لديها معرفة واعية بحقيقة أن تقيؤها كان جزءاً من خيال الحمل. بمعنى آخر، منح الخلل الوظيفي بالجهاز النفسي الذي نجم عنه عرض القيء فرصة لتصريف طاقة الدافع الذي شحنت به الرغبة، غير أنه تصريف كان مقنعاً ومشوهاً بشكل كبير من قبل العمليات الدفاعية للأنا فأدى إلى الكدر لا إلى الاستمتاع. ويلزم أن نضيف بأن الأعراض النفسية العصابية "محددة بإفراط" overdetermined ، أي أنها تنشأ عادة من أكثر من واحد من مثل هذا الصراعات اللاشعورية بين الأنا والهو. وفي الحالة التي بين أيدينا، على سبيل المثال، تساهم الرغبة المعبر عنها بالخيال، "أمي ماتت وقد حللت مكانها" إضافة إلى الذنب والخوف النابعين منها، في تكوين العرض الذي وصفناه.

المثال الآخر لشاب بالعرض التالي: كان على هذا الشاب، كلما غادر المنزل، أن

يتأكد من فصل كل مصابيح السطح ومصباح الطاولة عن تيار الكهرباء الرئيسي. والخيال المخيف الذي يعمل كتبرير لهذا السلوك هو أنه إذا كانت المصابيح غير مفصولة، فقد يحدث التماس كهربائي بينما لا يوجد أحد في البيت، وقد يحترق المنزل. وهنا مرة أخرى فالصراع الأصلي كان أوديبياً. ومع ذلك، في هذه الحالة لم يكن حل الصراع الأوديبي أبداً حلاً راسخاً، وقد فشلت دفاعات الأنا والمكيانيزمات المنظمة مع بداية العواصف النفسية لمرحلة البلوغ، لذلك كان التكوين التوفيقي، أو الأعراض النفسية العصابية، واضحاً في أدائه النفسي لوظائفه منذ ذلك الحين.

لقد أظهر التحليل النفسي أن عرض هذا الشاب يحتوى على المحتوى اللاشعوري أو المحتوى الكامن التالي: كان الشاب لاشعورياً يرغب في احتلال مكان والده مع أمه. وقد تحقق هذا في خياله اللاشعوري بالطريقة التالية: سوف يحترق المنزل، وسوف يدمر والده بفقدان المنزل، ويبدأ في معاقرة الشراب، ويصبح غير قادر على العمل، ولذلك سوف يحتل مكانه كرب للمنزل. في هذه الحالة يتمثل إقحام رغبة الهو في حقيقتين: (1) الانشغال المتكرر بذلك الجزء من الخيال المتعلق باحتلال مكان أبيه والذي سمح له أن يبقى شعورياً، أي، أن المنزل سوف يحترق، و (2) حقيقة أن المريض في جولاته قبل مغادرة المنزل كان يوصل المصابيح بالقابس الكهربائي ثم ينزعها عنه، معبراً بهذا عن رغبته في جعل المنزل يحترق، رغم انشغاله الواعي بضرورة منع هذه الكارثة. من الناحية الأخرى، فإن جزء الأنا في العرض واضح: الإبطال، والكبت، والقلق، والذنب.

المثال الثالث عن شاب يعاني خوفاً مرضياً من السرطان. وهنا مرة أخرى كان

الصراع الطفولي أوديبياً، بينما كان العامل المفجر إكمال المريض لدراسته المهنية بنجاح وقرب زواجه، وكلاهما يعنيان له لاشعورياً إشباع خيالات أوديبية خطرة. فعرض المريض يعبر عن خيال أوديبي لاشعوري عن كونه امرأة خُصب impregnated من أبيه. ويرمز التوقع أو الخوف من كون مرضه خطيراً، والذي يشكل باقي العرض، إلى خيال مضمونه أنه أُخصِي ولذلك فهو أنثى. بينما تعبر فكرة أن شيئاً ينمو داخل جسمه، والذي يشكل باقي العرض، عن خيال مضمونه أنه خُصِّب وأن طفلاً ينمو داخله. في نفس الوقت يحافظ أناه على قدر ما يستطيع على دفاعاته المستمرة مدى الحياة ضد هذه الرغبات الأوديبية المخيفة. هذه الرغبات تبقى مكبوتة، على الأقل في شكلها الطفولي الأصلي؛ وما يصل إلى شعور المريض منها هو فقط نسخة مشوهة غير معروفة له. فالمريض ليست لديه أية معرفة شعورية بأية رغبة في أن يكون امرأة أو يكون له طفل من أبيه. ومع ذلك، فرغم جهوده الدفاعية، لم يكن ممكناً له أن يتجنب القلق تماماً، فهذه الرغبات الأوديبية تسبب له القلق حتى في أشكالها المقَنَّعة. وهكذا، كان القلق من المرض والموت جزءاً من عرضه أيضاً.

ابتكر فرويد مصطلحين لهما علاقة بتشكل الأعراض النفسية العصابية هما، على التوالي، المكسب الأولي والمكسب الثانوي من المرض، أو من تشكل العرض. لنرى الآن ما الذي عناه فرويد بالقول أن ميزة حقيقية أو مكسباً فعلياً يصبح ،بطريقة ما ،من نصيب الفرد نتيجة لتكون العرض.

اعتبر فرويد أن المكسب الأولي في هذه العملية يتمثل في حقيقة وجود تصريف جزئي، مثلاً، إشباع جزئي على الأقل لواحد أو أكثر من الرغبات ذات الأصل الغريزي، دون

شعور بالقلق أو بالذنب الغامر الذي منع المريض في السابق من الحصول حتى على الإشباع الجزئي الذي يصحب العرض النفسي العصابي. ربما يبدو هذا القول غريباً في ضوء حقيقة أن القلق يصحب غالباً الأعراض العصابية، وقد يكون بالفعل جزءاً ثابتاً منها. لكن التناقض ظاهري أكثر منه حقيقي، ويتخيله فرويد بالطريقة التالية: الضعف النسبي للأنا يهدد بظهور المحتوى الكامل لنزوة الهو في الشعور. وإذا حدث ذلك، فإنه سيكون مصحوباً بالفزع والذنب الطفولي الناجم عن النزوة التي نحن بصددها. وبالسماح بظهور جزئي مقنَّع لمشتق الدافع ،عن طريق التكوين التوفيقي الذي أسميناه العرض النفسي العصابي، يستطيع الأنا أن يتجنب بعض أو كل الكدر الذي لولا ذلك لظهر وتطور. هنا نرى إلى أي مدي يشبه العرض النفسي العصابي التكوين التوفيقي الذي نسميه الحلم الظاهر. في الحلم الظاهر أيضاً لا يستطيع الأنا أن يتجنب ظهور نزوة من المكبوت في الشعور، ولكن عن طريق السماح للنزوة بإشباع أو تصريف متخيل، مُشَوه ومقنَّع بدرجة كافية، يستطيع الأنا أن يتجنب كدر القلق أو كدر الإيقاظ من النوم.

لذلك، فالعرض النفسي العصابي ،كما يُرى من وجهة نظر الهو، إشباع بديل لرغبات مكبوتة. أما من وجهة نظر الأنا، فهو انبثاق في الشعور لرغبات خطرة وغير مرغوبة لا يمكن مراقبة أو منع إشباعها إلا بشكل جزئي، لكنها على الأقل أقل كدراً من ظهور تلك الرغبات في شكلها الأصلي.

المكسب الثانوي مجرد حالة خاصة من جهود الأنا المتواصلة لاستغلال فرص الإشباع الممتعة المتوفرة له. فبمجرد تكوين العرض، قد يكتشف المريض الذي يعاني منه أن

له بعض المزايا كما أن له عيوبه الواضحة. لنأخذ مثالاً متطرفاً لجندي المعركة في الحرب الذي يتمتع بميزة حقيقية على رفاقه بسبب تعرضه لحالة القلق: سوف ينقل إلى الخلف، حيث خطر الموت أقل. حقاً، إن مثل هذا المثال ليس الأفضل، رغم وضوحه جداً في الظاهر، لأن ظهور حالة القلق نفسها قد تتأثر لا شعورياً بمعرفة أنها سوف تؤدي إلى الترحيل إلى منطقة آمنة. ومع ذلك، توجد حالات عديدة لا يوجد فيها مثل هذا الاحتمال، ويصبح العصاب فيها ذا قيمة معينة للفرد فقط بعد ظهوره.

من وجهة نظر نظرية الأعراض النفسية العصابية ليس المكسب الثانوي بنفس أهمية المكسب الأولي. فمن وجهة النظر العلاجية، قد يكون هاماً للغاية، بما أن درجة عالية من المكسب الثانوي قد تؤدي إلى أن المريض يفضل لا شعورياً الاحتفاظ بعصابه بدل فقده، حيث أعراضه تصبح ذات قيمة بالنسبة إليه. فعلاج السمنة الزائدة، على سبيل المثال، يكون دائماً أمراً صعباً، لكنه يصبح مستحيلاً إذا كان المريض سيدة بدينة في سيرك، تتكسب من بدانتها.

في الأمثلة السابقة عن تكوين الأعراض النفسية العصابية لم نشمل أحدها الذي يصور احتمالاً، ذكرناه سابقاً، من أن أحد دفاعات الأنا قد يكون النكوص لكل من الدوافع ووظائف الأنا. مرة أخرى، ومن وجهة نظر النظرية، ليس النكوص إلا أحد المناورات الدفاعية المتعددة التي قد يستخدمها الأنا. مع ذلك، فنتائجه العملية خطيرة. وعموماً، كلما اشتدت درجة النكوص، ازدادت خطورة الأعراض الناجمة، وتضاءلت إمكانية العلاج الناجح، وزادت حاجة المريض للرعاية بالمستشفى.

النقطة الأخرى التي نود إيضاحها حول نمط اختلال الأداء الذي قد ينشأ عن فشل دفاعات الأنا هو أن تلك الاختلالات في الأداء، التي ندعوها بالأعراض النفسية العصابية، تكون عادة تلك التي يشعر أنا المريض بغرابتها عنه، أوبكدرها، أو بالحالتين معاً. فالشاب الذي كان عليه فحص جميع المصابيح قبل مغادرة المنزل، على سبيل المثال، لا يريد فعل ذلك. على العكس، لم يستطع مساعدة نفسه. كان مجبراً علي فحصها. بمعنى آخر، أدرك الأنا هذا العرض على أنه غريب وباعث على الكدر في نفس الوقت. من الناحية الأخرى، فالمرأة الشابة التي كانت تتقيأ لم تشعر بأن عرضها غريب عنها. فلم يكن لديها شك في مرض معدتها، تماماً كما لو أن قيأها يعود إلى تلوث حاد. مع ذلك، كان عرضها باعثاً على الكدر بشكل واضح.

والآن هناك تكوينات توفيقية، ليست مصدر كدر ولا غريبة عن الأنا، نشأت عن الفشل في تأسيس، أو المحافظة على، أسلوب ثابت من السيطرة على الدوافع بسبب الضعف النسبي للأنا. وأكثر هذه التكوينات وضوحاً الحالات العديدة من الإدمان والانحراف الجنسي. هناك ملاحظتان نوردهما بالترتيب عن مثل هذه الحالات. فهي، في المقام الأول، تتوسط بشكل جلي بين ما رأينا أن نسميه باضطرابات الشخصية وبين ما قررنا أن ندعوه بالأعراض النفسية العصابية، ولا يمكن تمييزها بشكل قاطع عن أي منهما. في المقام الثاني، يستخدم الإشباع الغريزي، الذي يتضمن الانحراف أو الإدمان حسب الحالة، من قبل الأنا بطريقة دفاعية للمحافظة على مراقبة مشتقات الدافع الأخرى التي يعتبر ظهورها وإشباعها خطراً جداً بالنسبة للأنا لا يمكنه السماح به. هذه التكوينات التوفيقية، من وجهة نظر الأنا،

هي أمثلة عن استخدام أحد مشتقات الدافع للمساعدة في السيطرة على الآخر، وبهذا المعنى فهي تشبه حيلة التكوين العكسي الدفاعية، التي ناقشناها في الفصل الرابع. سوف يلاحظ القارئ أن هذا يمثل تنقيحاً هاماً لما عرضه فرويد أصلاً من أن الانحراف الجنسي عكس العصاب، وهو ما أشرنا إليه سابقاً في هذا الفصل (Freud,1905b).

ليس هدفنا أن نناقش بالتفصيل أي تكوينات توفيقية وصراعات نفسية داخلية intrapsychic محددة تؤدي إلى تشكيلة الأعراض التي نشير إليها إكلينيكيا باعتبارها هستيريا، أو وساوس، أو رهاب، أو اكتئاب ثنائي، أو فصام، أو انحراف جنسي... وهلم جراً. لقد كان هدفنا بالأحرى منح القارئ بعض الفهم للصياغات النظرية الأساسية العامة المشتركة بين كل هذه التقسيمات الفرعية الإكلينيكية، أو التي قد تستعمل لغرض إجراء تمييز عام بينها في الجانب المرضي النفسي. وفوق كل ذلك، حاولنا أن نوضح حقيقة أنه لا يوجد تمييز واضح أو قاطع بين ما نعتبره سوياً وما نعتبره مرضياً في حقل الأداء الوظيفي العقلي. ما ندعوه سوياً وما ندعوه مرضياً يجب أن يفهم كنتيجة للفروق في الأداء الوظيفي للجهاز النفسي من فرد إلى فرد – فروق في الدرجة وليست في النوع.

قراءات إضافية

Freud, S., Introductory lectures on psychoanalysis, part 3. Standard edition, vol.,16,1963. Also in: Complete introductory lectures on psychoanalysis. New York:Norton,1966.

Deutsch, H., Psychoanalysis of the neuroses. New York: Anglo books,1952.

Fenichel, O., The psychoanalytic theory of the neuroses. New York,Norton:1945.

الفصل التاسع

الصراع النفسي والأداء العقلي السوي

Psychic conflict and normal mental functioning

في الفصل السابق ركزنا بشكل رئيسي على النتائج المرضية للصراع النفسي. في هذا الفصل سوف نركز على النهاية الأخرى للطيف النفسي وندرس مظاهر نمو الشخصية التي، رغم علاقتها الوثيقة بالصراع النفسي، إلا أنها تصنف سوية وليس شاذة.

لاحظنا فيما سبق بأن الفرق بين السوي والمرضي هو في الحقيقة فرق في الدرجة، وليس فرقاً في النوع. لذا فمن المستحيل، سوى على أسس عشوائية بحتة، التمييز بوضوح بين نتيجة صراع نفسي سوي وآخر شاذ. إن مدى السوي ومدى الشاذ يتداخل أحدهما مع الآخر كتداخل ألوان الطيف.

من الناحية الأخرى، توجد نتائج عدة للصراع النفسي السوي. إذ غالباً ما تتاح الفرصة لملاحظة مثل هذه الظواهر السوية أثناء التحليل النفسي للمريض العصابي. ففي مجرى التحليل قد يكتشف المرء بعضاً من جذور العقدة والمعنى اللاشعوري للظواهر السوية وهو ما يتعذر فعله لو لم يكن الشخص خاضعاً للتحليل. على أسس من هذه الخبرة التحليلية سوف نحاول في الفصل الحالي أن نوضح العلاقة بين الصراع العقلي وهذه المظاهر السوية من نمو الشخصية مثل سمات الشخصية، واختيار المهنة، واختيار شريك الحياة، الخ. كما نناقش أيضاً مظاهر أخرى من الحياة العقلية السوية التي ثبت علاقتها بالصراع النفسي، غير أن البيانات من التحليل النفسي الفردي أقل إقناعاً أو أقل وفرة، مثل قصص الجان، والخرافات، والأساطير، والدين، والفضيلة، الخ. وفي هذه الأمثلة الأخيرة سوف تعتمد استنتاجاتنا في جزء منها على الخبرة مع المرضى الأفراد أثناء التحليل، وفي جزء آخر على ما قد يقوله التحليل النفسي حول الطبيعة البشرية عموماً.

كان اهتمام التحليل النفسي بسمات الشخصية منذ البداية يتعلق بعلاقتها بالرغبات الغريزية في الطفولة. لقد أشار فرويد (a1908) إلى العلاقة بين تقلب الشبق الشرجي في الطفولة وبين النظام، والبخل، والعناد في الحياة فيما بعد، إضافة إلى العلاقة المشابهة بين الرغبات القضيبية الطفولية والطموح فيما بعد. وحذا محللون نفسانيون آخرون حذو فرويد في هذا الاتجاه، ونتيجة لذلك، ظهرت منظومة مصطلحات لأنماط الشخصية مشتقة من العلاقة الملاحظة غالباً بين سمات الشخصية والطور المخصوص من النمو الليبيدي، فيتحدث المحللون عن الشخصيات أو سمات الشخصية الفمية، والشرجية، والشخصية القضيبية. لقد أثبتت الخبرات الإكلينيكية مع كثير من المرضى انطباع فرويد الأساسي من أن سمات الشخصية المذكورة تشتق غالباً من الصراعات والرغبات الشرجية لمرحلة الطفولة المبكرة. وقد استخدم مصطلح ''شرجي'' لنفس السبب مع الأشخاص الذين يوصفون بأنهم فوضويون، وقذرون، ومهملون. كما تم وفقاً لنفس الأسس وصف الثقة بالنفس، والتفاؤل، والكرم، وأيضاً عكسها، كسمات شخصية فمية؛ بينما نعتت بالقضيبية سمات مثل الطموح، والحاجة للتقدير والاستحسان.

يعكس هذا التصنيف على أساس من الدوافع، وبالذات الدافع الليبيدي، التأكيد على المظهر الدافعي للحياة العقلية، الذي يميز المرحلة الأولى في تطور التحليل النفسي. لقد تطورت تدريجياً معرفتنا الكاملة عن تعقيدات المسار الذي يوصل من الرغبات الغريزية للطفولة، وما ينشأ عنها من صراعات، إلى السلوك والحياة العقلية للراشدين. وفي الأمثلة التالية حاولنا الإشارة إلى كل من المدى الذي يمكن أن يكون عليه تعقيد هذا المسار، وكيف

تساعد الخبرات الحياتية للفرد في تشكيل الناتج النهائي.

أول الأمثلة عن امرأة في منتصف العشرينات كان خلق الكرم والإحسان واضحاً جداً في نمط حياتها. لقد حضرت إلى التحليل بسبب أعراض عصابية حادة. وتبين أثناء تحليلها أن لإحسانها علاقة وثيقة جداً بصراعات طفولتها بنفس درجة علاقة أعراضها العصابية. غير أن تصنيفه باعتباره سمة لشخصية سوية كان صحيحاً، حيث كان مصدر استمتاع للمريضة، ومقبولاً اجتماعياً، وليس مؤذياً ذاتياً. والحقائق التالية مرتبطة بهذا الموضوع:

انفصلت المريضة في وقت مبكر جداً ،ولفترة طويلة من الزمن، عن والدتها. ومن الواضح جداً أن ظروف هذا الانفصال أدت إلى أن تكون علاقة المريضة بوالدتها، حتى حينما يكونان معاً، محبطة للمريضة وغير مرضية. فعلاقاتها المتناقضة بشكل حاد مع والدتها، والصراعات الناشئة بينهما، كانت ذات أهمية أساسية في كل مظهر من أعراض المريضة العصابية. إضافة إلى أنها المحددات الأساسية لعملها الخيري. فالمريضة وفي سن مبكرة جداً كانت المدافع عن أشقائها الصغار، رغم حرمانها وتعرضها لسلوك ومزاج أمها المتقلب. ورغم كونها أكبر بقليل من الآخرين – كلهم ولادتهم متقاربة – فقد كانت المناصر لهم، والمدافع عن حقوقهم، وحاميتهم من العقاب، وسلواهم في الضيق، كما لو كانت أمهم وليست أختهم. لقد تصرفت معهم كما ينبغي للأم الصالحة أن تفعل مع أبنائها. وفي مرحلة الرشد استمرت تعيش بنفس الدافع لمساعدة الضعفاء، والفقراء، والمهمشين في عالمنا. لقد كرست حياتها وبحماس لهذا العمل الخيري، الذي أعطته وبكل سخاء من وقتها، وجهدها، ومالها.

وقد اقترن كرمها تجاه المظلومين بالازدراء والبغض لظالميهم – وللمؤسسة the establishment المستغلة. وأولئك الذين ساعدتهم كانوا ،لا شعورياً، في نفس ظروفها وظروف إخوتها في طفولتهم. أما من كانت تكرههم فقد كانوا يشبهون ما كانت عليه أمها في طفولتهم. فبإظهارها للغضب ممن يظلمون الضعفاء، تحقق لها الثأر من أمها وهو ما كان ينبغي أن تفعله حينما كانت طفلة. وبإظهار كرمها للضعفاء وهبت، لا شعورياً لنفسها ولإخوتها، أماً مخلصة وجديرة بالثقة، بخلاف ما كانت عليه أمها في الواقع من أنانية. وهكذا، فحنين المريضة طوال حياتها لأم محبة تعتمد عليها، علاوة على كرهها ورغبتها في الانتقام، كانت محددات أساسية لنمط العمل الخيري الذي حاز على اهتمامها كامرأة راشدة. أما الأعمال الخيرية الأخرى فكان إغراؤها أقل بالنسبة إليها، وحينما تطوعت لها، فعلت ذلك بطريقة روتينية تتناقض بشكل واضح مع حماسها المتقد لمجالات نشاطها التطوعي المفضلة. هنا، إذن، مثال لسمة شخصية سوية نشأت من الإحباط والحاجات الغريزية لطفولة المريضة المبكرة.

المثال الثاني لمريض شاب عمره ثلاثون عاماً كان مرحاً، لطيفاً، عاقلاً، ومتعاوناً. ومثل المريضة الأولى، كانت لديه مصاعب عصابية عديدة في حياته. غير أنه في الجوانب المحددة التي ذكرت كان يتصرف بالشكل المثالي النمطي لما هو عليه في الواقع : حصيلة نتاج أسرة كريمة من أعلى الطبقة الوسطى، ذات أخلاق عالية، وخريج أفضل المدارس. يمكن القول بأن " السلوك المهذب" كان بالنسبة إليه طبيعياً مثل التنفس، ولولا ما ظهر أثناء التحليل، لكان المرء ميالاً إلى عزو سلوكه المهذب الطبيعي إلى كونه تعلم السلوك المهذب

منذ كان طفلاً. فضلاً عن ذلك، كان واضحاً، أن هذا الجانب من شخصيته، ووفقاً لأي تعريف، سمة شخصية سوية ومقبولة اجتماعياً. وبعيداً عما تسببه للمريض نفسه من ألم أو ضيق، فإن دماثته، وطيبة نفسه، وأسلوبه العفوي في الحياة ساعدته بشكل جيد للغاية. كانت تمر به لحظات من القلق أو التثبيط من وقت لآخر، كما يفعل أي شخص يتهدده الفشل أو الخطر، لكن هذه الانفعالات لا تستمر طويلاً. إذ أنه سريعاً ما يتبنى الاتجاه الحكيم من أن ما لا يمكن شفاؤه يجب تحمله what can't be cured must be endured، وأن المرء يكون أحسن حالاً إذا كان سعيداً مما لو كان مستاءً، وأنه إذا تابع المرء عمله وواظب على ما يفعله، فإن أموره سوف تنجح في النهاية. تستطيع القول إنه " آيسوب ثاني، a second Aesop." لكن، في الحقيقة، ليست موهبة الفلسفة، بل بالأحرى الواقع المروع لطفولته من عزز إلى هذا الحد الفضائل المألوفة في محيطه الثقافي حتى أصبحت بالنسبة له هامة، وجزءً ضرورياً من شخصيته.

عند عمر تسع سنوات أصبح المريض فجأة مهدداً باحتمال فقدان الشخص الذي كان بالنسبة له أكثر الأفراد البالغين في أسرته أهمية، لذلك كان مكتئباً بشكل حاد لمدة ثلاثة أيام. ثم، ولحسن الحظ، زال خطر الفقد. لكن ليس بشكل نهائي، فاحتمال التخلي عنه ظل دائماً حاضراً في ذهنه، وقد استجاب لذلك بطريقتين مختلفتين. الأولى، أن يضمن، من خلال سلوكه، أنه لن يحدث أبداً. الثانية، أن يُعِدَّ نفسه للوقت الذي سيحدث فيه ذلك لا محالة، كي لا يكون عاجزاً و مغلوباً حينما يحدث. المجموعة الأولى من ردود الفعل لها علاقة أساساً بما ينبغي فعله لصد الرغبات والسلوك ذي الجذور الغريزية. كان المريض، قبل

التهديد بالفقد، صبياً حاد المزاج مع نوبات غضب من حين لآخر. هذا لن يحدث بعد اليوم أبداً. منذ ذلك الوقت وحتى انتظامه في التحليل النفسي لم يتذكر سوى مناسبة واحدة فقط أحس فيها بغضب حقيقي. نشاطه الجنسي قُلِّص أيضاً، لكن ليس بشكل جذري. أصبح شاباً لطيفاً للغاية، ولم يعد يظهر زلات سلوكه العدواني والجنسي التي تسببت في التهديد بالهجر الذي مر به عندما كان عمره تسع سنوات. المجموعة الثانية من ردود الفعل تكونت بشكل أساسي من التوحد مع الشخص الراشد الذي يخشى فقده، فتحول إلى شخص يشبهه – مرح، وعاقل، وعملي، ومتفائل بطريقة لا جدال فيها. أصبح قادراً من خلال توحده على ''رعاية نفسه،'' وقد قام بذلك فعلاً حينما غادر فيما بعد، خلال المراهقة المبكرة، المنزل إلى المدرسة الداخلية. في هذه الحالة، كما في الحالة السابقة، كان واضحاً وجود رابطة قوية بين الصراع النفسي والصدمة في الطفولة وبين سمة الشخصية السوية في مرحلة الطفولة المتأخرة والبلوغ. فمزاج المريض الهادئ، وخصاله الحميدة، وتفاؤله المرح لم تكن فقط نتيجة لتنشئته. لقد كانت مدفوعة وبقوة بقناعته أن المزاج السيئ أو سوء التصرف سوف يؤديان إلى هجره مرة أخرى، كما كان الأمر عندما كان في عمر التاسعة. إضافة، إلى أنها كانت نتيجة لتوحده مع الشخص الراشد الذي أوشك على فقده في ذلك الوقت. بمعنى آخر، كانت هذه السمات السوية من الشخصية المتوافقة متصلة بشكل وثيق مع صراع وصدمة طفولة المريض، كما كان حال أعراضه العصابية. فدافعها جميعاً ينبع من نفس المصادر.

لاحظنا في الفصل الخامس أهمية ميكانيزم التوحد في تكوين الأنا الأعلى خلال

المرحلة الأوديبية. وسوف نعود إلى موضوع تكوين الأنا الأعلى فيما بعد في هذا الفصل. في الوقت الحالي نريد أن نؤكد على أنه ليس كل توحدات المرحلة الأوديبية مرتبطة بتكوين الأنا الأعلى. فبعضها، على سبيل المثال، يظهر كتعبير مقنع عن رغبات الطفل الجنسية والتنافسية. إنه لأمر شائع بالنسبة لصبي صغير أن تكون له رغبة شعورية في أن يكون مثل أبيه الذي يعجب به جداً ويحسده، وليس من النادر لمثل هذه الرغبة أن تستمر حتى البلوغ، إلى أن يصبح الابن صورة نفسية طبق الأصل عن أبيه. ونفس الشيء صحيح في العلاقة بين الأم والبنت. في مثل هذه الحالات قد يكون للوالد والطفل إيماءات وتعبيرات وجه متشابهة، ونفس طريقة المشي، والحديث، والضحك، ونفس سلوك الحماس أو التحفظ في الجماعة، الخ. وحقيقة الأمر، أن ما نحسبه تشابهاً في الجسم بين الوالد وأبنائه، هو أحياناً ليس تشابهاً جسمياً مطلقاً، بل سلوكياً. إنه نتيجة، ليس لوراثة الصفات الجسمانية، ولكن للسمات المحددة نفسياً، أي، للتوحدات اللاشعورية التي نشأت أثناء الطفولة، غالباً كتعبير عن رغبة الطفل في أن يكون الوالد الذي توحد معه بهذه الطرق المتنوعة.

إن إعجاب وحسد الأطفال ليس موجهاً حصرياً نحو والديهم، رغم أنه كما نعرف، هؤلاء هم هدفهم الرئيسي. فهم لديهم مشاعر متشابهة، حادة جداً في الغالب، تجاه الأشقاء – مشاعر قد تلعب دوراً هاماً في حياة الطفل الغريزية ،وفي الصراعات وتكوينات الحل التوفيقي التي تنشأ تبعاً لذلك. هذه كانت حالة المرأة الشابة التي كان لديها هواية وولع كبير بالموسيقى. كانت تستمتع بالاستماع إلى الموسيقى، ولديها ثقافة موسيقية راقية بالنسبة لشخص هاوٍ، وقد درست آلة الكمنجة لعدة سنوات، وهي آلة استمتعت بعزفها، دون أن

تصل مطلقاً إلى مستوى البراعة الفائقة. في كل هذا لم تكن تحاكي أمها، بل أختها الكبرى، التي كانت موسيقية محترفة وبارعة. كان والدهما يثمن عالياً جداً الإنجازات والقدرات الموسيقية لابنته الكبرى. وقد بدا للمريضة منذ الطفولة أن أختها كانت المفضلة عند والدهم بسبب موهبتها الموسيقية، وقد درست هي نفسها الموسيقى تقليداً لأختها، على أمل منافستها في حبه. التطور التالي للاهتمام الموسيقي لهذه المريضة كان عادياً. كانت الموسيقى جزءاً ممتعاً في حياتها، كما هي بالنسبة لجميع محبي الموسيقى. غير أنه لا يوجد شك في أن اهتمام المريضة بالموسيقى نشأ عن عقدتها الأوديبية، مثلاً، من تنافسها أثناء الطفولة مع أختها على حب أبيها. إضافة إلى أنه كان من الممكن الملاحظة أثناء تحليل المريضة أنه حتى في حياتها في مرحلة الرشد مازالت نشاطاتها الموسيقية ذات دلالة أوديبية لاشعورية. ففي إحدى المناسبات، على سبيل المثال، روت حلماً كانت تعزف فيه مع فرقة موسيقية. أدت مستدعيات الحلم إلى ذكريات عن عازف كانت تحبه منذ سنوات خلت، وقد استمعت إليه حديثاً، بعد أن أصبح قائداً لفرقة موسيقية معروفة. لم يكن، كما قالت، يشبه أباها مطلقاً سواء في العمر أو المظهر الجسماني، غير أنه كان يذكرها به دائماً. ربما لأنه كان يستعمل نفس النوع من عطر الحلاقة. وهكذا، يتضح من تداعياتها، أولاً، أن المحتوى الكامن لحلمها كان رغبة أوديبية لاتحاد جنسي مع أبيها؛ وثانياً، أن هذه الرغبة عُبِّر عنها بشكل مُقنَّع بواسطة خيال (حلم) ''عزف الموسيقى ''making music مع رجل أحبته ''منذ زمن بعيد.'' فالموسيقى ما تزال تحتفظ، لا شعورياً، بالنسبة لها بدلالتها الأوديبية الأصلية.

يستطيع المرء ملاحظة نفس العلاقة تقريباً بين الحياة الغريزية للطفولة وهذه المظاهر

السوية من الحياة في مرحلة الرشد كاختيار المهنة واختيار شريك الحياة. من الصعب إعطاء أمثلة مقبولة من واقع الممارسة فيما يتعلق باختيار المهنة بسبب محاذير الخطأ المهني the risk of professional indiscretion، مع ذلك ،قد تكفي حتى الأمثلة المختزلة والمخفية في أن تنقل إلى القارئ على الأقل بعض الشعور بالقناعة فيما يتعلق بصحة المزاعم التي نحاول توضيحها.

أخصائي ولادة عمره أربعون عاماً، والأكبر بين ستة أشقاء. ولد جميع إخوته وأخواته، مثله تماماً، في بيت مزرعة حيث قضى المريض فترة طفولته. كل ولادة كانت حدثاً هاماً، كان المريض فضولياً نحوه بشكل كبير، غير أنه لم يُسمح له مطلقاً بمشاهدته، رغم أن مشاهدة ولادة الحيوانات كان خبرة معتادة له منذ سنواته المبكرة. كان الفضول الجنسي في طفولته عاملاً هاماً في تحديد مهنة حياة هذا المريض. وقد أدى هذا الاختيار المهني، إضافة إلى إشباع فضوله، أغراضاً أخرى لاشعورية. فمن الناحية الأولى، أشبع رغبته في التفوق على أبيه، الذي كان دائماً مجاملاً وخاضعاً للطبيب الذي تولى العناية بوالدة المريض أثناء ولاداتها المتكررة. الناحية الأخرى، عزز من دفاعات المريض ضد الغضب الذي شعر به مع كل حمل تجاه أمه وتجاه المولود الجديد. كأخصائي ولادة كان عطوفاً ولطيفاً مع الأمهات والمواليد، ويشعر بالمقابل بالذنب كما كان في طفولته. أخيراً، كأخصائي ولادة، كان يشعر مع ولادة كل طفل جديد بالكفاءة والثقة في النفس، بدل التفاهة والعجز، كما كان شعوره حينما كان طفلاً.

طبيب آخر، في منتصف الثلاثينات، انفصل عن أمه لعدة أسابيع حينما كان في الرابعة من عمره ،لأنها كانت بالمستشفى لإجراء عملية جراحية. من بين التأثيرات الأساسية

على حياة المريض التي نجمت عن خبرته كان قراره لأن يصبح طبيباً – طبيب جراح "يقطعهم" كما كان فيما بعد يخبر أي شخص يسأله عما يريد أن يكون حينما يكبر. كان التناقض تجاه أمه واضحاً وتم التأكد منه أثناء تحليله النفسي خلال السنوات الأخيرة. كي يكون جراحاً يعني، من جانب، أنه سيكون مع أمه وليس مفصولاً عنها، يشفيها، ويكون بطلها. ويعني، في نفس الوقت، إيذاءها ومعاقبتها على خيانتها.

المريض الثالث، حضر للتحليل في أواخر العشرين من عمره، وكان يعمل مفوضاً عمالياً. وكما هو الحال مع المريض الذي ذكرناه سابقاً، فإن الصدمة الكبرى في طفولة هذا المريض كانت انفصاله القسري عن أمه في وقت مبكر. لقد أُرسِل إلى مدرسة داخلية حينما كان عمره ست سنوات فقط. والسبب المزعوم لهذا النفي كان مشاحنات الأبوين وانفصالهم. لقد عاني المريض فيما بعد من مصاعب عصابية عديدة في حياته، غير أنه كان ناجحاً بشكل واضح كمفاوض عمل. فقد كان لا يكل في جهوده لحل الخلافات بين طرفي أي نزاع عمالي يتدخل فيه، وكان عادة ناجحاً في تجنب تفجر النزاع المفتوح بين الطرفين. كان على قناعة بأنه لا يوجد خلاف بين طرفين حول مسألة ما لا يمكن حله بشكل مرض ،إذا ما وافق الطرفان على الجلوس إلى الطاولة والحديث كل منهما للآخر. في هذه الحالة كان انفصال المريض عن أبويه باعثاً على رغبة شديدة لديه لأن يوقفوا الشجار، ويجتمع شملهم من جديد، كي يتسنى له أن يكون معهم مرة أخرى، خاصة مع أمه. لقد عمل المريض طوال حياته كلها من أجل أن يبقي الناس معاً ولا ينفصلون، كما فعل أبويه، وأن لا يتشرد العمال كما حدث معه حينما كان في سن السادسة. مرة أخرى، أدت صدمة الطفولة لا شعورياً إلى خيار مهني مفيد في

حياة الرشد.

حينما يلتفت المرء إلى النظر في العلاقة بين الحياة الغريزية للطفولة واختيار شريك الحياة الزوجية فيما بعد، فإنه يواجه بجملة عوائق. فالعلاقات بين الاثنين متنوعة وخصوصية جداً لدرجة أن الصعوبة الرئيسية تكمن في منح مؤشر ما على هذا التعقيد. إثبات مجرد وجودها هو بالكاد ضروري. وهذا لا يجب أن يكون مثيراً للاستغراب. فعلى المرء أن يتذكر فقط أنه بالنسبة لكل فرد فالمواضيع الجنسية الأولى هي تلك التي تعود إلى الطفولة. وكل المواضيع الجنسية التالية إصدارات متأخرة عن مواضيع الطفولة. وهذا ينطبق على كل من الأفراد الأسوياء والعصابيين على حد سواء. ولعل مثالاً أو مثالين يكفيان لتوضيح ما يمكن تدعيمه بشكل واسع حتى من خلال الملاحظة السطحية.

أحب شاب امرأة وتزوجها، وقد كانت كما لاحظ وقتها تشبهه في الصفات الجسمانية مثل المظهر، والطول، وملامح الوجه. مع ذلك، لم تكن لديه أدنى فكرة عن أن هذا الشبه الجسماني كان أحد أسباب جاذبيتها له. ولم ينتبه إلا مؤخراً، أثناء التحليل النفسي، إلى أن كونهما يشبهان أخاً وأختاً، كانت فكرة مثيرة جنسياً له لا شعورياً. فمن الناحية اللاشعورية، كانت تمثل بالنسبة له أختاً ارتبط بها بشكل وثيق أثناء الطفولة. فعندما كان طفلاً تخيل أن يتزوج أخته وأن يكون أباً لطفلها. وعندما أصبح رجلاً، عاش هذا الخيال لا شعورياً مع المرأة التي بدت كما لو كانت أخته. ومن المثير للاهتمام ملاحظة، أنه خلال الأشهر العديدة الأولى من تحليله كان يشير لزوجته باسم أخته، وهو خطأ لم ينتبه إليه مطلقاً إلى أن نبهه إليه المحلل النفساني. وهو مثال عن أحد النتائج المثيرة للدهشة لخياله اللاشعوري من أن زوجته كانت

أخته.

اختيار شريك الحياة لإحدى المريضات الأخريات تأثر بشكل أكثر تعقيداً بعلاقتها بأختها الكبرى أثناء الطفولة. ففي طفولتهما، كان رفيقهما في اللعب صبياً صغيراً يسكن بجوارهما. وكان هذا الصبي وشقيقة المريضة كل منهما متعلق بالآخر، لدرجة أنه كان يقال أنهما سوف يتزوجان حينما يبلغان سن الرشد. شعرت المريضة بأنها أبعدت من قبل رفيقيها في اللعب وكانت تغار منهم، تماماً كان الحال في علاقتها بأبويها. لم تعد الأختان في أواخر طفولتهما على اتصال بجارهما السابق، حيث انتقلت العائلتان إلى منطقتين مختلفتين. وبعد سنوات، حينما كانت المريضة في مراهقتها المتأخرة، شاءت الظروف أن يلتئم شمل الثلاثة من جديد. وهذه المرة بذلت المريضة جهدها في التأثير على الشاب حتى يفضلها على أختها التي كانت بعيدة تدرس بإحدى الجامعات. لقد نجحت في تحقيق هدفها، غير أنها رفضت محاولات غزله، مفضلة أن يكونوا "أصدقاء مخلصين" بعدها أحبت شاباً كان مخطوباً لفتاة أخرى وتزوجته. وهذا الشاب الآخر كان صديقاً مقرباً للشاب الأول، الذي انتزعته من أختها. وهكذا، فإن المريضة في حياة الرشد، حققت بنجاح في حياتها العاطفية ما رغبت فيه حينما كانت طفلة صغيرة ؛ أن تكون امرأة ناجحة وليست فاشلة في المثلث العائلي. في خلال ذلك انتقمت من الرجل الذي كان في طفولتها يفضل أختها الكبرى عليها؛ لقد تخلت عنه من أجل رجل آخر. كان انتصارها اللاشعوري كاملاً على كل من أختها ورفيقها السابق في اللعب.

يُصدَم المرء ،عند مراجعة هذه الأمثلة، بالتأثير القوي طويل الأمد الذي تمارسه

الرغبات الغريزية في الطفولة على الحياة العقلية. إن في إمكانها تحديد اختيار المهنة، والهواية، ومجرى الحياة الجنسية للشخص البالغ، والمسلك المميز والخارج عن المألوف ...الخ. ومن الصواب القول، بالنسبة لكثير من الأمثلة، أن هذه التأثيرات لا تنتج مباشرة من الصراعات والرغبات الغريزية نفسها، بل بالأحرى، من الخيالات النابعة منها. وهكذا عاشت المريضة الأخيرة خيال كونها المفضلة جنسياً عن أختها الكبرى - يمكن القول، خيال سندريلا. والشاب الذي ظهر وكأنه يشبه أخ زوجته عاش أيضاً خيالاً طفولياً. كذلك فعل أخصائي الولادة، والجراح، والمفاوض العمالي. ففي كل حالة نشأ خيال من الرغبات الغريزية، وأصبح الخوف المرتبط بها قوة دافعة رئيسية في حياة المريض، رغم أنها لا شعورية.

الأمثلة التي أعطيت حتى الآن هي من واقع الممارسة الإكلينيكية. وفي كل مثال أمكن استخدام أسلوب التحليل النفسي. وفي كل مثال، تعاون المريض للكشف بشكل كامل وبحرية، قدر ما يستطيع، عن أفكاره ومستدعياته، وتفاصيل حياته الماضية والحاضرة، حتى التفاصيل الخاصة جداً والباعثة على الضيق، التي لا يمكن إفشاؤها. والنتيجة توفر درجة عالية من الثبات للاستنتاج الذي طرح فيما يتعلق بالعلاقة بين الصراع النفسي، اللاشعوري في الغالب، المتجذر في الطفولة من جانب، والسلوك والرغبات والأفكار الشعورية لحياة الشخص الراشد من جانب آخر. في غالب المناقشة التالية سوف نعرض استنتاجات مشابهة، لكنها سوف تكون استنتاجات لا تستند بالكامل على بيانات اشتقت من استخدام أسلوب التحليل النفسي في تحليلات علاجية فردية. سوف نأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار بحصر أنفسنا غالباً في الصياغات التي تبدو مضمونة من خلال البيانات المتوفرة،

وبالإشارة من حين لآخر إلى طبيعة الصعوبات التي تنشأ حينما لا تتوفر للفرد إمكانية الوصول إلى البيانات التي يمكن فقط لأسلوب التحليل النفسي أن يوفرها.

من بين نتائج الخيالات الغريزية للطفولة أحلام اليقظة، والقصص من كل نوع؛ القصص الخيالية، والخرافات، والأساطير، والإنتاج الأدبي من كل مستويات التعقيد والتميز. وأول ما يبعث، عادة، على اهتمام الطفل هو قصص الخيال والروايات المشابهة. وتوحي شعبيتها الدائمة أنها تعالج موضوعات تحظى بقبول عالمي تقريباً لدى الأطفال الصغار، وهي في الواقع كذلك. إنها تتعامل بطريقة مباشرة جداً مع موضوعات الحياة الغريزية للطفولة، وبشكل خاص مع موضوعات المرحلة الأوديبية. ففي كل قصة خيالية تقريباً يوجد بطل صغير ينتصر على مجرم شرير ويقتله، ثم يتزوج فتاة جميلة، ويعيشان بعدها في سعادة إلى الأبد. ولكل قصة تفاصيلها الخاصة، غير أن النمط العام يبقى كما هو. وكل شكل له جاذبيته الخاصة بالنسبة لكل طفل على حدة. فقصة ساندريلا، على سبيل المثال، تروق بشكل خاص للشقيقات الأصغر. ففي قصة ساندريلا تتزوج الأخت الصغرى المحتقرة من الأمير، وتصبح ملكة، وتنتقم من أمها البشعة وأخواتها الأكبر سناً. من الممكن الملاحظة عند هذه النقطة أن مشكلة الذنب حول الرغبات الأوديبية يتم معالجتها دائماً في القصص الخيالية. وحيث أن هذه قصص للأطفال الصغار، وللراشدين السذج الذين يشبهون الأطفال، فإن هذه الأساليب الأدبية البسيطة تكفي لتحرير المستمعين من شعور الضمير بالذنب. فالبطل دائما طيب، وغالباً ما تساء معاملته، مثل ساندريلا؛ بينما المنافس دائماً شخص خبيث، وشرير، وحقير يستحق مصيره السيئ. إضافة إلى أنه كما في النسخ المتعددة لقصة ساندريلا، فإن من هزمتهم ليسوا

أمها وأخواتها الحقيقيات، وإنما زوجة أبيها، وأقاربها من أبيها، ممن لا يفترض بها أن تحبهم على أي حال.

القصة الخيالية الأخرى، المحبوبة جداً ،هي جاك وشجرة الفاصوليا، أو كما تدعى بدلاً عن ذلك جاك قاتل المارد. في قصة ساندريلا، تحظى قصص الحب والزواج بالاهتمام الأساسي. أما في قصة جاك فالتركيز على قتل الأب والأم، والخصاء، مع الإخفاء الكافي حتى تكون القصة مثيرة وممتعة للطفل، وليست باعثة على الخوف. فالمارد في القصة، الذي استولى على جاك على ممتلكاته السحرية ثم قتله، ليس والد جاك، بل آكل لحوم بشر وضيع، كان من الممكن أن يأكل جاك لو لم تنقذه المرأة البلهاء. وفي بعض نسخ القصة فإن المارد بنفسه قتل والد جاك الحقيقي، ولذلك جاك منتقم جدير بالثناء، وليس قاتلاً لأبيه، والممتلكات السحرية تعود أصلاً لوالد جاك، وإذن فجاك له الحق تماماً في سرقتها واستعادتها من المارد الشرير المرعب، الذي هو اللص الحقيقي والمجرم الحقيقي.

وهكذا ننتقل من قصة خيالية إلى أخرى. شخصيات الرواية دائماً هي البطل وأبوه، وأمه، وإخوته، وأخواته. والبطل وأصدقاؤه دائماً طيبون، بينما منافسوه دائماً أشرار. ودائماً النهاية ''سعيدة''، على سبيل المثال، انتصار البطل، وموت منافسه، وزواج البطل بحبيبته، مع تعاهدهم على أن ينجبوا أكثر عدد من الأطفال، و ''يقضوا باقي حياتهم في سعادة إلى الأبد'' إنها آسرة بشكل لا يوصف بالنسبة للأطفال؛ وليست بذات أهمية، كأدب، عند الكبار. ومع ذلك، عندما يقرؤها الكبار، فليس ذلك بسبب قيمتها الحقيقية كأدب أو تسلية، وإنما لما تتيحه من استبصار بعقل الطفل، من حيث رغباته، وآماله، وعواطفه، وطموحاته

ومخاوف؛ عندها تكون قراءة القصة الخيالية جد مثيرة للاهتمام فعلاً. إنها تزود القارئ بصيغة مفيدة للوصول إلى العديد من مظاهر الحياة العقلية الغريزية للطفولة، ومن ثم، الحياة العقلية اللاشعورية فيما بعد.

تنبع الخرافات والأساطير من نفس مصدر القصص الخيالية. صحيح أن غرضها مختلف في بعض الجوانب الأساسية، فهي للراشدين وليست للأطفال. لذلك، فهي من الناحية النفسية أكثر تعقيداً. إنها أكثر واقعية من حيث أنها تعكس بأكثر مما تفعله القصص الخيالية وجهة نظر الراشد حول تعقيد بيئة الإنسان ،وقصوره النسبي في مواجهتها. إنها أيضاً أكثر واقعية، بمعنى أنها محاولة لتفسير أصل بيئة الإنسان، وطبيعتها، وطريقتها في العمل. إنها ليست مقصودة للتسلية الساذجة، مثل القصص الخيالية، بل محاولات جادة في علم الكونيات ولذلك تعتبر الإرهاصات للنظريات العلمية. ومع ذلك، فإنها كالقصص الخيالية مشتقة أساساً من الحياة الغريزية للطفولة : من عواطفها، ومن صراعاتها ومخاوفها.

على سبيل المثال، تصور النسخة الهومرية[1] من الأساطير الإغريقية، التي كانت رائجة بعد سنة 1000 ق. م، الآلهة كعائلة كبيرة تعيش في قصر على قمة جبل، مع الأب زيوس، والأم هيرا، والعديد من الأطفال. الغيرة، وغشيان المحارم، والقتال، والتآمر كانت شائعة عند هوميروس كما هي في الخيال الأوديبي لأي طفل، غير أن القتل مستحيل، لأن كل الآلهة خالدون. وبما أن زيوس الأقوى فهو دائماً المنتصر أو الحكم النهائي. والأسطورة الهومرية تمنع قتل الأب، فهي لا تنتهي أبداً بمأساة للأب.

[1] نسبة إلى الشاعر الأغريقي هوميروس (المترجم)

ومع ذلك، ففي أساطير أخرى، بما فيها كثير من الأساطير الإغريقية، يكون التعبير عن قتل الأب مباشراً. فالإله الأب يلقى نفس المصير الذي لقيه المارد في القصة الخرافية لجاك قاتل المارد. إنه يُقتَل، ويُخصَى، وغالباً يؤكل من قبل أبنائه، وبمساعدة الأم في كثير من الأحيان، ويستولي الأبناء على سلطته، ليُقضَى عليهم في نهاية الأمر من قبل ذريتهم. وكما في قصة أوديب نفسه، كما رواها يوريبيدس Euripides حوالي العام 500 ق.م، قتل البطل الشاب والده بشكل غير متعمد، وتزوج أمه، وأخيراً فقأ عينيه كعقاب على جريمته الرهيبة، رغم أنها غير متعمدة. تعبر قصة أوديب عن موضوعات غشيان المحارم، وقتل الأب، والخصاء، والندم بشكل مباشر للغاية لدرجة قادت فرويد إلى نحت عبارات ''عقدة أوديب'' و ''الطور الأوديبي'' في مرحلة النمو.

إذا تحولنا من الأساطير الإغريقية الكلاسيكية إلى الأساطير اليهودية- المسيحية، نجد نفس العلاقة بالحياة الغريزية للطفولة موجودة فيها، كما هي موجودة فيما سبقها. البطل الرئيسي في العهد القديم هو موسى، صاحب الشريعة، على سبيل المثال، الممثل لإرادة الله على الأرض. موسى، الذي نشأ كأمير مصري، تمرد على الملك المصري، وهزمه، وأصبح ملكاً له شعبه ومملكته الخاصة. وكما رأينا، ينشأ هذا الموضوع من التمرد وقتل الأب عن المنافسة، والحقد، والحسد التي يشعر بها الأولاد تجاه أبويهم أثناء الطور الأوديبي من النمو. ولكن، كما لاحظنا في الفصل الخامس، فإن اتجاه الطفل نحو والديه خلال المرحلة الأوديبية يكون متناقضاً. إنه خليط من الحب والكره لكل واحد من الأبوين، بغض النظر عن التفاوت في نسبة كل انفعال. في قصة موسى، فإن مشاعر حب الصبي الصغير لوالده، وتشوقه لوالده كي

يحبه، كانت جلية جداً في علاقة موسى مع أبيه السماوي. لقد وُصِف موسى كخادم مطيع لله، ومُنزِل للعقوبة على من يتمردون عليه بعبادة آلهة أخرى. باختصار، توحد موسى بشكل تام مع الله وأذعن له.

هذا الاتجاه نحو الله أصبح جزءاً متمماً في التراث الديني الغربي لدرجة التسليم به من قبل أي شخص نشأ في تلك التعاليم. ومع ذلك ،فالحقيقة، أنه ليس مظهراً عالمياً على الإطلاق للأساطير الدينية عموماً. حتى في قصة موسى، هناك تلميح لعصيان الله، بعض العصيان البسيط الذي عوقب عليه موسى بالحرمان من دخول أرض كنعان الموعودة. وعلى كل، صور موسى كخادم مطيع وقريب إلى الله، ويفترض أن يكون تمرده ضد أب أدنى وهو فرعون.

في قصة المسيح، صورت أيضاً عناصر العلاقة المتناقضة بين الأب والابن بطريقة معقدة ومقَنَّعة. وكما في قصة موسى، كان التأكيد الأساسي الظاهر على حب الابن للأب وخضوعه لرغباته. لقد صور المسيح ووالده، الله، وكأنهما متوحدان بشكل قريب جداً لدرجة أنهما فعلاً شيء واحد. البطل لا يتمرد مطلقاً. على العكس، إنه مطيع جداً لإرادة والده لدرجة يسمح لوالده بأن يأمر بقتله، حيث بعدها المسيح والله، الابن والأب، يتحدان بالحب إلى الأبد. موضوعات قتل الأب وغشيان المحارم تظهر في القصة، لكن فقط بشكل سطحي، إذا جاز التعبير. إنها لم تنسب إلى البطل كرغبات ودوافع خاصة به. على العكس، إنهم الأشرار، اليهود والرومان، الذين صلبوا الإله الصغير المسيح. إنهم من ارتكب جريمة قتل الأب، وليس البطل، الذي كان نفسه ضحية لهم. أما فيما يخص غشيان المحارم، فقد تم التلميح لها

فقط من خلال فكرة أن البطل، المسيح، قُتِل بسبب الخطيئة الأصلية للإنسان، الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء بعلاقتهما الجنسية مع بعض في جنة عدن، رغم التحريم الصريح من خالقهم[1].

مناقشتنا للأساطير الدينية أوصلتنا إلى عموم موضوع الدين. لا يوجد تقريباً جانب من الحياة الاجتماعية أكثر شأناً من الناحية النفسية للدين. على الأخص، يستطيع المرء أن يلاحظ وبسهولة علاقاته مع تلك الجوانب من الأداء العقلي التي هي اهتمامنا الخاص هنا – الصراعات والدوافع اللاشعورية المستمدة من الحياة الغريزية للطفولة.

أسرة الطفل الصغير – والداه وأشقاؤه – هم أساساً كل عالمه. نزوات الطفل الجنسية والعدوانية تجاه أعضاء أسرته تسبب الرغبات والصراعات التي تميز الحياة العقلية للطفولة؛ الحب العميق، والغيرة العنيفة، والغضب، والفزع، والندم، والجهود الملحة للسيطرة على نزواته المرعبة، وتهدئة واسترضاء والديه، الذين يراهم ذوي معرفة مطلقة وسلطة غير محدودة. الدين يصنع من العالم كله نسخة جديدة من أسرة الطفل الصغير، أسرة يكون المؤمن فيها الطفل، ويكون الآلهة والقساوسة الوالدين. ومثل والديه، سوف يخبرونه كيف يجب أن يتصرف، وماذا يجب أولا يجب عليه أن يرغب، وسوف يجيبون عن أسئلته عن العالم، خاصة حول بداية العالم، التي يريد كل شخص راشد معرفتها، تماماً كما يريد كل طفل صغير معرفة كيف بدأ عالمه الصغير، مثلاً، كيف خُلِق، ومن أين جاء هو والأطفال الآخرون. وكما لاحظ فرويد (1933)، يؤدي الدين

[1] لا حاجة إلى التأكيد مرة أخرى بأن الأمانة العلمية تقتضي الترجمة الأمينة للنص، وهذا لا يعني مطلقاً أن المترجم يوافق المؤلف على رأيه. (المترجم).

وظيفة ثلاثية للمؤمنين به. إنه يوفر لهم معرفة عن الكون، ومجموعة من قواعد السلوك، ونسق من المكافآت والعقوبات، وهي نفس الوظائف التي يتولاها الأبوان في مرحلة الطفولة.

وكما يتوقع المرء، فعلاقة المؤمن بالإله تحمل بصمة أصلها، لأنها من الناحية النفسية تشبه في كثير من جوانبها العلاقة بين الطفل والوالد. ويستطيع المرء أن يلاحظ نفس التناقض، ونفس الخليط من الحب والكره، والخضوع والتمرد، ونفس مزيج العناصر الحسية، رغم كل الجهد لحذفها. هذه المظاهر من المشاعر والمعتقد الديني ظاهرة على المستوى الفردي، إذا جاز التعبير، عند أي مريض تحت التحليل النفسي يلعب الدين بالنسبة إليه دوراً نفسياً هاماً. إضافة إلى كونها مدركة discernible في شكلها المؤسسي institutionalized form في الطقوس الدينية نفسها. على المرء فقط أن ينظر إلى الطقوس ببساطة، كما يفعل الطفل، وأن يأخذ فحسب الكلمات والتصرفات التي تكون الشعائر حرفياً، وليس مجازياً، كي يدرك علاقتها اللاشعورية بمخاوف ورغبات الطفولة.

يمكن أن نتأمل، كمثال على ذلك، الطقوس المرتبطة بالقداس وتناول العشاء الرباني، التي مورست كعناصر أساسية في الشعائر الدينية بواسطة الغالبية المسيحية لحوالي 1500 عام. فمتناولو العشاء الرباني يتم إخبارهم أن الخبز والخمر تحولا إلى لحم ودم الإله، وأنهم مدعوون لتناولهما بالأكل والشرب. لا يمكن للمرء أن يتصور تعبيراً أكثر صراحة ووضوحاً من هذا عن الرغبة في قتل الأب. وبدون ريب، فالاتجاهات العاطفية من التمرد ضد الأب والانتصار عليه قد تم إنكارها صراحة. هذا ليس تمرداً، إنه طاعة لأمر الرب. إنه ليس نصراً، هذا يتلو الاعتراف بالذنب، والكفارة والصوم، ويعد شعورياً كطريقة للتحول أخلاقياً إلى الخير، مثل

الإله، عن طريق تناول لحمه المقدس ودمه. مع ذلك، فالكلمات واضحة جداً: هاك لحم أبيك ودمه؛ أنتم، يا أطفاله، سوف تأكلون واحداً وتشربون الآخر. في نفس الوقت، يقوم الطقس الديني بدور المذَكِّر بخضوع المسيح للموت والصلب كي يفوز بحب أبيه. فعبارات طقس التناول تذكر المتناول بموت المسيح على الصليب، الذي يمجد كنموذج للخضوع لإرادة الرب، أب جميع البشر. ومن تناولوا القربان المقدس يتم إخبارهم بأنهم، أيضاً، عليهم الخضوع باختيارهم لأي مصير يحدث لهم، لأنه مهما يكن، فهي إرادة أبيهم، وينبغي عليهم التسليم لإرادته بإخلاص، تماماً كما فعل المسيح، حتى ولو كانت تعني لهم المعاناة، والتمثيل بالجسد، والموت. إذا امتثلوا كما فعل المسيح، فإن الله سوف يحبهم ويختارهم، كما اختار المسيح، ليعيشوا معه في الجنة إلى الأبد. يحمل هذا الاعتقاد الديني شبهاً ظاهراً مع التخيلات التي نعرف ،من ممارسة التحليل النفسي، أنها منتشرة بين الأولاد في المرحلة الأوديبية من النمو. فالصبي الأوديبي غالباً ما يتخيل أنه بنت، والتي تعني له الخصاء، وأن يُمثَّل به بدنياً، كطريقة للفوز بعفو والده وحبه ومشاركته في سلطته. ومعتقد الشخص الراشد القريب من ذلك، والمستقر في التعاليم والممارسة الدينية، يعد بحب إلهي أبوي لكل من سيكون في مثل خضوع الابن، المسيح، الذي مثل به.

المقصود بهذه الأمثلة هو توضيح ما يمكن إثباته فقط بالدراسة monograph، وهو أنه مهما كان يبدو من اختلاف لدين المرء عن الأديان الأخرى، فهي جميعاً متشابهة في جانب واحد رئيسي. إنها جميعاً تعكس بطرق متنوعة حقيقة اشتقاقها من صراعات الطفولة المبكرة حول غشيان المحارم، وقتل الأب، وحول الحب، والغيرة، والكره، وحول الرغبات الجنسية المثلية

والمغايرة heterosexual، وحول مخاوف الخصاء، وحسد القضيب، والندم ومعاقبة الذات. فالمؤمنون في كل دين هم لاشعورياً أطفال، آلهتهم ورجال دينهم آباؤهم - آباء يحبونهم ويكرهونهم، ويخافونهم ويستخفون بهم، ويطيعونهم ويتحدونهم، ويعبدونهم ويحطمونهم. إن تاريخ كل جماعة اجتماعية يحدد مظاهر عديدة من ممارساتها ومعتقداتها الدينية. وهذا شيء أثبته المؤرخون وعلماء الاجتماع بشكل متكرر دون معرفة باكتشافات التحليل النفسي. ما يمكن للتحليل النفسي إضافته هو أنه، بغض النظر عن تاريخ الجماعة، وبغض النظر عما إذا كانت أساساً زراعية، أو جماعة التقاط، أو مستقرة أو متنقلة، أو جماعة محاربة أو مسالمة، فإن الدين في كل جماعة يتعامل مع الصراعات اللاشعورية النابعة من المخاوف والرغبات الغريزية للطفولة المبكرة.

قبل أن نغادر موضوع الدين يجب أن نقول على الأقل بعض الكلمات حول الأخلاق. كما لاحظنا سابقاً، يتضمن كل دين مدونة أخلاقية، مثلاً، نسقاً من المكافآت على الخضوع للسلوك المفروض، وعقوبات على المخالفة. في كل دين هناك واجبات ومحرمات. كيف تتصل هذه المحظورات والمواعظ الاجتماعية بالمحظورات والنصائح لكل فرد، وللأنا الأعلى لكل فرد، الذي وصفنا تشكله وعمليته في الفصل الخامس ؟.

في معظم المجتمعات الحالية المنظمة، تصور الأخلاق على أنها نتيجة محمودة للإيمان الديني. في التعاليم المسيحية، على سبيل المثال، يكون النقاش على النحو التالي: إذا تم تعليم الطفل خوف الله ومحبته، وأن يتوحد مع المسيح على الصليب، عندها سوف يطيع القوانين الأخلاقية التي سنها الله وينشأ إنساناً صالحاً. بمعنى آخر، تُعزى للإيمان الديني القدرة على

جعل الناس خيِّرين أخلاقياً. وحسب معرفتنا، هذا هو المعتقد في كل مجتمع، بالذات في كل مجتمع متحضر. مع ذلك، و رغم القبول الواسع لهذا الاعتقاد، فإن البيانات المستمدة من تطبيق أسلوب التحليل النفسي، مثل التحليل النفسي العلاجي، تشير بوضوح إلى أن هذا غير صحيح. في الواقع، الأخلاق الفردية – تكوين الأنا الأعلى الفردي – يأتي أولاً. إنه سابق على التربية الدينية، وليس نتيجة لها. فالحس الأخلاقي للفرد يتشكل أساساً من صراعات الحياة الغريزية في الطفولة المبكرة، وعلى الخصوص في المرحلة الأوديبية، ويحمل طابع هذه الصراعات بغض النظر عما قد يحدث فيما بعد. إنه يستمر هكذا خلال مراحل الحياة التالية، رغم كونه لاشعورياً إلى حد كبير. إنها لحقيقة غريبة ،ولكنها صحيحة، أن المرء لا يعرف كل مدونته الأخلاقية الخاصة، ليس حتى الأجزاء الهامة منها. يشعر المرء غالباً بالذنب حول أعمال يعتقد بوعي أنها خيِّرة أخلاقياً، أعمال يستحسنها و يقرها المجتمع. ويفعل المرء في الغالب بحكم العادة ما يعتبر لا أخلاقيا، وما يدينه المجتمع.

والواقع أن بيانات التحليل النفسي تقيم الدليل، وتعرض التفسير العلمي للملاحظة التي غالباً ما يشير إليها منتقدو الدين، أعني، أنه لا العقيدة، ولا التعليم المسيحي، ولا الوصايا المنحوتة على الصخر يمكن أن تجعل شخصاً ما فاضلاً. الأخلاق شأن فردي. إنها نتيجة لتكون الأنا الأعلى، وهي ناجمة عن العواطف الجياشة والمخاوف الغامرة التي هي جزء من الحياة الغريزية للطفولة، وليست من دروس مدرسة الأحد الدينية. إنها الخبرة الخاصة بكل فرد التي لها الأهمية الكبرى، والحاسمة ديناميكياً، حينما يتعلق الأمر بالأخلاق. بمعنى، أن من الصحيح القول أن المدونة الأخلاقية لأي دين تولد من رغبات وصراعات الطفولة لمعتقديه،

تماماً كما تولد الخرافات والأساطير.

في نفس الوقت، يجب الاعتراف بأن هذه ليست كل قصة العلاقة بين أخلاقيات الفرد والمجتمع. حقاً، إنها جزء هام من القصة، الجزء الذي يمثل مساهمة التحليل النفسي بشكل خاص، لكنه جزء فقط. كل دين يمثل، من بين أشياء أخرى، جهداً لتهدئة قلق معتنقيه، وفي نفس الوقت منحهم درجة ما من الإشباع الغريزي. وتفعل مدونته الأخلاقية ذلك بعرضها إجابات للسؤال، ماذا يجب على أن أفعل حتى يحبني آلهتي (والدي) ويحمونني ،بدل أن يكرهوني ويعاقبوني على رغباتي وتصرفاتي الجنسية والإجرامية؟'' تُقَدَّم هذه الإجابات عن طريق الكبار لكل طفل في طور النمو، عن طريق أبويه، كحل جاهز لصراعات الطفل الغريزية. إنه حل وجده الأبوان مقبولاً ومفيداً. إذا كانت المدونة الأخلاقية حلاً مقبولاً بهذا المعنى لكل أو معظم أعضاء المجتمع، فهي عملية وقابلة للتطبيق. أما إذا لم تكن، فإنها تُغيَّر بطريقة أو بأخرى، حتى تكون مرضية. وإذا فشلت في ذلك، تنبذ تماماً وتستبدل بنظام آخر من الممارسات والمعتقدات. فالفرد كي يساير نوعاً ما أي مدونة أخلاقية تعرض عليه من المجتمع، أو تعرض عليه ليؤمن بأي دين، يجب أن يجد فيها حلاً عملياً لصراعاته اللاشعورية، الصراعات التي تنبع من رغباته الغريزية في طفولته.

في الوقت الحاضر أخذ الدين يتراجع كمؤسسة اجتماعية. وبشكل عام قد يعزى هذا التراجع إلى التأثير النفسي للتطورات العلمية والتقنية للقرون الثلاثة الماضية. استهل جاليليو، أكثر من أي شخص آخر، الأحداث التي أدت أخيراً إلى النتائج نفسها التي أمَّلَت الكنيسة في منعها بإرغامه على إنكارها ثم اعتقاله بقية حياته. مع ذلك، استغرق التقدم العلمي وقتاً

طويلاً كي يؤثر على المعتقدات الدينية للبشرية بدرجة كبيرة. وحتى عهد قريب جداً، عام 1915، اعتنقت كل حكومة في العالم مذهباً دينياً ما، ولم تكن هناك حكومة واحدة ملحدة بشكل رسمي. حالياً، فإن حكومات اثنين من أكثر دول العالم سكاناً، وهي الصين والاتحاد السوفييتي (سابقاً)، تنكران جميع الأديان. كذلك تفعل حكومات كثيرة من الدول الصغيرة[1]. إن أكثر من ربع سكان العالم يعيشون في هذه الأقطار. ما الذي أصاب المعتقدات الدينية لهؤلاء البليون من البشر؟ لا شك أن بعضهم تشبث وعن وعي بمذهب ديني ما، غير أن مئات الملايين منهم على وفاق وعن وعي مع مفكريهم وقادتهم السياسيين، ومع حكامهم ومعلميهم، من أن جميع الأديان غير صحيحة، وأن آلهتها غير موجودة، وأن وعودها بالحياة بعد الموت وهم، سواء أكانت أملاً في جنة أم تهديداً بنار، وأن رؤيتها للكون ليست إلا أساطير جميلة لشعوب بدائية، ولا تتفق مع العلم، وجاهلة، مهما كانت موهبتها الخيالية واسعة. إذا كان الدين ينبع من مصدر بهذا العمق في الحياة العقلية كما يقول المحللون النفسانيون، فمن المستحيل أن يختفي بهذه البساطة دون بديل ما يحل مكانه. بدون شك، فإن النتائج اللاشعورية للصراعات الغريزية للطفولة، والتي دفعت الناس للمشاركة في المعتقدات والشعائر الدينية المنظمة لعدد لا يحصى من القرون، يجب أن تكون قوية بين سكان الصين والاتحاد السوفييتي ،كما هي قوية بين السكان الآخرين في العالم. فما هي مظاهرها في مجتمع إلحادي وغير ديني؟

---

[1] لا يخفى على القارئ بأن هذه معلومات قديمة، فقد تغيرت الأوضاع السياسية في روسيا ودول أوروبا الشرقية، وتغيرت تبعاً لها الأيديولوجية السياسية وموقف الناس والدولة من الدين (المترجم).

الجواب هو أن السياسة، كما يبدو، تشغل في هذه الأقطار نفس المركز النفسي الذي يشغله الدين في مكان آخر. إنها تخدم العديد من نفس الوظائف الأساسية لكل فرد. وبدلاً من المواكب والأعياد الدينية التي يشارك فيها المؤمنون، هناك الأعياد والمواكب السياسية. وبدلاً من الأيقونات الدينية، هناك الصور والملصقات السياسية. وبدلاً من الآلهة القديمة والحيوانات المقدسة، هناك ماركس ولينين. وبدلاً من رجال الدين، هناك القادة السياسيون الذين يستوجبون الطاعة، والحب، والرهبة. إضافة إلى وجود اتجاه أخلاقي قوي في التعاليم الاشتراكية أو الشيوعية. وكما هي الحال مع معظم الأديان، يكون المرء ''طيباً '' إذا ساير وآمن، و '' سيئاً '' إذا لم يفعل. علاوة على ذلك، هناك وعد، أحياناً ضمني فقط، وأحياناً صريح بشكل واضح، بأن قدوم الشيوعية سوف يحضر معه نوعاً من الجنة على الأرض، مرادفاً لنهاية القصة الخرافية النمطية ''...وعاشوا في سعادة إلى الأبد.''

ينبغي أن يكون واضحاً، أن ما قلناه للتو عن سيكولوجية السياسة في الصين والاتحاد السوفييتي (السابق) لا يقصد به التشكيك في النظريات الاقتصادية والسياسية للاشتراكية، ولا في هدفها المثالي عن الوفرة الاقتصادية للجميع. إذا كان صحيحاً حقاً أن التقليد هو أصدق شكل للتملق، فكل الأقطار الرأسمالية الرئيسية لديها أعلى التقدير للمثال الاشتراكي من العدل الاجتماعي. وكلها بدون استثناء تعرض على مواطنيها نفس الوعد بالرخاء المادي والأمن للجميع. الهدف من الفقرة السابقة هو القول بأن الميول اللاشعورية المتجسدة في أحوال أخرى في المعتقدات والشعائر الدينية خلقت، في المجتمعات اللادينية، نوعاً من الدين السياسي أو دين الساسة، وأن هذا التطور لم يكن مقصوداً ولا متوقعاً. فالمصلحون الذين كانوا مهندسي

وقادة الثورات التي أوجدت المجتمعات اللادينية المعاصرة لم يكن لديهم رغبة متعمدة في أن تصبح هذه المجتمعات نفسها نوعاً من الدين. على العكس تماماً. مثل هذه الفكرة سوف تكون ممقوتة لهم. ومع ذلك، فهذا كما يظهر هو ما حدث.

علاوة على ذلك، فإن هذا ليس، إلي حد ما ،شيئاً جديداً في التنظيم المجتمعي. فمنذ العصور القديمة تعود الناس على تأليه حكامهم. ففي مصر ووادي دجلة ونهر الفرات، حيث نشأت الإمبراطوريات الأولى، كان الملك، والكاهن الأكبر، والإله شيئاً واحداً. وحتى بعد ميلاد العقلانية في العصر الذهبي للإغريق، فقد أُله الإسكندر، تلميذ أرسطو، كما أُله عدد لا يحصى من الحكام الإغريق والرومان الآخرين الذي خلفوه. يبدو غريباً بالنسبة لنا أن نفكر في شخص حي يَدَّعي أنه إله ويعتبره الآخرون إنساناً. سوف نقول إنه "متخلف" أو "وثني،" كيف يرى نفسه مختلفاً عنا ! " لكن هل هو كذلك مختلف ؟ إلى وقت قريب جداً، حكم معظم أجزاء العالم رجال ونساء ادعوا أنه تم اختيارهم لمنصب الملك أو الملكة بواسطة العناية الإلهية. أن تتمرد على مثل هذا الحاكم، وأن تكون أقل طاعة له، معناه عصيان الله، وجريمة ضد الدين. رغم ذلك، يعتبر المؤمن المحافظ البابا (في الإيطالية البابا *il Papa* = الأب)، الذي هو رسمياً أسقف روما، الممثل المباشر لله على الأرض، وهو مركز، ليس بعيداً، بالتعبير النفسي، عن المعبود الحي ؛ ليس مساوياً لأي من الآلهة العظام، بدون ريب، لكنه لا يزال مثلهم، ولو أنه على مستوى أصغر.

الواقع أن الخبرة التحليلية مع المرضى أوضحت بشكل جلي جداً أن أي واحد ينظر إليه باعتباره أكبر، وفي مركز أسمى حكمة، أو أعلى سلطة، أو أفضل قدرة يمكن أن يمثل

لاشعورياً الأب. والأنظمة الحكومية الدينية والإلحادية ليست استثناء على الإطلاق في هذا الجانب. في الواقع، إن أية بيروقراطية ليست فقط مفروضة من الأعلى؛ إنها مدعومة من تحت أيضاً. واتجاه الخاضعين نحو حكامهم في أي مجتمع يرجع في أحد جذوره اللاشعورية إلى صراعاتهم ورغباتهم الأوديبية الخاصة. رئيس الجمهورية ينظر إليه لاشعورياً على أنه أب لا يقل عن إله، أو دكتاتور، أو ملك مبارك بالزيت المقدس، أو إمبراطور نصف إله. يبدو أن الفرق يكمن في قوة الإكراه التي بواسطتها يصر مجتمع بعينه، أو منظمة اجتماعية معينة، على أن شخصاً واحداً، أو عدداً قليلاً من الناس، يحوزون فعلاً الصفات المميزة التي يمنحها الأطفال الصغار عادة لوالديهم- إنهم حكماء بحيث يعلمون كل شيء، وأقوياء بحيث يملكون قدرة غير محدودة، وصالحون بحيث أنهم بدون ذنب أو عيب. وحبهم وطاعتهم تعني أنك صالح، وتستحق الحب والمكافأة في المقابل، بينما الفشل في الحب والطاعة يعنى أن تكون سيئاً وتستحق أية عقوبة يقررونها.

كلما اقتربت أية منظمة دينية أو نظام سياسي من مثل هذه المعايير، كلما كانت إعادة إنتاج الكبار للحياة العقلية للطفولة أكثر وضوحاً. وهذه فترة من الحياة تم نسيانها بشكل واع من قبل معظم الكبار، غير أنها لاتزال نشطة لا شعورياً وتحملهم على تكرار طفولتهم بطرق لا تحصى خلال حياتهم. وفيما يخص السياسة والدين، فإن الميل نحو استنساخ الموقف الأسري في الطفولة عبر مؤسسات عالم الكبار أمر واضح، هذا الميل ملاحظ في المجتمع المعاصر بدرجة لا تقل عن المجتمعات منذ خمسين قرن مضت.

دعونا نتحول عند هذه النقطة من موضوع الدين إلى موضوعات السحر والشعوذة

الأكثر قرباً وعمومية. في عصر العلم هذا، تنطوي كلمة "سحر" عادة على تسلية مكونة من حيل وأعمال خارقة من الخداع وخفة اليد التي تدعي مناقضة الحس العام للفرد ومعرفته العملية للعالم. لا يؤمن الكبار الجادون بأن الساحر يمتلك حقاً قدرات غير طبيعية، وأنه يستطيع فعلاً قص امرأة بالمنشار إلى نصفين وإعادتها مرة أخرى أمام المشاهدين. في ظننا، أن الأطفال فقط هم من يخدعون بمثل هذه الحيل. مع ذلك، ففي المجتمعات والجماعات الاجتماعية حيث الإيمان بالعلم لم يقض بعد على الإيمان بالسحر، كما هو الحال في مجتمعاتنا، فإنه حتى الكبار يعزون بجد قدرات خاصة لأشخاص معينين، سواء سموهم سحرة، أو عرافين، أو رجال مقدسين ونساء مقدسات. وحتى في مجتمعنا الأمريكي حيث الأيمان بالسحر، أو المعجزات، أو الشعوذة أصبح مخالفاً للمألوف لدرجة أن قليلاً من الأشخاص المتعلمين يعترفون به، فإن الواقع يقول أن المعالجين الدينيين سطع نجمهم ،وأن المنجمين مازالوا يستشارون من قبل الكثيرين. لا ينبغي لأحد أن يندهش لذلك.إن انتشار إنكار السحر بين قطاع واسع من السكان حادث قريب جداً عندما يؤخذ الزمن التاريخي في الحسبان. صحيح أن قلة من الفلاسفة الكبار تبنوا وجهة نظر عقلانية حول العالم، مناهضة لوجهة النظر السحرية، منذ القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان القديمة، لكنهم كانوا قلة فقط. الغالبية العظمى من معاصريهم وجميع خلفائهم تقريباً استمروا ولقرون عدة في الإيمان بالسحر مثلما فعل الناس دائماً. وحتى الآن، ومع التقدير العالي للعلم والعقلانية، فإن التفكير السحري وكذا المعتقدات السحرية لاتزال تزدهر، وربما سيزدهران دائماً. وعلى أي حال، فهي ظواهر مهمة وشائعة بدرجة كبيرة جداً تفرض علينا منحها بعض الانتباه.

السحر والشعوذة يعرفان غالباً بأنهما نتاج للاعتقاد بأن أفكار وكلمات الشخص يمكن أن تؤثر، وحتى تتحكم، في الأشخاص الآخرين والأشياء الموجودة في محيط الشخص. ووفقاً لما كشف عنه المحللون النفسانيون، فإن كل الأطفال يمرون بطور يؤمنون خلاله وبقوة بحدوث ذلك. "قوة التفكير" هي عبارة تتكرر باستمرار في كتابات التحليل النفسي. للأطفال الصغار الحق إلى حد ما في هذا الاعتقاد، طالما أن كل طفل، حالما يبدأ الكلام، يكتشف أنه أحرز السيطرة في نفس الوقت على بيئته السحرية، بالمعنى الذي حددناه الآن. الآن وبعد أن استطاع، وللمرة الأولى، أن يقول لأبيه أو أمه ما يفكر فيه، فإنهم سوف يحققون له ما يريد. شبيك لبيك، كما في قصص ألف ليلة وليلة. إضافة إلى أن رغبات الأطفال أقوى، على الأقل نسبياً، من رغبات الكبار. إنها تفسح المجال للخيالات، التي هي واقعية جداً عند الطفل. إذا كانت الحقائق المؤلمة للعالم الواقعي حوله على خلاف مع خيالاته المبنية على رغباته، فإن الطفل يكون أكثر ميلاً من الراشد لتجاهل الواقع والإصرار على أن رغباته كانت فعلاً حقيقة. بالتدريج فقط يتعلم كل طفل أن يميز الواقع الخارجي من الخيال القائم على الرغبة، وأن يعيش الواقع، كما يقول علماء التحليل النفسي (أنظر الفصل الرابع). علاوة على ذلك، حتى عندما تتطور قدرة الفرد على معايشة الواقع بشكل جيد، فإن الميل للتفكير السحري، كما تعود الأطفال أن يفعلوا، يظل ملازماً لنا جميعاً تقريباً، وملازماً لمعظمنا، بدرجة ما.

يبقى مظهر آخر من تفكير الطفولة يلعب جزءاً هاماً في السحر والشعوذة. كل موضوعات بيئة الطفل تعتبر للوهلة الأولى بالنسبة للطفل لها أفكار، ومشاعر، ورغبات مثله

تماماً، وكل الطبيعة حية إلى أن تكشف له الخبرة ويكشف له والداه العكس. تستمر بقايا هذا الاعتقاد في جوانب من حياة الكبار خلاف السحر. فبعض أنساق المعتقدات الدينية، على سبيل المثال، مفعم بالحياة بشكل قوي. الاعتقاد بأن الطبيعة حية يلعب أيضاً دوراً في الفن التصويري representational art، على سبيل المثال، في النحت والرسم، والإنتاج الأدبي، خاصة الشعر.

نكرر مرة أخرى بأن ممارسات ومعتقدات السحر والشعوذة تعتمد على قوة التفكير، خاصة أوهام الأماني wishful fantasies، وفكرة الطبيعة الحية[1] animistic nature. إنهما غالباً على علاقة واضحة مع جانب أو آخر من الرغبات الغريزية للطفولة، رغم أن هذه العلاقة لاشعورية على نحو خاص. لقد سبق أن لاحظنا بأن السحر يلعب دوراً كبيراً في الدين، رغم أنه ليس بأي حال مقصوراً على الدين. أما بالنسبة للشعوذة، فالملاحظ غالباً بأن دين إنسان ما هو شعوذة إنسان آخر one man's religion is another's superstition. وبالنسبة للشخص الملحد، فأي دين هو بطبيعته مجرد شعوذة. إن خاصيته القدسية لا تنفصل عن الإيمان به.

بعد سن ست سنوات أو نحو ذلك، يكون الأطفال مفتونين دائماً بكل أنواع السحر والشعوذة. الشعوذة الشائعة بين أطفال المدن هي أن من ''سوء الحظ'' أن تدوس على شق في رصيف المشاة. مثل هؤلاء الأطفال سوف يبذلون مجهوداً شاقاً، نصفه مَرَح،

---

[1] الجذر اللاتيني للكلمة هو anima وتعني الحياة أو الروح. وهو اعتقاد قائم على أساس أن كل شيء في الطبيعة له روح. وأنه لا فصل بين المادي والروحي، ،أن الروح موجود ليس فقط في الإنسان، بل في الحيوان والنبات والجماد كذلك.(المترجم)

ونصفه جد، حتى يتجنبوا الشقوق في مشيهم على الرصيف. وإذا أراد المرء أن يتأكد من المعنى اللاشعوري لهذه الشعوذة بالنسبة لطفل بعينه، فإن عليه استخدام أسلوب التحليل النفسي مع هذا الطفل. ليس أمام الشخص طريقة يعرف بها مقدماً إذا كان المعنى سيكون هو نفسه أو مختلفاً بالنسبة لاثنين أو أكثر من مثل هؤلاء الأطفال. إن من المفهوم تماماً أن نفس الشعوذة، ونفس الطقس السحري ،يمكن أن يكون لهما نفس المعنى عند أطفال مختلفين، وليس نفس الشيء عند كل منهم. مع ذلك، يشير الدليل الآخر المتوفر إلى وجود معنى مشترك، على الأقل في حالات عدة، يبرر التخمين فيما يتعلق بطبيعتها العامة.

هناك أغنية قصيرة يغنيها هؤلاء الأطفال أحياناً وهم يجرون بموازاة الرصيف. تقول كلماتها :

Step on a crack,
Break your mother's (or father's) back.
Step on a line ,
Break your father's (or mother's) spine.

دوس على الحفرة يا خفيف،
تكسر ظهر أمك يا ظريف.
دوس على الخط ونط،
تكسر ظهر بوك يا قط.

يمضي الأطفال أحياناً في مرح وهم يدوسون، أو يقفزون على كل الشقوق ويغنون نفس الأغنية. إن الاستنتاج المعقول الممكن استخلاصه، كما يبدو، من الدليل الذي أوجزناه للتو هو أن هؤلاء أطفال كبتت رغباتهم العدائية وحتى الإجرامية تجاه والديهم. وقد

تم التعبير عن ذلك في الأغنية بشكل مباشر، بما يكفي أن يتعرف عليها السامع بسهولة جداً. حينما يثب الأطفال صعوداً ونزولاً على الثقوب ،فإنهم يعبرون عن نفس الرغبات من خلال اللعب المرح، لكن بشكل مُقَنَّع. وبدون الكلمات المصاحبة، لا يمكن لأي شخص أن يخمن، بأي درجة من الثقة، ماذا كان المعنى اللاشعوري للعب. يجب على المرء، لكي يفسر الشعوذة، أن يفترض أن الرغبات العدائية تثير شعوراً بالذنب. وهكذا فالفكرة اللاشعورية، يجب أن أعاقب على مثل هذه الرغبات الشريرة عن الأم (أو الأب)،'' تسبب الشعوذة الشعورية '' إذا دست على الشق (والذي يعني المعنى الرمزي اللاشعوري لإشباع الرغبات الشريرة)، فإن شيئاً ما مؤسفاً سوف يحدث لي.'' ولكي يتجنب العقوبة (شعورياً، الحظ السيئ'')، يستخدم الطفل السحر: يتجنب الشقوق وبالتالي يرغم القدر كي يمنحه ''حظاً طيباً.'' لا يوجد سر حول الفكرة اللاشعورية. إذا صيغت في كلمات، فسوف تكون ''أنا طيب يا أمي (أو أبي)، لذلك أعرف أنك لن تعاقبني، كما ستفعل لو كنت سيئاً معك.'' هذه فكرة واقعية تماماً، تعكس توقعات الطفل وخبرته. مع ذلك، ففي المعتقد الخرافي والطقس السحري الشعوري، يصبح الوالدان ''قدراً'' لهم مطلق العلم والقدرة، ويمكن ضمان رضاهم بواسطة سلوك (عدم المشي على الشقوق) الذي ليس له أي قيمة عملية أو واقعية أياً كانت. وقيمته مستمدة أساساً من التفكير اللاشعوري للطفل، من المعادلة في عقل الطفل بين المشي على الشقوق وبين إشباع رغباته العدائية نحو أبويه. يعتمد السحر على الفكرة، في هذه الحالة، على الأفكار حول مخاوف ورغبات الطفولة، وليس على الخبرة مع العالم الحقيقي.

الخرافة الشائعة الأخرى تتعلق بالرقم 13. الاعتقاد بأن الرقم 13 غير محظوظ منتشر جداً لدرجة أن مباني عديدة ليس بها طابق يحمل رقم "13،" مخافة أن يرفض الناس الذهاب هناك، ومقاعد المسارح ترقم بطريقة تتجنب الرقم 13، إلخ. هنا مرة أخرى، يمكن للمرء أن يخمن الدلالة العامة المحتملة لهذه الخرافة الشائعة دون الحاجة إلى تحليل المرضى الذين يؤمنون بها.

المثير للاهتمام أن هذه خرافة مسيحية. والاعتقاد، في شكله الأصلي، هو أن من سوء الحظ لثلاثة عشر شخصاً أن يجلسوا معاً. والسبب في ذلك، هو حضور ثلاثة عشر للعشاء الأخير : المسيح و12 من حوارييه. الخرافة المسيحية الأخرى ذات العلاقة هي أن يوم الجمعة مشئوم، حيث أنه اليوم من الأسبوع الذي صلب فيه المسيح. ضم الخرافتين يؤكد الزعم بأن يوم الجمعة الثالث عشر يوم مشئوم بشكل خاص.

يمكن أن نفهم لماذا يحزن المسيحي الورع من ذكرى صلب المسيح، ولكن لماذا خرافة أن الرقم 13 تجلب الحظ السيئ؟ من مثالنا السابق يمكن أن نتوقع أنه مرتبط بشكل ما بالإحساس اللاشعوري بالذنب على صلب المسيح. ومع ذلك، دعونا نبدأ محاولتنا لتوضيح الأمور بالتأمل في الشكل الأصلي للخرافة: إذا تناول ثلاثة عشر شخصاً العشاء معاً، فإن أمراً سيئاً سوف يحدث. ربما سوف يموت أحدهم، وهذا أحد أشكال الخرافة. ظاهرياً يبدو هذا كمثال على الاستدلال الخاطئ، أو ربما على التحليل الإحصائي الضعيف. فالفكرة هي أنه بما أن المسيح اعتقل وصلب بعد عشاء حضره ثلاثة عشر شخصاً، كما يقول الإنجيل، فإن نفس الشيء، أو شيئاً ما مشابه، قد يحدث في أي وقت يجتمع فيه ثلاثة عشر شخصاً حول طاولة.

من الأفضل للشخص إذن أن يتجنب مثل هذه الحفلة. وأي رقم آخر هو أكثر أماناً بالنسبة للمدعوين. وحقيقة أن غير المسيحيين لم يلاحظوا مثل هذه العلاقة أمر غير ذي أهمية. ثلاثة عشر يجلسون إلى الطاولة هو حظ سيئ.

مع ذلك، فالواقع في هذا أن الاستدلال الشعوري فقط هو الخطأ، كما هو في أي خرافة أخرى. العشاء الأخير كان أول قداس. وهذا هو الوصف في سفر ماثيو،26. " تناول المسيح خبزاً وكسره وأعطاه للحواريين وقال، 'خذوا، كلوا؛ هذا لحمي.' وأخذ الكأس ثم صدع بالشكر، وأعطاه لهم، قائلاً، 'اشربوا، هذا دمي..." من الواضح، إذن، أن الحواريين في العشاء الأخير أكلوا لحمه وشربوا دمه؛ طعامهم كان الإله نفسه. مرة أخرى نحن نتعامل مع رغبة غريزية طفولية : أن يقتل الواحد أباه ويلتهمه. وهكذا، تَجمُّع ثلاثة عشر حول طاولة يرمز للمسيحي برغبة طفولية لا شعورية في قتل وأكل الأب، رغبة مشحونة بشعور الذنب والخوف. فالمسيحي المؤمن بالخرافات يعلن لوالده، لا شعورياً، كالأطفال في مثالنا السابق، أنه ولد طيب، لا يريد أن يفعل مثل هذا الشيء الشرير من قتل والده وأكله، وهو شيء يتوقع أن يعاقب عليه لو حاول فعله. وبتجنب التصرف الذي يرمز إلى إشباع رغبته الشريرة، يمكنه أن يتجنب عقوبة "سوء الحظ" أيضاً.

من المثير للاهتمام أن نخمن المعنى اللاشعوري للرقم 13 بالنسبة للكثيرين الذين يخافون أنه سيجلب لهم سوء الحظ ،دون أدنى معرفة لأصل الخرافة وعلاقتها بالعشاء الأخير، أو حتى علاقتها بالمسيح. ومهما كان الشيء الذي يشعر المرء نحوه لا شعورياً بالذنب، فإنه يمكن أن يسبب توقعاً شعورياً لا منطقيا من سوء الحظ، توقعاً قد يحاول المرء تهدئته بطريقة سحرية.

لذلك، قد نفترض أن أي شخص يشعر وبقوة أن الرقم "13"، أو أي فأل آخر، سوف يجلب له حظاً سيئاً، ربما يعاني لا شعورياً من الذنب تجاه شيء ما. لماذا يكون شخص ما أكثر خوفاً من فأل سيئ بعينه دون آخر، سؤال يمكن إجابته بشكل مرض على أساس فردي فقط، أي، باستخدام أسلوب التحليل النفسي مع ذلك الفرد. من المثير للاهتمام أن المحللين النفسانيين قد لاحظوا باستمرار أثناء ممارستهم الإكلينيكية أنه بالنسبة للمرضى، المنشغلين باستمرار بالعد أو بطقوس مشابهة تتضمن أرقاماً، فإن مثل هذه النشاطات تكون ناتجة عن انشغال لاشعوري بالعادة السرية وبالتخيلات المرتبطة بها. إنه لا يمكن القول بأن مثل هذه العلاقة حتمية، غير أنها تبدو متكررة.

الفأل وقراءة الطالع في عمومهما جزء مهم من المعتقد الخرافي. الساحر، والمنجم، وقارئ الحظ، على صلة وثيقة مع بعض في عقول عامة الناس. لقد شغلوا في كثير من المجتمعات، ماضياً وحاضراً، مراكز هامة ومحترمة في المجتمع. وقارئو البخت عموماً أنجزوا وظيفة مزدوجة. فهم يتنبؤون بالمستقبل، ويرشدون المجتمع أو الفرد حول ما إذا كان الآن هو الوقت المناسب أم لا لمباشرة مشروع معين، مهما كان هذا المشروع : قصة حب، أو مشروعاً تجارياً، أو غزواً أجنبياً. تقريباً أي ظاهرة طبيعية يمكن استعمالها للقيام بالتنبؤ المطلوب : النجوم، أو هجرة الطيور، أو خسوف القمر، أو كسوف الشمس، أو كبد الحيوان، أو خطوط الكف، أو الأوراق في فنجان الشاهي. ففي كل حالة، يكون المعتقد الخرافي هو أياً كانت القوة التي حركت النجوم، أو طيرت الطيور، أو أوقفت شعاع الشمس، فإنها قد فعلت ذلك كي تخبر كلاً منا ماذا يمكنه أو لا يمكنه فعله دون خوف من العقاب الآن، بالإضافة إلى كيف

سيجازى في المستقبل. يبدو منطقياً، على أساس من معرفتنا للحياة العقلية اللاشعورية، أن نستنتج أن هذا المعتقد، مثله مثل إيمان الشخص الراشد بالإله، ينبع من اتجاهات الأطفال نحو والديهم. فوالد الفرد في الطفولة هو من يخبره بما يمكنه وما لا يمكنه فعله. إذا تمرد شخص ما على والديه، فإنه يتوقع العقاب. وفي الطفولة أيضاً، فإن والدي الشخص هم المسئولون عن المستقبل، والذين يملكون بيدهم السلطة لإشباع رغبات الفرد ،أو إحباطها و الانتهاء بآمال وخطط الفرد إلى الاخفاق. ويبدو أن المؤمن بخرافات الفأل وقراءة الحظ مازال لا شعورياً طفلاً، يتبنى اتجاهاً من الخضوع لوالديه، ويتوق إلى معرفة مشيئتهم وطاعتهم حتى يستأهل حبهم ومساعدتهم. وكما يتوقع المرء حالة قبوله هذا التفسير، فإن المنجمين وقارئي الطالع، الذين هم في واقع الحياة الممثلون للقوى الموجهة لمصير الفرد، يكونون عادة رجالاً ونساءً أكبر سناً، غالباً عجائز متقدمين جداً في السن، تماماً كما يبدو عليه والدا المرء حينما يكون طفلاً صغيراً.

وكما لاحظنا، يظهر المؤمنون بالدين، وبالتنجيم، وما شابه، اتجاهاً محباً خاضعاً نحو الكبار الممثلين لوالديهم : نحو الإله، ورجال الدين، والسحرة، وقارئي الطالع. ومع ذلك، فمن خلال الخبرة الإكلينيكية، وأيضاً من خلال الملاحظة المباشرة، نعرف أن اتجاه الطفل الصغير نحو والديه اتجاه متناقض. إنه يتضمن الغضب، والتمرد، وحتى رغبات القتل والخصاء، إضافة إلى الحب والخضوع. أحياناً تكون الأولى هي الأكثر وضوحاً، وأحياناً الأخيرة، كما في الأمثلة التي ذكرناها. سوف ندرس الآن بعض المظاهر المعتادة من حياة البلوغ ،حيث الرغبات العدائية هي الأكثر وضوحاً. ينبع السلوك والاتجاهات الشعورية ،في جزء كبير من نشاطات البالغين ،من رغبات التمرد والخصام في مرحلة الطفولة التي ما زالت حاضرة في حياة الكبار، رغم أنها

لا شعورية.

من المألوف في الحياة السياسية أن كل جيل جديد يجد نفسه تقريباً في صراع مع الجيل السابق. ويستخدم عادة مصطلح " صراع الأجيال" أو " الفجوة بين الأجيال" للإشارة إلى المظاهر المتعددة لهذه الظاهرة المعتادة. وحينما تكون السلطة السياسية منوطة، نظرياً على الأقل كما في وقتنا الحالي، بمجموعات كبيرة من الناس، يكون صراع الأجيال ظاهرة جماعية. في الأحقاب السابقة، كانت السلطة تناط بأفراد أو جماعات صغيرة من الأفراد. وحتى اليوم تستخدم عبارة خارج الميدان السياسي للدلالة على مواقف النزاع أو الصراع في الأسرة بين الوالدين وأبنائهم المراهقين. لقد ظهر، بعد اكتشاف واستخدام أسلوب التحليل النفسي، أن المناسبة الأولى للصراع الحاد بين الأجيال ليست مرحلة المراهقة، بل مرحلة الطفولة المبكرة، وعادة الطور الأوديبي من النمو. والصراعات التالية هي نسخة ثانية أو ثالثة عن هذا الأصل، حيث بعضها جديد والغالب مكرر. والنقطة الهامة أن كثيراً مما هو تكرار للماضي يكون لا شعوراً في حياة الكبار. فسلوك الراشد يبدو للملاحظ غير منطقي، يستعصي تفسيره، ولا علاقة له بحقائق الموقف، وهو فعلاً كذلك. ومن الممكن فهمه فقط من خلال التراث اللاشعوري للطفولة الذي يوفر جزءاً هاماً من الدافع لكلا الجيلين. ففي حالة الجيل الأصغر يمكن أن يلاحظ المرء، مرة تلو المرة، الدليل على أن المبررات الشعورية التي تقدم لنقد ومهاجمة الجيل الأكبر لا تفسر مطلقاً الشدة والحدة التي يظهرها الجيل الأصغر. إن شيئاً ما آخر يجب تضمينه ليفسر العاطفة الحادة الواضحة جداً في الهجوم.

ما تشير إليه خبرة التحليل النفسي هو أنه ليس مجرد اندفاع الشباب أو التهور الفج،

أو بعض الصفة العامة للشباب، هي التي لها علاقة بذلك. إنها بشكل محدد رغبات الغيرة والقتل التي تعود بداياتها إلى الطفولة المبكرة، والتي تستمر لا شعورياً عبر الحياة فيما بعد. حقاً إنها رغبات فريدة لكل فرد، لكنها متشابهة بشكل كاف بين الجميع بدرجة من الاتساق تسمح للمرء بتفسير " صراع الأجيال " كظاهرة متكررة وعالمية تقريباً.

بالنسبة للجيل الأكبر هم أيضاً مدفوعون برغباتهم اللاشعورية، التي تنبع من رغباتهم الطفولية الغريزية. على سبيل المثال، قد يكون الجيل الأكبر متوحداً لا شعورياً مع أبويه، الذين مازال يؤمن لا شعورياً بقدرتهم المطلقة على التهديد بالدمار والخصاء لكل من يتجرأ على التمرد على سلطتهم. أو أن عضواً من الجيل الأكبر قد يساوي لا شعورياً الجيل الأصغر (أطفاله) مع أبويه، الذين هم في الواقع قد هرموا أو ماتوا، لكنهم في خياله اللاشعوري تجسدوا في الجيل الجديد. على أي حال، ليست اللاعقلانية والعاطفة غير المفهومة ذات وجه واحد، سواء في الصراعات السياسية بين الجيل الجديد ووالديهم، أو في الصراعات الأسرية بينهم. كلا الوجهين إنساني. وكلاهما محكوم بقوة بالرغبات النابعة من الماضي، رغبات الطفولة الغريزية، التي يدركونها ولكن بشكل مبهم. هكذا نستطيع أن نفهم، من ناحية، الحقيقة النفسية العميقة وراء نكتة مارك توين : " حينما كنت في سن السابعة عشر، روعني ما عليه أبي من جهل. وحينما كنت في سن الواحدة والعشرين، أذهلني ما تعلمه أبي في أربع سنوات قليلة." لكن من ناحية أخرى، يمكن أيضاً أن نتفق مع نباهة الملاحظة الفطرية intuitive the shrewdness of the observation من أن أحد الأسباب وراء استعداد القادة الوطنيين لشن الحرب هو تلهفهم على منح أبنائهم الفرصة كي يصبحوا أبطالاً موتى.

الثورات هي من بين أكثر الصراعات العنيفة التي تتعرض لها المجتمعات الإنسانية. إنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا؛ لأننا نعيش في عصر الثورة. هناك طبعاً أمثلة عديدة على ثورات الشعوب ضد الحكام قبل الثورة الفرنسية. ومع ذلك، لم يحدث في السابق مثل هذا العدد من الثورات كما حدث في المائتي سنة اللاحقة للثورة الفرنسية. لم يحدث من قبل أن كانت بهذا الانتشار. لم يحدث من قبل أن نجح هذا العدد الكبير من الثورات في هدفها المباشر من قلب الحكومات الموجودة. ما بدأ في فرنسا وأمريكا انتشر خلال العالم، فأصبحت المثاليات والشعارات الثورية للقرن الثامن عشر مقبولة عالمياً: الحرية، والمساواة، والأخوة، وسيادة الشعب، وحقوق الإنسان، مدونة اليوم في كل دستور في العالم. لقد نادي بها كل زعيم سياسي باعتبارها أساسية وملزمة، في حين لم تكن تحظى بقبول أي شخص منذ مائتي سنة مضت. في ذلك الوقت، نظر إليها معظم الناس، وكل الحكام طبعاً، على أنها إما هرطقة خطيرة وخبيثة، أو مجرد هراء، أو خليط من الاثنين.

الشيء الوحيد الذي أدهش كثيراً من المراقبين للأحداث السياسية في هذا العصر من الثورة هو تحول الثوريين، بعد استيلائهم على السلطة السياسية، إلى أن يصبحوا تماماً مثل أولئك الذين ثاروا ضدهم. فعدو الطغيان أمس أصبح طاغية اليوم. منذ حوالي مائة سنة مضت لاحظ برنارد شو بدعابته المعروفة أن جل ما حققته أي ثورة هو نقل عبء الظلم من كتف إلى الكتف الأخرى. مع ملاحظة أن شو لم يكن مدافعاً عن مؤسسة عصره أو أي عصر آخر. على العكس، كان اشتراكيا نشطاً وموضع ثقة. لقد كان فقط يعبر عن ارتيابه من الثورة كوسيلة لتحقيق الاشتراكية.

ينبغي أن نلاحظ بأن الثوار أنفسهم لا يعلمون بأنهم قد تعرضوا لمثل هذا التحول الذي وصفناه. فهم وأتباعهم يعتبرون مثل هذا التقييم خاطئاً تماماً. على العكس، إنهم مؤمنون بأنهم مخلصون لمثالياتهم الأساسية كما كانوا دائماً : مازالوا أبطالا للحرية، وللمساواة، ولحقوق الإنسان؛ ومازالوا معارضين للاستبداد والمستبدين من طراز أولئك الذين أطاحوا بهم. وفي رأيهم، أن أي شخص يدعي أنهم أصبحوا مثل حكامهم السابقين هو مفتر حقود ومضاد للثورة.

غالباً ما يحدث، كما في مثل هذه الحالة، أن يفصح الفرد بسلوكه عن دوافع واضحة جداً للآخرين، غير أنه لا دراية له بها مطلقاً. على العكس، إنه ينكرها بقوة إذا ما قدم له الدليل عليها. وكما يذكر القارئ ،فإن أمثلة من هذا النوع قد تم ذكرها في الفصل الأول كدليل على صحة فرضيات التحليل النفسي فيما يتعلق بالأداء العقلي اللاشعوري. لذلك يبدو أن الثوريين، تدفعهم رغبة لاشعورية في أن يصبحوا مثل نفس الحكام الذين يمقتونهم شعورياً، وأن يحتلوا نفس المركز، وأن يمارسوا نفس الامتيازات، ونفس القوة، وأن يستمتعوا بنفس السلطة.

ماذا يمكن أن يكون أصل مثل هذه الرغبة اللاشعورية في عقل ثوري مخلص، على قناعة واعية بأنه لو نجح، سوف يكون على نقيض أولئك الذين سعى لإسقاطهم ؟ إن أقرب إجابة في هذه الحالة، بعد الذي عرفناه عن الحياة العقلية اللاشعورية، هي تورط الرغبات التي تعود جذورها إلى الصراعات الغريزية في الطفولة. يُعجب الأطفال الصغار بوالديهم، ويحسدونهم على سلطتهم، ويتمنون التخلص من أحدهم كي يصبحوا هم أنفسهم

أباء. وبمرور الوقت، تصبح رغبات التمرد والقتل هذه لاشعورية لتجنب ما يرتبط بهما من مشاعر القلق والذنب. وفي الحياة التالية، كما لاحظنا، تكون جزءاً لاشعورياً من دافع التمرد ضد السلطة عموماً، ومع دافع الثورة العنيفة على وجه الخصوص. فالثوري، الذي يدفعه وعي الاهتمام بالصالح العام، والرغبة في التحول الديمقراطي للنظام الاجتماعي، يدفعه لاشعورياً الإعجاب والحسد للطغاة الذين يعارضهم والرغبة في الاستيلاء على سلطتهم. وهكذا فمن المرجح، حينما ينجح، أن يصبح مثل الحكام السابقين تماماً، رغم أنه ليست لديه أية رغبة شعورية في أن يفعل ذلك – بل الواقع على عكس ذلك تماماً. ربما كان صحيحاً ما قاله المؤرخ الإنجليزي أكتون Acton من أن السلطة مفسدة. وما يمكن أن يضيفه التحليل النفسي هو أن رغبات الشخص الغريزية واللاشعورية هي التي تلعب دوراً أساسياً وهاماً في دفعه لخيانة مثله الإصلاحية العليا الواعية ،حينما يحوز السلطة التي سعى إليها كثوري. فالبشر ميالون للمحافظة في سلوكهم السياسي، سواء أكانوا على وعي بذلك أم لا. وهم كذلك يميلون إلى اللاعقلانية في سلوكهم السياسي، مهما أنكروا ذلك، ومهما نجحوا في إثبات وتبرير تصرفاتهم ومعتقداتهم اللاعقلانية من أجل راحتهم الشخصية. يرى التحليل النفسي أن كلاً من المحافظة واللاعقلانية اللتين تميزان السياسة تنبعان من نفس المصدر اللاشعوري؛ أي أنهما موروث الصراعات الغريزية في الطفولة.

ينبغي التأكيد على أننا نناقش مظهراً واحداً فقط من المظاهر المتعددة لعلم النفس الثوري، أعني، حقيقة أن المتمردين يتوحدون تقريباً مع حكامهم، كما يفعل الأطفال المتمردون مع آبائهم. ونستطيع أن نفترض ،وبثقة، أن هذه الحقيقة النفسية تلعب دوراً هاماً

في الثورات. وهكذا أنتجت الثورة الفرنسية ارستقراطية جديدة وإمبراطوراً هو نابليون. وأنتجت الثورة الروسية ستالين، الذي كان كحاكم، يشبه كثيراً القيصر الذي سبقه. وفي الصين كان هناك ساكن جديد للقصر الملكي، لم يكن أقل شأناً من أي من الأباطرة الذين سبقوه في السلطة التي سيطر عليها ،أو في التبجيل الذي منح له، رغم كونه يدعى الرئيس، وليس ابن السماء.

مع ذلك، فليس كل ثورة تتبع نفس النموذج. فالثورة الأمريكية لم تؤد إلى نظام جديد يكرر أسس النظام القديم مع تغيير الشكل الخارجي فقط. يشير التحليل النفسي إلى وجود مشكلة هنا تبرر اهتماماً أكثر. لماذا لم تصبح المستعمرات الأمريكية مملكة ؟ أوضحت المنشورات الصادرة في ذلك الوقت أن الفكرة كانت واردة لدى الجميع. لقد اتهم واشنطون باستمرار بالتخطيط لكي يصبح ملكاً، لكن لا هو ولا أي من الشخصيات الرئيسية في الثورة حاول فعل ذلك. والقلائل الذين سعوا في هذا الاتجاه، مثل بار Burr، لم يفلحوا. والحقيقة أن مركزية السلطة السياسية في أمريكا تقدمت ببطء شديد بعد الثورة الأمريكية، رغم أن أمريكا قد خضعت للحكم الملكي قبل التمرد. إن تفسير هذه الحقيقة يجب أن يكون مثيراً للاهتمام في حد ذاته. وقد تكون له قيمة عملية في المستقبل أيضاً. وعلى أي حال، فالتحليل النفسي يشير إليه باعتباره شيئاً خارجاً عن المعتاد يستحق دراسة خاصة من المؤرخين، ربما بمساعدة من المحللين النفسانيين.

هناك مجال آخر من النشاط الإنساني تكون فيه العوامل النفسية على درجة عالية من الأهمية. هذا المجال بالنسبة لمعظم الناس أقل أهمية من الجوانب المروعة للثورة، والفجوة بين

الأجيال، والسياسة عموماً. مع ذلك، فهو هام بالقدر الذي يتطلب الانتباه، بالذات لأن ما يقوله عنه المحللون النفسانيون من أشياء تعتبر جوهرية وجديدة. هذا المجال هو الفن.

ما هو دور الحياة العقلية اللاشعورية في سيكولوجيا الفن؟ ما هو الدور الذي تلعبه العمليات العقلية اللاشعورية، أولاً، في عملية الإنجاز أو الإبداع الفني؛ وثانياً، في عملية التذوق الفني؛ أي، في نشاط الفنان من ناحية، وفي نشاط جمهور الفن من ناحية أخرى؟ ينبغي للإجابة عن هذه الأسئلة بطريقة علمية دقيقة استخدام أسلوب التحليل النفسي ذاته مع كل من الفنان والجمهور. من الممكن فعل ذلك في الغالب مع أحد أعضاء الجمهور، الذي تصادف وأن كان في جلسة تحليل علاجي، حتى ولو كان تفاعل المريض مع العمل الفني ليس في مركز اهتمام التحليل. يكون المحلل النفساني غالباً في مركز يتيح له الحصول على لمحات متكررة من العلاقات الرابطة بين الحياة العقلية اللاشعورية للمرضى وخبراتهم الفنية الشعورية. فالمحلل لا تتاح له الفرصة غالباً لإجراء فحص منظم وشامل للعلاقة بين الاثنين. والفرصة أقل من ذلك في تحليل الفنان. وعندما تتاح الفرصة لذلك، فإن اعتبارات سرية المعلومات تحول غالباً دون إفشاء النتائج. من السهل عادة بالنسبة للطبيب أن يحافظ على هوية مريضه عند عرض حالة مرض عضوي ما في دورية علمية. لكن من الصعب المحافظة على هوية مريض في تقرير عن حالة تحليل نفسي. وتزداد الصعوبة إذا كان المريض شخصية معروفة جيداً. وتكون المهمة مستحيلة إذا كان تقرير الحالة يتعلق بوجه خاص بالنشاطات التي تقوم عليها شهرة المريض. لهذا السبب كانت كتابات التحليل النفسي غير كافية فيما يتعلق بالدور الذي تلعبه العمليات العقلية اللاشعورية في النشاط الفني. فمعظم المؤلفين

قصروا أنفسهم على مناقشة فنانين لم يخضعوا مطلقاً للتحليل النفسي، معتمدين في استنتاجاتهم عن دور العوامل اللاشعورية على السير الذاتية والأدلة التاريخية الأخرى المتوفرة، وذلك كما فعل فرويد في دراسته الرائدة عن ليوناردو دافينشي(1910) وجوته (b1917).لقد نشر كتاب آخرون استنتاجات قائمة في جزء منها، على الأقل، على خبرة إكلينيكية مع فنانين، دون أن يتمكنوا من إبراز الدليل الذي ارتكزت عليه استنتاجاتهم.

رغم كل هذه الصعوبات المتعددة، توجد بعض التعميمات التي برزت خلال هذه الفترة والتي تبدو هامة وصادقة. دعونا ندرس أولاً تلك المتعلقة بالفنان. من بين المجالات المتعددة للفن، سوف نبدأ بالأدب.

العلاقة بين الخيال والإنتاج الأدبي واضحة. لقد كانت معروفة جيداً، وغالباً ما يتناولها التعليق ،وذلك قبل ظهور التحليل النفسي بوقت طويل. وحينما ظهر التحليل النفسي، فإن واحداً من مواضيع فحصه المبكرة كان الحياة الخيالية، حيث اتضح أن الأعراض العصابية مرتبطة بالخيال. لذلك اتجه اهتمام المحللين النفسانيين لكل من الخيالات الليلية، مثل الأحلام، والخيالات النهارية، مثل أحلام اليقظة. والأخيرة هي التي لها أهمية خاصة بالنسبة لنا في اللحظة الحاضرة، لأنها هي التي لها علاقة واضحة بالإنتاج الأدبي.

ولأن كلاً من الكتابات الإبداعية والعصابية مرتبطة بأحلام اليقظة، فقد حاول فرويد (a1908) أن يستكشف هذه الرابطة لإلقاء بعض الضوء على مظاهر معينة من الكتابات الإبداعية. ومنذ هذا العمل الإبداعي، أصبح واضحاً للغاية أن نفس الصراعات والرغبات الغريزية اللاشعورية التي تلعب دوراً هاماً في إنتاج الأحلام وأحلام اليقظة، مسئولة

بنفس الدرجة عن الإنتاج الأدبي. هذا يعني أن الكاتب يصوغ خيالاته، وأحلام يقظته، في الشكل الذي يأمل أن يكون مثيراً لاهتمام ومتعة الآخرين. أحلام اليقظة عموماً هي من أجل الشخص نفسه، أما الكتابة فهي عموماً من أجل الجمهور. تشكل براعة المهنة الأدوات التي يستخدمها الكاتب لجعل القصة، أو القصيدة، أو المسرحية، الخ.، جذابة لجمهوره، تماماً كما أن المهارة في استخدام الفرشاة والأزميل يشكلان براعة الرسام والنحات. تختلف هذه الأدوات حسب الوسيط الذي يعمل من خلاله الكاتب (كلمات ملفوظة، كلمات مكتوبة، الخ)، وحسب وسطه الثقافي. ومهما كانت الأدوات التي قد يستخدمها المؤلف ليلائم حلم اليقظة للجمهور الذي يود الوصول إليه، فإن مركز إنتاجه الأدبي، ونقطة بدايته، ومحتواه الأساسي، هو حلم اليقظة. فكل ما قيل عن طبيعة ووظيفة أحلام اليقظة، وكل ما عرف عن سيكولوجيتها، يجب أن يكون مهماً في فهم الإنتاج الأدبي أيضاً.

أحلام اليقظة تتعلق عادة برغبات غير مشبعة. فأحلام يقظة العاشق ممارسة الحب. وأحلام يقظة الطفل أن يكون كبيراً: وسيماً، وبارعاً، وناجحاً. أحلام يقظة الجائع أن يتناول طعاماً لذيذاً، والعطشان الشرب، والمتعب الراحة. يمكن مضاعفة هذه الأمثلة بسهولة عن طريق ملاحظة الشخص لنفسه أو بسؤال الآخرين، دون حاجة لمعرفة بالتحليل النفسي. إذا رغب المرء بقوة في شيء ما، ولديه الوقت للاستغراق في التفكير الحالم، فإنه سوف يتخيل أن حاجته لُبِّيت، وأن رغباته أشبعت. والاستثناءات ليست نادرة ،بمعنى أن هناك أيضاً أحلام يقظة غير سارة، وحتى مخيفة، لكن في الغالبية العظمى من أحلام اليقظة، يتم إشباع الرغبات الشعورية بشكل واع. هذه حقيقة معروفة جيداً، وكما قلنا، من السهل إثباتها. وما

يريد التحليل النفسي إضافته هو أن الرغبات اللاشعورية مصدر مهم لأحلام اليقظة. كلما سنحت الفرصة، أثناء العلاج التحليلي، لتحليل حلم يقظة لمريض باستخدام طريقة التحليل النفسي، يلاحظ المرء أن الرغبات اللاشعورية قد لعبت دوراً مهماً في تكوينه. كثير من رغبات الطفولة الغريزية تبقي تقريباً وللأبد غير مشبعة، تدفع دائماً كل فرد تقريباً لأن يسعى وبإلحاح من أجل إشباعها، حتى ولو كان الفرد نفسه لا يعلم بوجودها، ويجهل ما الذي يرغب في الحصول عليه وإشباعه. أحلام اليقظة هي إحدى الطرق في الحصول على درجة ما من الإشباع.

ربما يكون من المفيد إعطاء بعض الأمثلة من واقع الممارسة الإكلينيكية. ففي بداية إحدى جلسات التحليل النفسي روى أحد المرضى حلم يقظة حدث منذ دقائق قليلة قبل الجلسة، بينما كان في طريقه إلى عيادة المحلل النفساني. لقد تخيل أنه انعطف نحو زاوية الشارع ورأى سيارة شرطة وسيارة إسعاف أمام مدخل العيادة. لقد وقع حادث رهيب. فأحد المرضى أصبح عنيفاً وأطلق النار على المحلل النفساني، الذي كان ملقى على الأرض في بركة من الدم. وعند هذه النقطة، عدَّل المريض تخيلاته. لقد كان هو نفسه في العيادة، وأمسك بالجاني المخبول، ونجح في نزع سلاحه قبل أن يتمكن من استخدامه.

بدأت مستدعيات المريض بفيلم كان شاهده الليلة الماضية زاخراً بمشاهد الجريمة والعنف. كما حوي الفيلم أيضاً مشاهد شهوانية صريحة أثارت المريض جنسياً. ففي أحد مشاهد الفيلم يُغرِي رجل أرملة شخص كان قد قتله. هذا كان مروعاً وآسراً للمريض في نفس الوقت. لقد ذكر المريض فيما بعد أن إحدى الشخصيات، وهو رجل عجوز، ذكره

بأبيه. ليس لأنه يشبهه فعلاً، لكن فقط لأن النظارات التي كان يضعها تشبه تلك التي يستعملها أبوه. انتقل المريض بعد ذلك للحديث عن كيف كان يمكنه الاعتماد علي أبيه – كيف كان يمكنه دائماً التعويل عليه– ومن هناك للحديث عن انزعاجه من المحلل بسبب خيبة الأمل من تغييره لجدول مواعيده اليومية معه.

يعبر حلم اليقظة ،في هذه الحالة، عن مشاعر المريض المتناقضة تجاه المحلل النفساني. لقد كان منزعجاً من تغيير جدوله اليومي ليناسب المحلل وأحس بالرغبة في أن يخبره بأن يذهب إلى الجحيم. في نفس الوقت كان خجلاً من نفسه لشعوره بالغضب، لأنه كان يُقدِّر ما يلقاه من مساعدة، وكان على العموم ميالاً لاتخاذ موقف ودي من المحلل. لقد تم التعبير في حلم يقظته عن هذه الاتجاهات الشعورية في صورة تأثرت بشكل واضح بالفيلم الذي شاهده الليلة السابقة. يعني، أنه أشبع غضبه بجعل شخص ما يقتل محلله النفساني، وأشبع مشاعره الودية بإنقاذه من الموت. وشعور الذنب حول مشاعر غضبه كان المسؤول عن كون الجريمة نفذها مريض آخر، بدلاً من المريض نفسه، ومسؤول أيضاً عن تعريض نفسه للخطر، في الخيال، بالقبض على الجاني.

هذه الدوافع كلها شعورية. فالمريض كان بكل بساطة على دراية بها. مع ذلك، لم تكن هذه كل القصة. فقد حدث فعلاً وأُطلِقت النار على والد المريض وقتل في مكتبه من قبل أحد المستخدمين المخبولين، في وقت كان فيه المريض في مرحلة المراهقة المبكرة. لقد افتقد المريض أباه كثيراً بعد موته، وتخيل مشاهد يكون فيها في مكتب أبيه، وينزع سلاح الجاني، وينقذ حياة والده. لذلك، يبدو أن المريض عبر من خلال حلم يقظته، عن رغبات

الحب والقتل اللاشعورية تجاه أبيه، وكذلك رغباته الشعورية الحالية المتناقضة تجاه محلله النفساني. يمكن القول أنه وحَّد محلله النفساني مع أبيه، وحول إليه بعضاً من الرغبات والمشاعر التي مازال يضمرها لاشعورياً تجاه أبيه. علاوة على ذلك، تشير مستدعياته إلى أن رغباته المحولة كانت أوديبية في الأصل: فالمثير لحلم اليقظة وفرته المشاهد الجنسية المثيرة للفيلم الذي شاهده الليلة السابقة، والذي يقتل فيه رجل رجلاً آخر ويغوي أرملته فيما بعد، وهو أمر ارتبط في ذهن المريض مع أفكار عن والده هو. بمعنى آخر، غيرته الجنسية من أبيه، وغضبه الشديد منه، وكذلك ندمه، وكلها إرث الفترة الأوديبية من طفولته، أُشبعت شعورياً في حلم اليقظة الذي راوده أثناء توجهه إلى عيادة المحلل النفساني.

تختلف الرغبات الشعورية للحياة اليومية باختلاف الظروف، والاهتمامات، والانطباعات، والحاجات اليومية. تستمر الرغبات الغريزية للطفولة أساساً دون تغيير طوال حياة الفرد، رغم أنها بشكل كبير لاشعورية. والنتيجة أنه بينما تتنوع أحلام يقظة الفرد باستمرار، كما تفعل رغباته الشعورية، فإنها أيضاً تبقى ثابتة، حيث أنها تعكس المظاهر المختلفة للصراعات والرغبات الغريزية اللاشعورية. وهكذا، فالمريض المشار إليه سابقاً راودته باستمرار أحلام يقظة، أثناء مراهقته، حول إنقاذه حياة أبيه. لقد كانت أحلام يقظته تدور بانتظام حول قتل الأب. مريض آخر كان، أثناء طفولته، تراوده خيالات متكررة عن كونه في الجيش ويرمي من بندقية آلية. وفي أحلام يقظته قتل الآلاف من أعدائه الخياليين. كان لديه أيضاً في كل حلم ''رفيق ''رفيق سلاح عزيز، إصابته دائماً خطيرة، لكن يتم إنقاذه من قبل المريض بطريقة بطولية فيها تضحية بالذات. في هذه الحالة، تحدد المشهد العسكري بأحداث

خارجية: الحرب العالمية الثانية. لقد كانت رغبة المريض الشعورية أن يكبر ويصبح جندياً شجاعاً. أما المحددات اللاشعورية فقد كانت أكثر تعقيداً وأكثر أهمية. رفيق المريض في اللعب في الحياة الواقعية، كان أختاً تصغره بأربع سنوات، وكانت الأثيرة عند أمه. لقد شمل غيظه الناجم عن الغيرة كل الأسرة، لكن لم يتمكن مطلقاً من التعبير عنه صراحة. وبدلاً من ذلك، وجد متنفساً في خيالات السفك الوطني للدماء، وأيضاً في الأعراض المختلفة، وكف النشاطات المنافسة، كما نتج عنه أيضاً أمنيته في أن يكون بنتاً. أن يكون بنتاً يعني، في عقله الطفولي، أن يفقد قضيبه، وهي إمكانية سببت له قلقاً شديداً. وهكذا، ففي أحلام يقظته المتكررة، لم يكن هو من كان بنتاً، إنما أخته التي أصبحت رجلاً. علاوة على ذلك، كانت لديه بندقية آلية كبيرة كنوع من الطمأنة الإضافية – طمأنة رمزية – على أنه لم يفقد عضوه الذكوري. أخيراً، كي ينكر وبشكل حاسم أنه كره أخته وتمنى موتها، فقد أنقذها في كل حلم يقظة بالمخاطرة بحياته هو، وتولي علاج إصابتها بكل عناية.

كيف يمكننا استخدام معرفتنا بأحلام يقظة المريض في سيكولوجيا الإنتاج الفني الأدبي؟ أي خلاصة صحيحة يمكننا استنتاجها؟ نحن على ثقة بأن الأدباء لا يختلفون عن الناس الآخرين فيما يتعلق بالعلاقة بين أحلامهم أثناء اليقظة ورغباتهم اللاشعورية. وأحلام يقظتهم أيضاً يجب أن تكون مدفوعة في جزء منها على الأقل بالرغبات الغريزية للطفولة، التي ما تزال نشطة في عقولهم، رغم أنهم على غير دراية بها. ولأن أحلام يقظتهم هي المادة الخام، إذا جاز القول، لما يكتبون، فإن من الممكن، على الأقل في العديد من الحالات، أن نستنتج شيئاً ما عن مضمون رغبات الطفولة لمؤلف معين، وعن صراعاته حولها، من خلال

مراجعة كتاباته. وإذا كان في الإمكان الاطلاع ليس فقط على أعماله المنشورة، بل على مخطوطاته، وملاحظاته، ومسوداته التمهيدية، فذلك أفضل تماماً، لأنها أكثر قرباً للمادة الخام، لأحلام اليقظة نفسها. أحياناً يكون انشغال الكاتب بموضوع، أو مواضيع معينة، قوي جداً لدرجة لا يمكن للمرء أن يخطئها، ويستنتج منها الخلاصة المناسبة، حالما تتوفر للمرء معرفة علاقة هذه الموضوعات بالبقايا اللاشعورية من الحياة الغريزية للطفولة. همينجواي Hemingway، على سبيل المثال، كان مشغولاً باستمرار بموضوع الرجولة. كانت الخشونة والذكورة تميز أسلوبه وحبكته الروائية. ونحن نعلم من الخبرة الإكلينيكية أنه حينما تشدد أحلام اليقظة على الرجولة بهذا الإلحاح، فإن الخيالات اللاشعورية خلف ذلك تتعامل غالباً مع خطر الخصاء. هل يمكن أن يكون هذا هو ما حدث مع همينجواي؟ في ظننا أن هذا هو ما حدث، وتؤيده على الأقل واقعة أن البطل في إحدى رواياته فقد في المعركة عضوه التناسلي أو جزءاً منه. مثال آخر، دستوفسكي Dostoievsky كان مشغولاً باستمرار بمواضيع الذنب، والندم، والعقاب. الجريمة والعقاب كان يمكن أن تكون العنوان لكل أعماله مجتمعة، كما كانت في الواقع، عنواناً لواحدة من أعظم رواياته. يستطيع المرء أن يفهم على الأقل جزءاً من السبب وراء اهتمامه طوال حياته بهذا الموضوع حينما يعرف أنه شاهد مقتل والده وهو صبي.

الكتاب الآخرون ليسوا مقيدين بموضوع واحد مثل هؤلاء الذين ذكرناهم. وتمتد أحلام يقظتهم عبر تشكيلة أوسع من الموضوعات اللاشعورية، التي يمكن تخمينها من الكتابات المشتقة منها. اللافت، مع ذلك، هو أن الموضوعات الرئيسية في الفن الأدبي لكبار

الكتاب تشبه تلك التي ناقشناها سابقاً والمتعلقة بالخرافات والقصص الخيالية. إنها مستمدة من الصراعات والرغبات الغريزية للطفولة. مهما حاول إخفاء الحقيقة في صورة فنية، ومهما عبر عن نفسه بطريقة معقدة، ومهما تكن ثقته في الهدف من عمله، فإن الكاتب يكون دائماً مهتماً بأن يبرز لقرائه ردود فعله تجاه رغباته اللاشعورية الخاصة؛ على سبيل المثال، أحلام يقظته. ليس في إمكانه كإنسان فعل أي شيء آخر.

العلاقة بين أحلام اليقظة والإنتاج الفني علاقة قريبة في مجالات الفن الأخرى كما هي في الأدب، ولكنها أكثر صعوبة في التحديد، حينما لا تكون الكلمات متضمنة في الشكل الفني. إذا لم يكن في إمكان المرء أن يحلل الفنان نفسه، فإنه يجب أن يظل في شك فيما يتعلق بالمحددات اللاشعورية لأحلام يقظته. المحددات الشعورية قد تكون متاحة تماماً. إنها المحددات اللاشعورية التي عادة ما يصعب الوصول إليها بأي درجة من اليقين. لهذا السبب تحوي مؤلفات التحليل النفسي دراسات عن الأعمال الأدبية والفنانين الأدباء أكثر مما تحويه من أعمال الأشكال الفنية الأخرى.

يتجاوز جمهور الفن عدد الفنانين كثيراً. لهذا السبب تكون الدوافع اللاشعورية للجمهور متاحة للدراسة المباشرة بأسلوب التحليل النفسي أكثر من دوافع الفنانين. والحقيقة، كما قلنا سابقاً، أن ردة فعل المريض على المنتج الفني ليست عادة هي بؤرة التركيز الأساسي في مستدعياته. مع ذلك، فإن ردة فعله على الكتاب، أو على الفيلم السينمائي، أو على المسرحية، أو على أي عمل آخر ترد على بال المريض تُسوِّغ استنتاجات بعينها. لكي يكون للعمل الأدبي تأثير قوي ودائم، يجب على حبكته الروائية أن تستثير وتشبع

جانباً ما مهماً من الرغبات الأوديبية اللاشعورية لأفراد الجمهور. وإذا كان العمل هو ما نسميه بالمأساة، فإن حبكته الروائية تتوافق أيضاً مع المخاوف اللاشعورية ونزعات معاقبة الذات المتصلة بشكل وثيق مع مثل هذه الرغبات الغريزية اللاشعورية.

إن أهمية المواضيع الجنسية الطفولية في الأدب تم إدراكها مبكراً من قبل المحللين النفسانيين (Rank,1912) ورسخت أهميتها منذ ذلك الحين (Beres,1951;Wangh, 1968) . حقاً، إنها واحدة فقط من بين شروط كثيرة ضرورية للعمل الأدبي كي يحقق التميز. لكنها ليست كافية في ذاتها بأي حال. غير أنه يجب الوفاء بها إذا كان للعمل أن يحقق قبولاً قوياً ودائماً. التمكن من اللغة، والمهارة في بناء الحبكة الروائية، وتصوير الشخصية، والدراما، والقدرة الوصفية، والحس الحواري، والصلة بالمشهد الحاضر، والأصالة، كلها هامة، لكن يجب أن تكون مصحوبة بحبكة روائية تشبع الرغبات العاطفية والعنيفة للطفولة إذا كان لها أن تبلغ الروعة والعظمة.

يستطيع المرء، في بعض الأحيان، أن يؤكد بمنتهى البساطة صحة هذه الجملة عن طريق مراجعة الحبكة الروائية في الأعمال الأدبية العظيمة. في هاملت، قتل أحد الأشقاء شقيقه وتزوج من زوجته، وهي علاقة جنسية سماها الشاعر صراحة نكاح المحارم. وقد انتقم ابن الشقيق المقتول بقتل عمه وأمه، ثم موته هو نفسه عن طريق عمه. في قصة تولستوي آنا كارنينا، تترك البطلة ابنها وزوجها، وهو رجل في عمر والدها، لكي تعيش مع عشيقها الشاب. عندها دمرت سعادتها، وأبعدت بسلوكها حبيبها عنها، ثم قتلت نفسها. وفي الأخوة كرامازف، كان العنصر الأساسي في حبكة ديستوفسكي هو العقاب عن القتل. من

الواضح جداً أن مواضيع نكاح المحارم ،وقتل الأقارب، كان لها سحر لاشعوري طوال حياة الإنسان، مهما حاول شعورياً إخفاء الحقيقة ،أو حتى إنكارها.

سمات الشخصية، والتوحدات، والهوايات، واختيار المهنة، واختيار شريك الحياة، والقصص الخيالية، والخرافات، والأساطير، والدين، والأخلاق، والسياسة، والسحر، والشعوذة، والصراع بين الأجيال، والثورة، والفن ـ كل هذه تمثل عينة من أداء العقل السوي لوظائفه. لقد حاولنا أن نظهر بأنه في كل منها تلعب العمليات العقلية اللاشعورية دوراً هاماً ينبع من الرغبات الغريزية للطفولة، ومن الخوف، والندم، والميل لمعاقبة الذات الناشئ عن هذه الرغبات، ومن الصراعات النفسية الناجمة عن الصدام بين الرغبة والخوف. آمل أن هذا النقاش وفر شرحاً كافياً عن قوة وشيوع التأثير الدائم للحياة الغريزية للطفولة المبكرة. إن الرغبات نفسها تستمر بشكل لاشعوري طالما استمرت الحياة. وتحل الصراعات الناجمة عنها، مرة تلو مرة، في كل جانب من الأداء العقلي، سوياً كان أو مرضياً، حتى نهاية الحياة.

قراءات إضافية

Freud,S., Civilization and its discontents. Standard edition,vol.,21,pp. 57-145.

Kris,E., Psychoanalytic exploration in art. New York: International Universities Press,1952.

Langer,W.L., The next assignment. Chapter 22 in Exploration in crisis. Schorske,C.E & Schorske E., eds. Cambridge, Mass: Harvard University Press,1969.

الفصل العاشر

التحليل النفسي المعاصر[1]

Psychoanalysis today

[1]. زمن نشر الطبعة الإنجليزية، 1973.

هذا الفصل الأخير هو من ناحية مسح، ومن ناحية تلخيص، ومن ناحية نظرة إلى المستقبل. إنه قد يثير في القارئ بعض الأفكار المتعلقة بمكانة التحليل النفسي في عالم اليوم، ويعطي فكرة عن مساهمته في المشهد الذي نتأمل فيه باعتباره " الحاضر" كما يقصد به أيضاً أن ينقل إشارة ما حول الدور المحتمل الذي يمكن أن يلعبه التحليل النفسي في المستقبل. بهذا، فهو إلى حد بعيد، وأكثر من أي فصل من فصول الكتاب السابقة، تعبير عن الانحياز الشخصي للمؤلف. إنه يعكس بالضرورة خبرة المؤلف الفردية ووجهة نظره الشخصية أكثر من أي من الفصول الأخرى.

كل كشف علمي يغير العالم. البعض يغير العالم بدرجة كبيرة، والبعض بدرجة أقل، لكن العالم لن يكون أبداً بعد هذا التقدم العلمي كما كان عليه من قبل. أحياناً يكون تأثير الاكتشاف تأثيراً عملياً، مثل اختراع محرك البخار، الذي هيأ للثورة الصناعية في القرن التاسع عشر. وأحياناً يكون التأثير بالأحرى على عالم الأفكار، وعلى نظرة الإنسان لنفسه وللعالم، أكثر منه على محيطه المادي. وفي حالة التحليل النفسي، كان التأثير مهماً في الناحيتين: عملياً، كأسلوب علاج، وأيضاً، كمصدر معلومات للإنسان "حول ما يشغل الإنسان بشكل أساسي ـ حول طبيعته الخاصة " (Freud,1933,pp.156-157).

قارن فرويد (1917 b)، في تعليق مبكر له حول تأثير التحليل النفسي على عالم الأفكار، اكتشاف التحليل النفسي باكتشاف نظريات كوبرنيكوس وداروين الذي صدر له، بالمناسبة، كتابه أصل الأنواع في نفس السنة التي ولد فيها فرويد. أظهرت نظرية كوبرنيكوس حول تبوء الشمس مركز الكون أن عالمنا ليس مركز الخلق، بل مجرد واحد من كواكب متعددة

تدور حول الشمس، وبنفس الطريقة وضعتنا نظرية التطور في مكاننا الصحيح بالمعنى البيولوجي. إننا لم نُخلَق خصيصاً لنحكم العالم، كما يقول الإنجيل. إننا واحد من بين ملايين الأنواع التي تطورت منذ تشكل أول جزيء بروتيني من مئات الملايين من السنين. والتحليل النفسي، كما وضعه فرويد، يقول لنا بأننا لسنا أسياداً حتى على عقولنا ذاتها. نحن مُسيطَر علينا، وحتى موجهون، بواسطة عمليات عقلية لا شعورية، ورغبات، ومخاوف، وصراعات، وخيالات لم يكن يشتبه حتى في وجودها أساساً قبل اكتشاف التحليل النفسي.

من المعروف أن مثل هذا التحدي الكبير للمعتقدات المستقرة يجعل معظم الناس مضطربين. فغالبية البشر ليسوا سعداء بأن يجدوا الأفكار التي تعايشوا معها يتم إبطالها وبطريقة فظة. لهذا السبب يعارضون التغيير. وكما نتوقع مما وورد في السابق، فإنهم يدافعون عن انفسهم ضد الأفكار الجديدة كي يتجنبوا أو يخففوا من الضيق العقلي والكدر المرتبط بفكرة التغيير. وسوف يكون تخمين المخاوف اللاشعورية المرتبطة بمثل هذه التغيرات مثيراً للاهتمام، لكن هذا ليس المكان لمثل هذه المناقشة. لقد أكد فرويد نفسه، في الأعمال المشار إليها سابقاً، على دور النرجسية. فحينما يصبح شعور الفرد بأهميته مهددا أو معرضاً للتجريح، يقول فرويد، ينشأ الكدر، حيث يتم تحريك مشاعر العجز والنقص اللاشعورية التي تعود إلى الطفولة، مع كل الصراعات الناجمة عنها.

على أية حال، لم يعد التحليل النفسي جديداً تماماً في الوقت الحاضر. فحداثته آخذة في الزوال، كما سبق وأن حدث مع نظرية التطور ومع طبيعة النظام الشمسي. عندما ينشأ الفرد على قبول صحة أفكار داروين وكوبرنيكوس، فإنها تصبح مصدر متعة أكثر منها

مصدر كدر، مثلما كانت عليه حينما أعلنت للمرة الأولى. إن معرفة شيء ما عن أصل الأنواع وعن طبيعة وحجم العالم هو أمر مثير ومصدر سعادة بالنسبة لمعظم الأشخاص، وذلك كما يلاحظ من الجاذبية الكبيرة للمقالات والكتب العلمية الشعبية. مرة ثانية، قد يتكهن المرء فيما يتعلق بالرغبات اللاشعورية التي تم إشباعها، وعن أصولها في الطفولة. ومرة أخرى، مع ذلك، يجب أن نقنع أنفسنا بالتلميح من بعيد إلى المشكلات المعقدة ونمتنع عن مناقشتها.

والنقطة التي نود إبرازها هنا هي أن المعرفة بالتحليل النفسي كما في هذا الكتاب حاولت نقل النتائج بنفس أسلوب الأفق الواسع الذي فعله الفهم المشابه للنظريات الأساسية في العلوم الحيوية والفيزيائية. فالأخير فتح عقولنا على طبيعة العالم من حولنا، حيث لم يعد العالم كما هو بالنسبة لنا بعد أن درسنا الكيمياء أو الفيزياء أو الجيولوجيا أو علم الفلك أو علوم الحياة. فالمد والجزر على الشاطئ، والثلج على البركة، والأرض والصخور تحت أقدامنا، كما مجرة درب التبانة فوق رؤوسنا، كلها جديدة ومختلفة بعدئذ عما كانت عليه في السابق. وبنفس الطريقة، يساعدنا التحليل النفسي على أن نعرف أكثر عن الناس حولنا أكثر مما كان في إمكاننا في السابق. إنه يمنحنا بعداً جديداً في نظرتنا للبشر مثلنا.

ساعدنا التحليل النفسي باكتشافاته على أن نكون صورة أكثر إحاطة وكمالاً ودقة بسلوك الإنسان وحياته العقليةـ الإنسان كشخص. نحن نعلم عن طريق الفيزياء أن الأجسام المادية ليست هي كما تبدو لحواسنا غير المدعومة. ونحن نعلم أنه حتى أجسامنا نحن ليست تكوينات صلبة، ولكن مثل كل الأجسام الصلبة الأخرى، هي كتل مختلطة من ملايين من

الجزيئات يصعب حصرها، كل منها في المقابل مكون من ذرات والكترونات وجسيمات ذرية، وكلها في حركة سريعة ثابتة. وبنفس الطريقة نحن نعلم من التحليل النفسي أن كل فكرة وكل فعل هو أكثر تعقيداً مما يمكن لأي شخص أن يتصوره قبل أن يبتكر فرويد اسلوب التحليل النفسي في البحث. ونحن نعلم أن كل ما نفكر فيه او نفعله قد تمت صياغته من ناحية بواسطة قوى الهو، على سبيل المثال، بواسطة إرث الرغبات الغريزية للطفولة ؛ ومن ناحية ثانية، بواسطة الدفاعات ضد هذه الرغبات (الأنا)؛ ومن ناحية ثالثة، بواسطة المطالب الأخلاقية (الأنا الأعلى)؛ ومن ناحية بواسطة ضرورات الظروف الخارجية الحاضرة وما تعرض من فرص للإشباع. يستطيع الفرد عن طريق معرفته بالتحليل النفسي أن يلحظ أهمية الدور الذي تلعبه الحوافز والصراعات الناتجة عنها في دافعية الإنسان. لقد كتب كريس Kris (1947) يقول: إن التحليل النفسي هو سلوك الإنسان مدروساً باعتباره صراعاً، وهي حكمة تحليلية بامتياز تعبر عن استبصار عميق بطبيعة الإنسان. الإنسان مخلوق تمثل شهيته الحيوانية، التي تكونت بواسطة خبرات الطفولة، الدافع الأساسي الذي يدفعه للتصرف طوال حياته. الدوافع، ووظائف الأنا التي تتصرف كمنفذ للدوافع أو كدفاعات ضدها، والقلق، والذنب، والصراع، والدور المهم الذي تلعبه العمليات اللاشعورية في الحياة العقلية، كلها أجزاء من منظور التحليل النفسي عن الإنسان. إنه بشكل لا يضاهى المنظور الشامل المتوفر حالياً. ما يمكن أن يأتي به المستقبل من اساليب جديدة لدراسة سيكولوجية الإنسان هو أمر يمكن فقط تخمينه. حتى الآن، أسلوب التحليل النفسي هو الأسلوب الأفضل المتوفر. إن ما أسفر عنه من نتائج ترك كثيراً من الأسئلة بدون إجابة والعديد غيرها مبهماً، وهذه حقيقة

،غير أن تطبيقاته ألقت ضوءً أكثر على مناطق من سيكولوجية الإنسان كانت في السابق مجهولة تماماً. لقد هيأ البداية الأولى الأساسية نحو فهم أفضل لمشاكل علم النفس، والتي هي ذات أهمية جوهرية للإنسان نفسه. فنحن نعلم الآن قدراً كبيراً عن أنفسنا وعن نظرائنا من البشر أكثر مما كنا نعلمه قبل أن تبدأ أبحاث فرويد النفسية.

ما هي آفاق المستقبل بالنسبة للتحليل النفسي؟ ما هي المجالات التي ما زالت غير مستكشفة، أو التي هي حالياً موضع خلاف بين علماء التحليل النفسي أنفسهم ؟ ما هي مجالات البحث النشطة لدي علماء التحليل النفسي في الوقت الحاضر؟

إن من المخاطرة دائماً محاولة التنبؤ بالآفاق المستقبلية لأي ميدان علمي؟ ففي هذه اللحظة التي أكتب فيها قد تجري بعض التطورات الجديدة وبعض الاكتشافات غير المتوقعة التي تؤثر على مجرى الأحداث بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، وغير متوقعة بالمرة. مثل هذا الاحتمال متأصل تماماً في صلب المحاولات العلمية، حيث آفاق العلم ممتدة على الدوام. يؤمن بعض العلماء بأنهم سيواصلون البحث دائماً، وأن العلم تحقيق لا ينتهي، واستكشاف لا يتوقف. ربما يكونون على حق في إيمانهم، مع أن كلمات ''لا ينتهي'' و ''لا يتوقف'' تعني اللانهاية، وهو مفهوم صعب جداً الإمساك به في الواقع بأي نوع من الطرق الشخصية. شيء واحد محتمل جداً على أي حال، وهو أن نهاية الاكتشافات الجديدة في العلم لن تقع لفترة طويلة جداً. حتى الآن، لم تؤد جهود الإنسان لشيء عدا أن تخدش سطح العالم الذي هو جزء منه، العالم الذي يعيش فيه ويحتويه هو نفسه. إن من المستبعد أن ينتهي هذا المسعى لفهم العالم قريباً.

واضعين في اعتبارنا إذن المخاطرة المرتبطة بمحاولة القيام بأي تنبؤ، ما الذي يمكن للمرء أن يقوله فيما يتعلق بمستقبل التحليل النفسي ؟

في الوقت الحاضر[2]، الاهتمام بالتحليل النفسي في توسع. ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال ،يوجد من المحللين النفسانيين المدربين عشرة أضعاف ما كان عليه العدد في عام 1940، وما يقرب من عشرين مرة ما كان عليه العدد في عام 1930. مع ذلك، العدد الكلي صغير. ففي قائمة رابطة المحللين النفسانيين الأمريكيين عام 1971 أُدرِج 1332 عضواً، وهو ليس رقماً كبيراً بالنسبة لبلد يتعدى سكانه المائتي مليون نسمة. الحقيقة أنه في عام 1930 لم يكن هناك سوى حفنة من علماء التحليل النفسي في العالم كله، معظمهم كان في فيينا، وبرلين، ونيويورك، ولندن. اليوم يوجد عدد متزايد من المحللين النفسانيين الممارسين للمهنة في معظم دول أميركا اللاتينية وأوروبا الغربية، إضافة إلى كندا، الولايات المتحدة، استراليا، إسرائيل، الهند، واليابان. هناك مراكز هامة لتعليم الممارسة والبحث في التحليل النفسي من تل أبيب وحتى أوسلو، ومن بيونس آيريس وحتى مونتريال. ويبدو من المحتمل جداً أن الاهتمام الحالي بالتحليل النفسي من جانب الأطباء النفسانيين والاختصاصيين المرتبطين بهم في مجال الصحة العقلية سوف يواصل النمو لفترة من الزمن. إن معرفة اساسيات التحليل النفسي ضرورية من أجل الممارسة الحكيمة لأي شكل من العلاج النفسي. بدون ذلك، فإن المرء يعمل في الظلام معتمداً على العشوائية. إضافة إلى ذلك، إذا كان الشخص يرمي إلى ممارسة العلاج النفسي، فإنه يُنصَح أن يعرف قدر ما يستطيع عن صراعاته النفسية

[2] يعني وقت صدور هذه الطبعة المنقحة عام 1973. (المترجم)

الخاصة. بدون معرفة عميقة عن نفسه، وبدون حل مرض لصراعاته العقلية الأساسية، فإنه عرضة لأن يستجيب لصراعات مرضاه، ولرغباتهم ومخاوفهم اللاشعورية، بطرق يكون من الصعب أو المستحيل التحكم فيها، وربما تكون ضارة لمرضاه. ما يعنيه هذا هو أنه في معظم الحالات ينبغي على الأشخاص الذين يرغبون في ممارسة العلاج النفسي أن يخضعوا هم أنفسهم للتحليل النفسي. فالتحليل النفسي الشخصي يكون دائماً إضافة قيمة لتدريب الشخص، وغالباً ما يكون أساسياً.

في الماضي القريب أصبح هناك إدراك متزايد لأهمية العلاج النفسي كأسلوب علاج مع تطور مناظر في استخدامه. وإذا استمر هذا الاتجاه، فيمكن للمرء أن يتنبأ وهو مطمئن بنمو متواصل في تعليم التحليل النفسي وممارسته أيضاً. وطالما أي شكل من العلاج النفسي يمارس على نطاق واسع، فإن التحليل النفسي سوف يلعب دوراً مهماً كعلاج وكمصدر للمعرفة على حد سواء.

وعلى أي حال، فإن أهمية التحليل النفسي تمتد أبعد بكثير من ميدان الصحة العقلية. فكما حاولنا أن نُظهر ببعض من التفصيل في الفصل السابق، فإن للتحليل النفسي الكثير مما يقوله حول مظاهر عدة من الحياة العقلية السوية أيضاً. الحقيقة أن التحليل النفسي يستطيع أن يمد أولئك المهتمين بأي من العلوم السلوكية أو الاجتماعية، وأيضاً المختصين في القانون وطلاب الفن أو الأدب، بمعرفة عن عقل الإنسان أكثر دقة مما هو متوفر من أي مصدر آخر – معرفة عن حاجاته، عن مخاوفه، عن صراعاته، وعن دوافعه كما تنمو في مضمار الطفولة وكما تعمل في النضج. هذه المعرفة قيمة لأسباب مفهومة للمهنيين في أي

من المجالات التي ذكرناها للتو، رغم أن الاعتراف بقيمتها لا يزال في بدايته فقط. أولئك الذين شرعوا في استخدام اكتشافات التحليل النفسي في المجالات المرتبطة باهتماماتهم مازالوا رواداً، ويستطيع المرء أن يتوقع زيادة كبيرة جداً في هذا الاتجاه. والمؤمل أنه سوف يأتي الوقت الذي سوف يُعترَف فيه بالمعرفة بالتحليل النفسي كجزء أصيل في تعليم أي مهنة في أي مجال يتعامل مع الإنسان وأعماله.

هذه هي التوقعات للسياق المستقبلي لتطور التحليل النفسي، بالقدر الذي يمكن للمرء أن يقرره في الوقت الحالي. من المثير للاهتمام أن التحليل النفسي وجد القليل من القبول في الاتحاد السوفييتي أو في تلك البلدان الحليفة له[3]. إنه ليس من السهل أن نفهم وبشكل تام لماذا حدث ذلك. الحقيقة أن فرويد نفسه كتب ذات مرة بضع كلمات معبراً عن بعض الشك فيما يتعلق بإمكانية نجاح الشيوعية في تغيير الطبيعة الإنسانية بحيث يصبح البشر أقل منافسة وعدائية لبعض. مع ذلك، يبدو من المستبعد أن تكون هذه الجمل هي الأساس الحقيقي، لأن الحقيقة هي أن الدول المعنية قد تبنت رسمياً اتجاهاً من اللامبالاة أو العدائية الصريحة للتحليل النفسي. والواقع أن فرويد لم يكن أبداً معادياً بشكل صريح للأفكار السياسية والاقتصادية لماركس، وكثير من علماء التحليل النفسي في العشرينيات كانوا ماركسيين نشطين. أيضاً لا يبدو محتملاً أن الخصومة لعلم النفس من أي نوع والتي كانت سمة شخصية خاصة لعالم الفسيولوجيا العصبية الروسي العظيم، بافلوف، يمكن أن يكون لها مثل هذا التأثير الدائم والواسع. وفي غياب أي بيانات توضيحية مرضية، فإنه يمكن للمرء أن

[3]. طبعاً كل ذلك تغير وأصبح تاريخاً بعد انهيار الاتحاد السوفييتي واستقلال الدول الدائرة في فلكه . (المترجم)

يذكر أنه حوالي عام 1950 اعتبر السياسيون السوفييت انفسهم مؤهلين للحكم على نظريات الوراثة وانتهوا إلى دعم نظريات ليسينكو Lysenko. وبعد مرور عدد من السنوات فيما بعد تم إصلاح الخطأ، لكن فقط بعد أن تحولت القيادة السياسية للبلاد إلى أيد أخرى. ربما شيء ما مؤسف مشابه حدث مع التحليل النفسي. إذا كان الأمر كذلك، فالخطأ لم يتم إصلاحه بعد.

والآن، مع كلمات قليلة حول المجالات الحالية ذات الاهتمام الخاص داخل ميدان التحليل النفسي ذاته. تستمر مجالات الاهتمام الرئيسية في أن تكون الممارسة الإكلينيكية وتعليم التحليل النفسي، على سبيل المثال، تدريب المحللين النفسانيين على الممارسة الإكلينيكية. إن الغالبية العظمى من المحللين النفسانيين مهتمون بشكل اساسي بتحسين مهاراتهم الخاصة في تطبيق أساليب التحليل النفسي، وفي جعل الصياغات، المتعلقة بالأداء العقلي والنمو العقلي، والمشتقة أساساً من بيانات الملاحظات الإكلينيكية، أكثر دقة. إن اهتمامهم الأساسي هو كيف يفهمون وكيف يعالجون بشكل أفضل أولئك الذين قصدوهم لطلب المساعدة. اهتمامهم الثاني، المرتبط (بالأول) بشكل قريب، هو مساعدة أولئك الذين يرغبون في ممارسة التحليل في اكتساب المعرفة والخبرة الضرورية التي تمكنهم من فعل ذلك.

بالإضافة إلى هذه المجالات الأساسية من الاهتمام هناك مجالات أخرى تستحق الذكر. هناك اهتمام متزايد بتعليم التحليل النفسي للمهنيين في مجالات مرتبطة بالتحليل النفسي، وعلى وجه الخصوص بمؤسسات تعليم التحليل النفسي في الولايات المتحدة والمانيا. ومع ذلك، فإن مثل هذه البرامج ما زالت حتى الآن في مرحلة مبكرة من النمو. وكما سبقت

الإشارة، فإن هذه منطقة من النشاط يتوقع المرء أن تزداد بشكل كبير في المستقبل.

المنطقة الأخرى والتي استغرقت نشاط مجموعة صغيرة من المحللين النفسانيين في السنوات الأخيرة ،وجذبت اهتمام أعداد اكبر منهم، هي نمو الطفل. فالمحللون النفسانيون المنهمكون في ملاحظة سلوك الأطفال الصغار في دور حضانة معدة خصيصاً قدموا مساهمة جوهرية للمعرفة النفسية حول السنوات المبكرة من الحياة. بعض هذه المساهمات أحدث تأثيراً مسبقاً على علاج التحليل النفسي لكل من الأطفال والكبار، حيث مراكز هذا النوع من الأعمال في لندن وفي بعض المدن في الولايات المتحدة. إنه عمل يستغرق وقتاً طويلاً جداً، حيث أنه غالباً يتضمن ملاحظة طفل وأسرته لعدة سنوات.

ويرتبط بدرجة قريبة جداً مع اهتمام المحللين بنمو الطفل الاهتمام المتزايد الذي أبداه علماء التحليل النفسي في السنوات الأخيرة بالنمو العقلي للطفل، من حيث الدور الذي تلعبه المعاملة التي يتلقاها الطفل بواسطة الكبار المسئولين عن رعايته خلال السنتين الأوليين من حياته على نموه العقلي. ومعرفتنا عن الموضوع ما زالت غير وافية بشكل كاف يسمح بأي نوع من الصياغة النهائية. ويبدو من المحتمل أن تراكم المعرفة سوف يلقي ضوءً هاماً على بعض المشكلات الشائكة التي ما زالت مبهمة. على سبيل المثال، نحن نعرف أن الطور الأوديبي (تقريباً سنتين ونصف إلى ست سنوات) فترة اضطراب ومصاعب لكل طفل. إنها فترة هامة وحاسمة في النمو النفسي. فما يحدث للطفل خلال هذه السنوات يؤثر على نموه السوي وغير السوي فيما بعد، ويستمر خلال كل السنوات القادمة. لماذا الصراعات الأوديبية، رغم أنها موجودة عند كل طفل، سلبية في نتائجها على بعض الأطفال دون

آخرين؟ لماذا تترك بعض الأطفال عاجزين نفسياً بقية حياتهم، بينما آخرون يتأثرون فقط لدرجة نعتبرها سوية؟.

تبدو الإجابة على هذا السؤال غالباً ممهدة furnished بأحداث المرحلة الأوديبية نفسها، بالخبرات الجنسية، بالحوادث المخيفة، بالموت أو الهجر، بالمرض، إلخ. مع ذلك، ليس هذا دائماً هو الوضع، فقد أشار فرويد في أعماله المبكرة إلى أهمية العوامل التي سماها عوامل بنيوية، تمييزاً لها عن عوامل الخبرة مثل تلك التي أشرنا إليها الآن. إضافة إلى مثل هذه العوامل البنيوية، يبدو على الأرجح أن ما يحدث للطفل خلال السنتين الأوليين يلعب دوراً هاماً في تحديد الكيفية التي سوف يتفاعل بها مع الأحداث الضاغطة خلال الثلاث أو الأربع سنوات التالية. ومن الممكن أنه حينما يتراكم الدليل حول الدور الذي تلعبه معاملة الكبار الراعين للطفل، خلال السنوات المبكرة من حياته – عن طريق " نوعية الأمومة " التي يتلقاها الطفل ـ فسوف يكون من الممكن أن نفهم بشكل أفضل لماذا تأثر أحد الأطفال بالضغوط النفسية للمرحلة الأوديبية بشكل سلبي جداً أكثر من الآخر.

ليس من شك في أن مساهمات قيمة أخرى عن السنتين الأوليين من الحياة سوف تضاف بواسطة دراسات التحليل النفسي الحالية والمستقبلية – مساهمات سوف تكون مفيدة عملياً لأولئك المهتمين مباشرة برعاية الطفل.

كل تحليل نفسي، هو من بين أشياء أخرى، دراسة لتاريخ حياة الفرد. إنه بحث في الحوادث الرئيسية لتلك الحياة، في علاقة أحدها بالآخر، وفي كل من أسبابها النفسية ونتائجها النفسية. إن التاريخ الذي ينبثق عن تحليل الفرد يحمل تشابهاً ضئيلاً، وهذا صحيح،

مع التاريخ الشخصي الذي نسميه حرفياً بالسيرة الذاتية، وتشابهاً أقل مع النعي والمديح. إنه يتعامل بدرجة أقل مع أجزاء الحياة الأكثر ظهوراً للعالم على وجه العموم أكثر مما يفعله كُتّاب النعي والسير الذاتية. فاهتمامه الرئيسي، بالأحرى، بتلك الأجزاء من حياة الفرد التي يحتفظ بها كل شخص مخفية، ليس فقط عمن حوله، بل عن نفسه أيضاً. إنها قصة الحوادث والقوى المخبوءة hidden التي تكمن تحت الأحوال الظاهرة لحياة كل إنسان، وترسم حدودها، وتمنحها الهيئة والتتابع الذي تميزه بوصفه إنساناً.

لذلك، تصنع مهنتهم مؤرخين من المحللين النفسانيين، وإلى حد ما، من كل من اصبحوا مطلعين على ما يقوله التحليل النفسي عن عقل وسلوك الأنسان. لقد حاولنا في هذا الفصل، كما يفعل المؤرخون غالباً، أن نتنبأ بالمستقبل مما نعرفه عن الماضي وعن الحاضر. ومع ذلك، مهما كان مثل هذا التنبؤ مثيراً للاهتمام، فإنه لا يستطيع ابداً مجاراة سحر رؤية ما يحدث في الواقع، ومشاهدة المستقبل نفسه يتكشف كي يصبح الحاضر، والتعلم منه عن الماضي أكثر مما استطعنا معرفته أو تخمينه حينما كان نفسه الحاضر.

مراجع الكتاب

1. Arlow, J. A. (1949), Anal sensations and feelings of persecution. Psychoanal. Quart., vol. 18,pp.79-84.
2. Arlow, J.A.& Brenner, C.(1964), Psychoanalytic concepts and the structural theory. New York: International Universities Press.
3. Beres, D.,(1951), A dream , a vision, and a poem: a psychoanalytic study of The Rime of the Ancient Mariner. Internat. J. Psycoanal, vol.32,pp. 97-116.
4. Beres, D. & Obers, S., J.(1950), The effects of extreme deprivation in infancy on psychic structure in adolescence: a study in ego development. The psychoanalytic study of the child.Vol.5., pp.212-235. New York: International Universities Press.
5. Bibring, E.,(1941) The development and problems of the theory of the instincts. Internat.J.Psdho.Anal..Vol.22,pp.102-131.
6. Blau, A.(1952),In support of Freud's syndrome of anxiety(actual) neurosis. Internat.J.Psycho.Anal.,vol.33,pp.363-372.
7. Breuer, J.& Freud, S.(1895), Studies on hysteria. Standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud.Vol.2,pp.1-305, London: Hogarth Press,1955.
8. Deutsch, H.(1933), Psychoanalysis of the neuroses. New York: Anglo - books,1952.
9. Deutsch, H.(1934), "Uber einen typus der pseudoaffektivitat - als ob." Internationale Zeitschrift fur psychoanalyse.Vol.20,pp.323-335.
10. Deutsch, H.(1942), Some forms of emotional disturbances and their relationship to schizophrenia. In yearbook of psychoanalysis.Vol.1,pp.121-136. Edited by S. Lorand. New York: International Universities Press.
11. Eidelberg,L. (1948),Studies in psychoanalysis New york: International Universities Press,1952,Chap.14 & 15.
12. Fenichel, O. (1939), Problems of psychoanalytic technique. New York: The psychoanalytic Quarterly,Inc.,1941,p.67.
13. Fenichel, O (1945), The psychoanalytic theory of the neuroses. New

York: Norton.
14. Freud, A.(1936) The ego and the mechanism of defense. The writings of Anna Freud, vol.2.New York: International Universities Press, 1966.
15. Freud, A.(1954a)Problems of infantile neurosis.Ibid.,vol.4,pp. 327-355.New York: International Universities Press,1968.
16. Freud, A.(1945a) The widening scope of indications for psychoanalysis. Ibid.,pp.356-376.
17. Freud, A.(1965) Normality and pathology in childhood. Ibid., vol6.,pp. 100-107. New York: International Universities Press.
18. Freud, S.,(1894), The neuro - psychoses of defence.[1]Vol.3,pp.43-61,1962.
19. Freud, S.,(1895),On the grounds for detaching a particular syndrome from neurasthenia under the description “anxiety neurosis.” Ibid,pp.87-117.
20. Freud, S.,(1896),Further remarks on the neuro-psychoses of defence.Ibid.,pp.159-185.
21. Freud, S.,(1898),Sexuality in the aetiology of the neuroses. Ibid., pp.261-285.
22. Freud, S., (1900), The interpretation of dreams.Vol.,4 & 5,1953.
23. Freud, S., (1904), The psychopathology of everyday life. Vol.,6,1960.
24. Freud, S.,(1905a), Jokes and their relation to the theory of the unconscious.Vol.,8,1960.
25. Freud, S.,(1905b), Three essays on the theory of sexuality.Vol.,7, pp.125-243,1953.
26. Freud, S.,(1905c), Fragment of an analysis of a case of hysteria. Ibid, pp. 3-122.

---

[1] جميع الإشارات التالية لمؤلفات فرويد موجودة في الطبعة التالية الكاملة لأعماله:
The standard edition of the complete psychological works of Sigmund Freud , Volumes I-XXIII. London: Hogarth Press.

27. Freud, S.,(1906), My views on the part played by sexuality in aetiology of the neuroses. Ibid,pp.269-279.
28. Freud, S.,(1908a), Character and anal erotism.Vol.,9,pp.168-175,1959.
29. Freud, S.,(1908b), Creative writers and day dreaming. Ibid.,pp.141-153.
30. Freud, S.,(1910), Leonardo da vinci and a memory of his childhood. Vol.,11,pp.59-137,1957.
31. Freud, S.,(1911), Formulations on the two principles of mental functioning.Vol.,12,pp.215-226.1958.
32. Freud, S.,(1913), A note on the unconscious in psychoanalysis.Ibid.,pp.257-266.
33. Freud, S.,(1914), On narcissism: an introduction. Vol.,14,pp.69-102,1957.
34. Freud, S.,(1915a),Instincts and their vicissitudes.Ibid.,pp.111-140.
35. Freud, S.,(1915b), Repression.Ibid.,pp.143-158.
36. Freud, S.,(1915c), The unconscious.Ibid.,pp.161-215.
37. Freud, S.,(1916a), Mourning and melancholia.Ibid.,pp.239-258.
38. Freud, S.,(1916b), A metapsychological supplement to the theory of dreams. Ibid.,pp.219-235.
39. Freud, S.,(1916c), Some character-types met with in psychoanalytic work. Ibid.,pp.219-235.
40. Freud, S.,(1917a), Introductory lectures on psychoanalysis.Vol.,15 & 16 ,1963.
41. Freud, S.,(1917b), A difficulty in the path of psychoanalysis. Vol.,17,pp.137-144,1955.
42. Freud, S.,(1917c), A childhood recollection from Dichtung und Wahrheit.Ibid.,pp.146-156.
43. Freud, S.,(1920), Beyond the pleasure principle. Vol.,18,pp.3-64,1955.
44. Freud, S.,(1921), Group psychology and the analysis of the ego.

Ibid., pp.67-143.
45. Freud, S., (1923), The ego and the id.Vol.,19, pp.3-66, 1961.
46. Freud, S.,(1924a),The passing of the Oedipus complex. Ibid., pp.172-179.
47. Freud, S.,(1924b), The loss of reality in neurosis and psychosis. Ibid., pp.183-187.
48. Freud, S., (1924c),The economic problem of masochism. Ibid., pp.157-170.
49. Freud, S.,(1924d), Neurosis and psychosis. Ibid., pp.148-153.
50. Freud, S.,(1925), An autobiographical study. Vol., 20,pp.3-74.1959.
51. Freud, S.,(1926), Inhibition, symptoms and anxiety.Ibid.,pp.77-174.
52. Freud, S.,(1933), New introductory lectures on psychoanalysis. Vol.,22,pp.3-182,1964.
53. Freud, S.,(1937), Analysis terminable and interminable. Vol.,23,pp.211-253,1964.
54. Freud, S., (1954), The origins of psychoanalysis. Edited by M. Bonabrte, A. Freud & E. Kris. New York: Basic books.
55. Fries, M. E. & Woolf, p. j. (1953), Some hypotheses on the role of the congenital activity type in personality development. The psychoanalytic study of the child,vol.,8,pp.48-62. New York: International Universities Press.
56. Hartmann, H.(1948), Comments on the psychoanalytic theory of instinctual drives. In: Essays on ego psychology, New York: International Universities Press, 1964, pp.69-89.
57. Hartmann, H.(1953a),The metapsychology of schizophrenia. In:Ibid,pp.182-206.
58. Hartmann, H. (1953b), Remarks in discussion. Meeting of the New York Psychoanalytic Society.
59. Hartmann, H & Kris, E.(1945), The genetic approach in psychoanalysis. The psychoanalytic of the child,vol.,1,pp.11-30. New York: International Universities Press.

60. Hartmann, H., Kris, E. & Loewenstein, R. m. (1946), Comments on the formation of psychic structure. Ibid., vol., 2, pp. 11-38.
61. Hartmann, H., Kris, E. & Loewenstein, R. m. (1949), Notes on the theory of aggression. Ibid.,vol.,3/4,pp.9-36.
62. Hoffer, W. (1950), Development of the body ego. Ibid., vol.5,pp.18-23.
63. Isakower, O. (1954), Spoken words in dreams. Psycho. Quart., vol., 23, pp.1-6.
64. Jacobson, E. (1953), The affects and their pleasures - unpleasure qualities in relation to the psychic discharge processes. In Drives, affects, and behavior,vol.,1. pp.38-66. Edited by R. M. Leowenstein. New York: International Universities Press.
65. Jones, E. (1931), On the nightmare. New York: Liveright,1951.
66. Kris, E. (1947), The nature of psychoanalytic propositions and theirvalidation. In: Psychological theory, edited by M. H. Marx. New York: Macmillan,1951.
67. Kris, E.(1952), Psychoanalytic explorations in Art. New York: International Universities Press,Chap.14.
68. Kris, E. (1954), The origins of psychoanalysis. New York: Basic Books, pp.3-47.
69. Rank, O. (1912), Das inzest - motiv in dichtung und sage. Leipzig, Vienna: Deuticke,1926.
70. Rank, O.(1924), The trauma of birth. New York: Robert Brunner,1952.
71. Rapaport, D., ed.(1951), Organization and pathology of thought. New York: Columbia University Press.
72. Roheim, G. (1950),Psychoanalysis and anthropology. New York: International Universities Press,1970.
73. Sachs, H. (1942), The creative unconscious. Cambridge,Mass.:Sci-Art Publishers,1942.
74. Spitz, R. A. (1945), Hospitalism. The psychoanalytic study of the

child, vol., 1,pp.53-74. New York: International Universities Press.
75. Stärcke, A. (1920), The reversal of the libido sign in delusions of persecution. Internat. J. Psych. Anal., vol., 1, pp.231-234.
76. Von Ophuijsen, J. H. W. (1920), On the origin of feelings of persecution. Ibid., pp.235-239.
77. Wangh, M. (1968),A psychoanalytic commentary on Shakespear's "The tragedie of the second" king Richard. Psychoanal. Quart., vol., 36, pp.212-238.

منشورات جامعة عمر المختار
2022